

الأدب المصري في ظل الحكم العثماني

١٩٢٢ هـ - ١٣٢٠ هـ = ١٥١٧ - ١٨٠٥ م

تأليف

محمد سيد كيلافي

دار الفرجاني

القاهرة - طرابلس - لندن

١٩٢٢

الأدب المصري في ظل الحكم العثماني

٩٢٢ هـ - ١٢٢٠ هـ = ١٥١٧ - ١٨٠٥ م

تأليف
محمد سيد كيلاني

دار الفرجاني
القاهرة - طرابلس - لندن

مقدمة

قال جورجى^(١) زيدان عن الأدب فى العصر العثمانى : « فسدت ملكة اللسان ، وجدت القرائح . وأصاب الشعر ما أصاب سائر الآداب العربية فى هذا العصر من الضعف والانحطاط لما استولى من الجمود على القرائح ، وتوالى على الأمة من الذل فى تلك الفترة المظلمة . وأصبح الكاتب أو الشاعر إنما يهيمه تنميق العبارة بالجناس والتورية والسجع ، حتى خرجوا بذلك عن الذوق المألوف ، فأضاعوا أوقاتهم فيما لا فائدة فيه من الصنائع اللفظية . فذهبت المعانى ضحية تلك الأساليب الباردة . ويشبه ذلك مبالغة أهل زماننا هذا بتزيين ظواهر المرأة بالأزياء الجديدة حتى خرجوا بها عن الغرض الأصلى من خلقها ، فأصبحت مثل سائر أدوات الزينة ، إنما يلتفت فيها إلى شكلها الخارجى . وكثيرا ما جر اجتهادها فى ذلك إلى الوقوف فى سبيل وظيفتها الطبيعية فى جسم العمران . وهكذا اللغة فى العصر العثمانى بعد أن كان المراد بالألفاظ التعبير عن المعانى وتصوير الأفكار ؛ اشتغل الكتاب بتنميق الألفاظ وأضاعوا المعانى »

فمن هذا نرى أن جورجى زيدان حكم على الأدب العربى كله من المحيط الأطلسى إلى الخليج العربى ، ومن شمال العراق إلى جنوب اليمن بأنه كان أدبا منحطاً متكلفاً ، لا أثر للحياة فيه .

وتابع جورجى زيدان فى هذا الحكم كل من جاء بعده من الكتاب الذين تعرضوا لهذا العصر . وقد صورت الكتب المدرسية العصر العثمانى فى

صورة بشعة . فلا عجب أن سرى اعتقاد راسخ في الأذهان ؛ مضمونه أن العصر العثماني لا يستحق الدرس والبحث ، وأنه خلو مما يصح أن يطلق عليه اسم الأدب ، ولم ينبج من الشعراء من يستحق اسم الشاعر ، ولا من الكتاب من تجوز نسبته إلى الكتابة .

وترتب على هذا الحكم الخاطئ ، حكم آخر مضحك وقع الناس فيه حين درسوا الأدب الحديث . فهم مثلاً يقولون إن محمود سامي البارودي أول من أحيى دولة الشعر بعد العدم ، وخلص القصيد مما علق به من قيود الصنعة اللفظية كالجناس والطباق والمقابلة والتورية وغيرها . ويزعمون أنه أعاد إلى الشعر العربي ديباجته التي أخلقت إبان العصر العثماني . ويمدحونه لأنه رجع إلى أساليب القرن الرابع ، جاهلين أو متجاهلين أن لكل عصر أساليبه ، ولكل بيئة ألفاظها وتعايرها وموضوعاتها وما توحى به .

وكان من الممكن أن أصدق هذه الأحكام التي صدرت ضد أدب هذا العصر كما صدقها الناس ، وأخذها قضية مسلمائها ، لانتقبل الجدل والمناقشة كما فعل غيري ، وأن أختار موضوعاً آخر لا كتب فيه ، فما أكثر الموضوعات التي تحتاج إلى الدرس والاستقصاء . ولكنني بدافع من حب الاستطلاع شرعت أقرأ بامعان ما وقع في يدي من الآثار الأدبية التي تركها أدباء مصر في تلك الحقبة . فراغني ما اتضح لي من فساد الأحكام التي أصدرها جورجي زيدان ومن تابعه .

وازداد اعتقادي يوماً بعد يوم بوجوب دراسة أدبنا في هذه الفترة . وتبلورت في ذهني الفكرة ، وتجمعت لدى المعلومات ، وقطعت في القراءة مرحلة طويلة ، لم أتردد بعدها في أن أجعل من دراسة هذا العصر موضوعاً لهذه الكتاب .

أما المنهج الذى سلكته فهو :

تمهيد عن الحالة السياسية منذ أواخر حكم السلطان العورى إلى دخول
العثمانيين مصر ، وما استحدثوه من أنظمة جديدة للحكم . وتتابع الولاة ،
وما طرأ على سلطتهم من ضعف ، وظهور المماليك على مسرح الحكم من جديد .
وأشرت إلى بعض الفتن التى وقعت وعرضت للحملة الفرنسية وظهور محمد على .
ثم درست الحالة الاجتماعية من حيث علاقتها بالأدب شعره ونثره .
وتناولت الحالة الفكرية ، وما أسدته مصر إلى العالم الإسلامى من خدمات
ثقافية فى ذلك الوقت . وبهذا ينتهى الباب الأول .

وفى الباب الثانى تكلمت عن الشعر وأساليبه . وبينت بالأدلة القاطعة
مبلغ الخطأ الفاحش الذى علق بالأذهان عن أساليب الشعر فى تلك الفترة .
ثم درست بيئات الشعر . فخصصت فصلاً للمدرسة البكرية ، وآخر للمدرسة
العلوية ، وثالثاً للمدرسة الأميرية ، وهى تشمل الشعر الذى قيل فى السلاطين والولاة
والأمراء من مدح أو هجاء أو رثاء . ووضحت موقف الشعراء المصريين :
هل كانوا بجانب الشعب أم كانوا مع الظالمين ؟ وبعد هذا أفردت فصلاً للشعر
الشعبى ، وهو الذى ينبع من صفوف الشعب ، وعبر عن آماله وآلامه ،
وأفراحه وأحزانه .

وقصرت الباب الثالث على دراسات تكميلية فى الشعر . تناولت فيه الأغراض
التي أكثر الشعراء من القول فيها كالغزل ، والوصف ، والإخوانيات . وقد
حرصت على توضيح آثار البيئة المصرية ، وإظهار معالمها فى كل ما تناولته .

أما الباب الرابع فيحتوى على تراجم لبعض مشاهير شعراء ذلك العصر

وفى الباب الخامس دراسة للنثر على اختلاف أنواعه . فهناك النثر الفنى
الذى ورثه أدباء العصر العثمانى عن القدماء . وهناك المقامات التى كثرت
فى تلك الحقبة واستخدمت فى شتى الأغراض . وهناك الرسائل ، ونقد المجتمع ،

ولغة التأليف . والأدب الشعبي وأقصد به القصص التي ألقت في ذلك العصر
كسيرة الظاهر بيبرس ، والأميرة ذات الهمة .

ورجت لعدد من الكتاب ، والعلماء ، والمؤرخين ، وأصحاب السير .

* * *

وغنى عن الإشارة أن الأدب للمصرى في العصر العثماني لم يكن منحطاً
ولا ميتاً كما قالوا . ولم يكن همّ الشعراء والكتاب الجرى وراء المحسنات
اللفظية كما زعموا . بل كان أدبا حيا ، له أهداف يسعى إليها ، وأغراض
يتجه نحوها .

فالمدرسة البكرية جديدة في بابها ، فريدة في نوعها ، لا عهد للمصريين
بها من قبل . والتعاليم البكرية التي تقوم عليها تلك المدرسة تعاليم غريبة
لم تعرفها مصر إلا في خلال العصر العثماني . فقد جعل البكريون من أبي
بكر الصديق شخصية تقابل شخصية الإمام على عند الشيعة الإسماعيلية .
وقد شجعت الدولة العثمانية تلك الحركة خدمة لسياستها ، ومنحت شيخ
السادة البكرية سلطة واسعة ، ونفوذاً محترماً .

والمدرسة العلوية وإن كانت قديمة إلا أنها اختفت منذ سقوط الدولة
الفاطمية . وقد رجعت إلى الحياة مرة أخرى خلال هذا العصر .

* * *

وإن الشعر الكثير الذي قيل في وصف الحداثى والبساتين ، والبرك
والدواليب ، ونهر النيل والخليج ، والأزبكية وبولاق ، والروضة وبركة الرطل ،
والقصور والطيور ؛ لم يكن متكلفاً مصنوعاً ، بل هو شعر له طابع أصيل
في الفن الشعري . ينبض بالحياة ، ويزخر بالعواطف الصادقة ، والآحاسيس
الناطقة ، والمشاعر المتدفقة .

لقد اندمج الشعراء في هذه البيئة الفاتنة ، وارتعوا بين أحضان الطبيعة على شواطئ بركة الأزبكية ، والخليج ، وبركة الرطلى ، وفي جزيرة الروضة ، وعلى شاطئ النيل العظيم ببولاق . وارتبطوا بهذه الأماكن ارتباطاً وثيقاً حتى أضحوها لا يطيقون لها فراقاً ، ولا يرون العيش إلا في ظلها وبين أشجارها وطيورها . وإذا اضطروا أحدهم إلى الابتعاد عن القاهرة نظم القصائد في الشوق إلى تلك الأماكن . وإنك لتجد في شعره ألم الفراق ، ولوعة الاغتراب . وفي سيرة الظاهر بيبرس ترى المجتمع المصري ممثلاً أوضح تمثيل .

* * *

وإني أحمد الله الذي وفقني إلى الكشف عن الأدب المصري في تلك الفترة الطويلة ، وإزاحة الستار عما أحاط به من إهمال وجهل وغموض ، وتصحيح الأحكام الخاطئة التي صدرت ضده . وهذا هو الأصل في تأليف الكتب ، أي أن يكون هدفها كشف شيء جديد ، وإضافة معلومات كان الناس يجهلونها إلى معلوماتهم التي يعرفونها .

وفي نهاية هذا الكتاب يجد القارئ جملة من قصائد بعض شعراء مصر في ذلك الحين . وبمطالعها نتبين مكانة الشعر إذ ذاك ، ومقدار ما لحقه من الغبن والجحود ، نتيجة للأحكام الخاطئة التي صدرت ضده من قوم لم يكلفوا أنفسهم مؤونة الدرس والبحث .

وإني لا أدعي أنني وصلت في بحثي إلى درجة السكال ، ولكنني أستطيع أن أقول - بلا فخر - إنني فتحت الباب على مصراعيه ليدخل منه كل من أراد الدخول ، والله المعين والموفق إلى الصواب .

محمد سيد كيلاني

القاهرة في أول يناير سنة ١٩٦٥

الباب الأول

الفصل الأول

الحالة السياسية

كان السلطان قانصوة الغورى يحكم مصر قبل الفتح العثمانى . وفى عهده كشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح ، فتحولت تجارة أوروبا إلى هذا الطريق بعد أن كانت تمر بمصر . فخسرت البلاد من جراء ذلك أموالاً باهظة كانت تجلبها على تلك التجارة . فلا عجب أن ساءت الأحوال الاقتصادية إلى حد كبير . فاضطر الغورى إلى إلقاء كاهل الشعب بالضرائب ، وبالغ فى مصادرة أموال الأعيان والتجار حتى لم يسلم منه أحد ، ومات تحت عقوبته بسبب المال كثير من . وشرع يغتصب أموال اليتامى ، ويولى الكشاف ومشايخ العربان على البلاد ويقرر عليهم الأموال الباهظة ، فيأخذ هؤلاء من الفلاحين أضعاف ما يدفعونه للسلطان . حدث هذا فى مصر والشام ، فتمنى الناس الرحيل عن بلادهم من شدة الظلم .

وانعدم وجود البضائع التى كانت ترد من أوروبا . ثم إن الغورى فرض ضرائب باهظة على كل ما يباع ويشترى ، فارتفعت أسعار الحاجات ارتفاعاً فاحشاً .

وكان يبيع الوظائف للناس نظير مبالغ طائلة حتى وظائف القضاء .

وينفق ما يجمعه من الأموال في بناء القصور الفخمة . قال ابن (١) إياس
« ولو شرحنا مساوية كلها لطال الشرح في ذلك » .

وخربت الثغور وأقمرت من أهلها ، قال ابن (٢) إياس يصف مدينة
الإسكندرية سنة ٩٢٠ هـ « فتلاشت المدينة وآل أمرها إلى الخراب حتى قيل
إن الخبز طلب بها فلم يوجد ولا الأكل » .

وكانت سياسته الخارجية فاسدة كذلك . حينما نشب النزاع بين شاه
إيران إسماعيل الصفوى وبين السلطان سليم ؛ انضم الغورى إلى الشاه وكاتبه
وتبادل معه الهدايا .

ومن أخطائه الكبرى خروجه لمحاربة العثمانيين في أطراف الشام . فتكبد
جيشه المتعاقب ، فضلا عن أن أهل الشام كانوا يضمرون له العداء . فانهز
قائده خيرى بك نائب حلب ، وجان بردى الغزالى نائب حماة إلى السلطان
سليم الذى وعد الأول بولاية مصر ، والثانى بولاية الشام . فدارت الدائرة
على الجيش المصرى بسبب هذه الخيانة ، وبسبب تخاذل المماليك . فانهزم
المصريون في « مرج دابق » قرب حلب وقتل الغورى . وقد نظم شعراء
مصر في تلك الواقعة شعرا كثيرا ، ومنهم من عرض للمظالم التى ارتكبتها
الغورى وجعلها عاملا حاسما في هزيمته . قال ابن إياس (٣) :

اعجبوا للأشرف الغورى الذى مذ تزايد ظلمه في القاهرة
زال عنه ملكه في ساعة خسر الدنيا إذن والآخرة

وقال :

لا زالت الأيام يبدو فعلها بعجائب وغرائب بين الورى
والأشرف الغورى كان مليكنا لكنه قد جار فينا وافترى

(١) (٢) بدائع الزهور طبع استانبول ١٤٩٠/٥ / ٤٢٤

(٣) ٢٠ / ٥ وما بعدها .

والموت أوجب هزمه مع جيشه قد كان ذلك في الكتاب مسطرا
أعماله ردت عليه بما جنى والدهر جازاه بأمر قُدِّرا
وقال بدر الدين الريتوني من قصيدة زجلية طويلة :

غربت شمس دولة الغورى وابن عثمان نجمو طالع ساير
وبهذا رب السما قد حكم والفلك دار ولم يزل دابر
ثم انطلق السلطان سليم قاصداً مصر في آخر سنة ٩٢١ (١٥١٧) وكان
المماليك قد اختاروا الأمير طومانباي سلطاناً على البلاد . وبعد مقاومة لم
تدم طويلا انهزم السلطان الجديد وشنق على باب زويلة . وفي ذلك
يقول ابن إياس :

نوحوا على مصر لأمر قد جرى ومصيبة عمت بليتها الورى
ومنها وفيه إشارة إلى شنق طومانباي :

شنقوه ظمناً فوق باب زويلة ولقد أذاقوه الوبال الأكبرا
يارب عفوا عن عظام جرمه واجعل بجنات النعيم له قرى
وبذلك أصبحت مصر ولاية عثمانية . قال محمد بن قانصوة :
كانت في مصر ملوك أظهروا فيها العجائب
ذهبوا عنها وصارت دورهم فيها خرائب
وهي أضحت بعد عز قرية في حكم نائب

ولما تم للعثمانيين فتح مصر جمع السلطان سليم عدداً كبيراً من أرباب
الصناعات وبعث بهم إلى الأستانة . كما أنه نقل مقادير كبيرة من الرخام والأعمدة
والكتب النفيسة . قال ابن إياس :

لطفى على سوق الصليبة كيف خربت حوانيت به مما جرى
لطفى على فك الرخام ونقله من كل بيت كان يغدو أزهرها
زالت محاسن مصر من أشياء قد كانت بها تزهو على أم القرى

فتمت أحياء كثيرة كانت طامة مثل حى الصليبة ، وشيخون .
والحسينية .

* * *

وكان خيرى^(١) بك أول ولاية العثمانيين بمصر . وقد اشتهر بالعسف .
والظلم . ومات سنة ٩٢٨ هـ ثم تعاقب الولاة على مصر . وحاول أحمد باشا
الذى تولى سنة ٩٣٠ هـ أن يستقل بحكم البلاد . فأمر أن يخطب له ، وضرب
النقود باسمه ، ولكنه بالغ فى الظلم فحقد عليه الناس ، وأخيراً تمكن بعض
قواد الجيش العثمانى فى مصر من القضاء على حركته . ثم شق على باب
زويلة سنة ٩٣١ هـ .

وكان بعض الولاة العثمانيين على درجة طيبة من الاستقامة وحسن السيرة .
ومن أشهر هؤلاء الولاة :

داود باشا الخادم الذى حكم من سنة ٩٤٥ — ٩٥٥ وكان كريماً محباً للعلم
والعلماء ، مغرمًا بمطالعة الكتب العربية حتى إنه جمع عدداً وافراً منها . وفى
أيامه انتشر الأمن وساد الرخاء . وقد بنى مدرسة عظيمة . ومات بالقاهرة .
ودفن بها .

وسنان باشا (٩٧٩ — ٩٨١) وكان مغرمًا بإقامة المباني فأنشأ عدة
مساجد ومدارس وحمامات وأسواق .

ومسيح باشا (٩٨٢ — ٩٨٨) الذى ضرب بيد من حديد على اللصوص
وقطاع الطرق ، فقتل منهم نحو عشرة آلاف رجل ، وبذلك تطهرت البلاد
من شرهم ، واستراح الناس من أذاهم .

(١) لطائف أخبار الدول للاسحاق ص ٧٠ وما بعدها . المطبعة البنية بمصر سنة ١٣٠٠ هـ

وقد أبقى السلطان سليم على المماليك فحربوا البلاد وأقفروها . ولو أنه استأصل شأفتهم لتعت مصر بالهدوء والسكينة ، ولأمكنها أن تسترد خريتها واستقلالها بأيدي أبنائها .

* * *

وقد ظل الولاة العثمانيون محتفظين بسطانهم وهيبتهم إلى سنة ١١١٩ هـ حيث اختفت قوتهم ، وحل محلها نفوذ شيخ البلد . وكان يشغل هذا المنصب أحد بكوات المماليك الذين انقسموا في ذلك الوقت إلى حزبين كبيرين : أولهما يعرف بالقاسمية ، نسبة إلى قاسم بك . والثاني الفقارية ؛ نسبة إلى ذى الفقار بك واشتهر القاسمية بكثرة المال والبخل . والفقارية بالكرم . واتخذ القاسمية اللون الأحمر شعارا لهم ، والفقارية اللون الأبيض . وتعصب كل منهم للون الذى يميل إليه حتى فى أوانى الأكل والشرب . وقد اشتد النزاع بين هذين الحزبين على مشيخة البلد ، وكثرت بينهما المعارك والفتن والدسائس . وكان الولاة يشجعون ذلك ، ويسعون فى الإفساد بين الطرفين طمعا فى استرداد نفوذهم .

ومن أشهر مشايخ البلد « إسماعيل ^(١) بك » رئيس حزب القاسمية الذى بقى فى المشيخة إلى سنة ١١٣٦ وذلك بفضل اتحاده مع الفقارية ، ولكن الولى العثمانى اجتهد فى إثارة الفتنة بين الحزبين فانتهى الأمر بقتل إسماعيل بك . ثم أخذت المعارك تلعب دورها حتى انتصرت الفقارية انتصارا تاما وقضت على القاسمية ، وكان ذلك سنة ١١٤٣ هـ

ومن الفقارية ظهر على بك ^(٢) الكبير سنة ١١٧٧ وقد سعى للاستقلال بمصر وتكوين إمبراطورية تتألف من مصر والشام والحجاز ، وكاد ينجح فى مساعيه لولا ما قام به العثمانيون من خلق الدسائس بينه وبين تابعه محمد بك

أبى الذهب . وانتهت هذه الدسائس بقتل على بك . ثم لم يلبث أبو الذهب أن مات بعد قليل ، فأكت مشيخة البلد إلى إبراهيم بك ، وإمارة الحج إلى مراد بك . فظهر بينهما تنافس كاد يؤدي إلى الحرب .
وفي ذلك الوقت رأى العثمانيون^(١) ضرورة استرجاع نفوذهم في مصر بعد أن تلاشى تماما ، فأرسلوا حملة وصلت إلى الإسكندرية سنة ١٢٠٠ هـ وبعد قتال يسير انهزم المماليك في الرحمانية وفروا إلى الصعيد . إلا أن العثمانيين لم يستفيدوا من هذا النصر لا شتبا كهم في حرب ضد روسيا واضطراهم إلى سحب جيشهم من مصر . فعاد مراد وإبراهيم إلى القاهرة واستردا نفوذهما وأمعنا في ابتزاز أموال الأهلين وإيقاع المظالم بالجاليات الأجنبية وبخاصة الجالية الفرنسية .

وفي سنة ١٢١٣ هـ جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر . وقد استغل بونايرت رغبة الدولة العثمانية في القضاء على المماليك حين أرسلت جيشها سنة ١٢٠٠ لتتحقيق هذه الغاية . فأعلن في منشوره إلى المصريين أنه إنما جاء للقضاء على طائفة المماليك الظلمة ، وليعيد مصر إلى نفوذ السلطان . كما أن المماليك اعتقدوا أن السلطان أراد أن يقضى عليهم هذه المرة بوساطة الفرنسيين . وإذا كان المماليك قد انهزموا من قبل أمام العثمانيين ، فإنهم انهزموا كذلك هزيمة شنيعة أمام الفرنسيين الذين ظلوا يحكمون مصر إلى سنة ١٢١٦ هـ حيث تم جلاؤهم عن البلاد .

وقد كثرت القلاقل والاضطرابات عقب جلاء الجيش الفرنسي ، واستمرت الأحوال تسير من سىء إلى أسوأ حتى تولى محمد على حكم مصر سنة ١٢٢٠ هـ وقد حاول المماليك أن يستردوا نفوذهم الضائع مستعينين بالإنجليز ، ولكنهم باءوا بالفشل .

* * *

ولما استتب الأمر للعثمانيين شرعوا يدخلون نظاما جديدة في القضاء لاهلهم .

(١) المرجع السابق ١٠٥/٢ .

للمصريين بها من قبل . فصدر أمر إلى القضاة بأن يحكموا في بيوتهم . ثم عينوا (١) أميراً عثمانياً في وظيفة القضاء ولجعل مقره بالمدرسة الصالحية ، وأطلق عليه لقب « المحضر » يعاونه على تنفيذ الأحكام جماعة من الإنكشارية . وتقرر ألا تنفذ الأحكام الشرعية قبل عرضها عليه . وكان يحصل على رسوم من المدعى والمدعى عليه ، ويحقق معهما بوساطة ترجمان . وحكمه نهائى لا نقض فيه ولا إبرام .

ثم فرضوا رسوماً على المحاكمات التي تجرى عند القضاة الآخرين . قال ابن إياس معلقاً على تلك الحوادث « وقد ضعفت قوة الشرع الشريف في هذه الأيام جداً » والحق إن قوة الشرع كانت ضعيفة منذ عصر للماليك . فقد كان القضاة يدفعون مبالغ طائلة للسلطان نظير تعيينهم . ولم يفعلوا ذلك إلا لثقتهم في المغنم والأرباح التي تعود عليهم من هذه الوظائف . وقد ذكر ابن إياس هذا في تاريخه ، وأتى بما يندى له الجبين . وعلى كل حال فإن هذه الأنظمة الجديدة قد سببت ضيقاً وتبرماً عند المصريين . قال أحد شعراء ذلك العصر :

يارب زاد الظلم واستخوذوا والفعل منهم ليس يخفى عليك
ومالنا إلاك فانظر لنا ونجنا منهم وخذهم إليك
وقال ابن إياس :

لهفى على الشرع الشريف وحكمه قد كان في زمن القضاة موقراً
يا لهف قلبي للشهود بمجلس كانوا بهم تقضى الحوائج للورى
الله أكبر إنها لمصيبة وقعت بمصر ماها مثل يرى
وقال آخر :

كان شعار الدين ظاهر كالشموس والمجالس من الشهود في الجلس
(١) ابن إياس ٥ / ٢٢٠ وما بعدها .

شبه أثمار ترتاح إليها النفوس هم جمال الإسلام وقم القسوس
اختفت دى الشمس بظلم النهار
وقضاة الإسلام محى رسمهم والشهود اختفوا وضاع اسمهم
صار على العقد جاليه. رسمهم وقضاة القضاة بترسيمهم
طول النهار مع الأمين فى حصار

١. وفرض العثمانيون (١) تحصيل رسوم على عقود الزواج وقضايا الطلاق .
وقرروا أن تجرى شئون الزواج والطلاق على يد أحد القضاة فى منزله .
فتضرر المصريون من ذلك ، ثم أبطلوا نواب القضاة والشهود فأقمرت منهم
المدرسة الصالحية . وقد احتج الفقهاء على نظام الزواج والطلاق الجديد ،
ولكن احتجاجهم لم يأت بنتيجة . وفى سنة ٩٢٨ هـ عين السلطان سليمان
قاضيا يلعب بقاضى العسكر ومنحه سلطة واسعة تشبه سلطة وزير العدل
الآن . فكان يتولى تنصيب القضاة وعزلهم . وأمرهم أن يتخذوا المدرسة
الصالحية مقرا لهم كما كانت الحال من قبل . ولا تعتبر أحكامهم نافذة إلا بعد
مصادقته عليها . وعين كذلك قاضيا للمواريث سماه « قاضى الترك » ومشرفا
على أوقاف الجوامع والمدارس . وقد أصدر هذا القاضى أمرا بمنع النساء
من الخروج إلى الأسواق ماعدا العجائز فقط . ومنعهن من ركوب الخيل .
وفرض عقوبة صارمة على كل من تخالف ذلك « ووقعت منه أمور (٢)
شنيعة ماتقم من الجهال والمجانين » وكان كما وصفه ابن إياس « طاعنا فى السن
أعور ، ذا لحية بيضاء ، قليل الرأس من العلم ، أجهل من حمار ، لا يدرى
شيئا فى الأحكام الشرعية . وقدمت إليه عدة فتاوى فلم يجب عنها بشيء »
لذلك كان موضع دعاية المصريين وسخرتهم . وقد هجاه بعض الشعراء ،
فمن ذلك قول أحدهم :

رأيت مسيحاً أعورا قبل موتنا أتى من بلاد الروم يمنع رزقنا
يقدم قانوناً على شرع أحمد فنسأل رب العرش يكشف كربنا
وقال ابن إياس :

رأيتك لا ترى إلا بعين وعينك لا ترى إلا قليلاً
فإنك قد أصبت بفرد عين فخذ من عينك الأخرى كفيلاً
فقد أيقنت أنك عن قريب إذن بالكف تلمس السبيلاً

* * *

ثم شرعوا في مسح الأراضي الزراعية بما في ذلك الأوقاف وفرضوا
عليها الضرائب الفادحة ، فرحل الفلاحون عن قراهم . قال ابن إياس :
كان ابن عثمان مذجاً مصر مثل الضيف رحل وولى علينا كل صاحب حيف
مباشرين يجوروا في الشتا والصيف أطراف أقاليمهم تفعل فعال السيف
وكان المصريون يحرسون على اقتناء الكلاب للحراسة من اللصوص
وقطاع الطرق . فصدر سنة ٩٣٤ هـ أمر وصفه ابن إياس بأنه حادث غريب .
وهو أن الوالي العثماني أمر بقتل الكلاب ، ف وقعت فيها مقتلة عظيمة حتى
كادت تنفى . وفي ذلك يقول ابن إياس :

تأملوا ما جرى بمصر من حادث عم بالعذاب
فما رعى الترك في دماء فكيف يرعون دم الكلاب ؟
فلما كثر قتل الكلاب توجه الزيني بركات بن موسى المحتسب إلى الوالي
ورجاه أن يصدر أمره بعدم التعرض للكلاب . فأجاب الوالي هذه الرغبة ،
ودما الناس للزيني بركات ، وسكن الاضطراب الذي حدث بسبب
هذا الموضوع .

* * *

وعلى الرغم من أن مصر كانت ولاية عثمانية فإنها حافظت إلى حد كبير

على مكاتها بين العالم الإسلامي . فكانت كعنة طلاب العلم ، إليها يفدون من مختلف البقاع الإسلامية حيث يجدون في الأزهر أروقة خاصة ، لكل طائفة رواق له أوقاف ، فيسكنون ويأكلون ويدرسون ، ثم يعودون إلى بلادهم بعد أن ينالوا نصيبا من الثقافة . وسرى ذلك مفصلا واضحا عند الكلام على الحالة العسكرية .

وكان المحمل يخرج من مصر إلى الحجاز ، كما أن مصر كانت ترسل إلى الحجاز مقادير كبيرة من الحبوب ، ومبالغ من المال لتوزع على الفقراء وأبناء السبيل .

وكانت العلاقات التجارية والثقافية وثيقة بين مصر وشمال أفريقية . وقوافل الحجاج والتجار تمر بمصر في طريقها إلى الحجاز . كما أن العلاقات كانت وثيقة جدا بين مصر والشام ، وبينها وبين جزيرة العرب .

وهناك علاقات تجارية بين مصر وجنوب أوروبا . فالسفن تصل إلى مصر محملة بالبضائع الأوربية حيث يتم استبدالها بالمحاصيل المصرية . وكانت تقيم بالقاهرة والإسكندرية بعض الجاليات الأوربية ، من أفرادها من يعمل في الصناعة وبخاصة مايتعلق بشئون المبانى وإصلاح الساعات ، ومنهم من يشتغل بالتجارة ، ولهم أحياء خاصة بهم . وكان لبعض الدول قناصل في القاهرة والإسكندرية .

* * *

وقد وقف الشعب المصرى من العثمانيين فى بدء الاحتلال بموقف السخط والتبرم ، وذلك لما أحدثوا من أنظمة جديدة فى القضاء وفيما يتعلق بالزواج والطلاق . ولكن حدة هذا السخط أخذت تخف بالتدريج ، واستطاع الولاة الذين عرفوا بالعدل والاستقامة أن يقضوا على سخط المصريين وكراهيتهم للحكم العثمانى .

وكذلك كان مسلك الجنود العثمانيين فى بدء الاحتلال من أكبر دواعى نفور (م ٢ الأدب المصرى)

للمصريين من الحكم الجديد . فكانوا يقطعون الطريق في البر والبحر وينهبون كل ما وجدوا من البضائع . وظلت حوادث اعتداء الجنود على الناس تقل وتكثر تبعا للظروف ، ولكنها لم تنقطع طوال العصر العثماني . ويبدو أن المصريين نظروا إليها على أنها حوادث فردية لا علاقة للدولة بها .

وقد كان اشتباك الدولة العثمانية في جروب دائمة مع المسيحيين من العوامل الرئيسية التي أكسبتها قلوب المسلمين في مصر وفي غيرها من الأقطار الإسلامية، إذ اعتبرت حامية الإسلام ، والدائنة عن المسلمين . وقد كسب السلطان العثماني منزلة مقدسة لا في قلوب المصريين فقط، بل في قلوب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها . فكانوا يرفعون أصواتهم مؤمنين على دعاء الخطباء يوم الجمعة حينما يدعون بالنصر لسلطان المسلمين ولوزرائه وقواده وعساكره في البر والبحر إلى يوم الدين . فقد كان السلطان هو المجاهد والغازي في سبيل الله ، وحامي حامي الحرمين الشريفين .

وقد أدرك بونابرت هذه الحقائق حينما جاء لغزو مصر فنوه في منشوراته بصداقة فرنسا للسلطان ، وذكر أنه حضر إلى مصر للقضاء على طائفة المماليك وإرجاع مصر إلى حكم السلطان . وما فعل ذلك إلا لعله بالمكانة المقدسة التي يحتلها السلطان في قلوب المصريين .

ولما اختفى نفوذ العثمانيين وحل محله نفوذ المماليك الذين كانوا في نزاع دائم حول خيرات البلاد ، كان من الطبيعي أن يقف المصريون من هذا النزاع موقف المتفرج . وقد وجدنا قلة من هؤلاء المماليك فتحت قصورها أمام الشعراء والأدباء فنظموا في مدحهم القصائد والموشحات والأزجال، ودبجوا المقامات : هذا موجز عن الحالة السياسية في مصر خلال ذلك العصر .

الفصل الثاني

الحالة الاجتماعية

ظهر في هذا العصر شراب القهوة^(١) . وقد قيل إن أول من اهتدى إليه هو أبو بكر بن عبد الله المعروف^(٢) بالعيدروس . وكان أصل اتخاذه له أنه عن في سياحته بشجر البن فاقتات من ثمره حين رآه متروكا مع كثرته . فوجد فيه تجفيفاً للدماغ ، واجتلاباً للسهر ، وتنشيطاً للعبادة . فاتخذة قوتا وطعاما وشرابا . وأرشد أتباعه إليه . ثم نشر ذلك في اليمن والحجاز ومصر . وقد جاء أبو بكر إلى مصر سنة ٩٠٥ هـ ، فكما أن الصوفية هم الذين أدخلوا مادة الحشيش المخدرة إلى مصر في أوائل القرن السابع للهجرة ، وأشاعوا استعمالها بين المصريين ، كذلك أدخلوا شراب قهوة البن إلى مصر في أوائل القرن العاشر .

وكما اختلف المصريون في الحشيش ، وهل هو حلال أم حرام ؛ اختلفوا كذلك في أمر القهوة . فذهب قوم إلى تحريمها^(٣) لما فيها من الضرر . وخالفهم آخرون ومنهم المتصوفة ، وقالوا بإباحتها لأنها ليست مسكرة ولا مغيبة . وإنما فيها تنشيط النفس لأشغالها وما يطلب منها ، وخصوصا في سهر العبادة أو قراءة القرآن ، أو دراسة علم ، أو تحصيل معاش . فإن قصد بها الإحانة على شيء من ذلك كانت قريبة عند الله تعالى .

أما الذين حرموها فقد استندوا إلى أنها تحاط عند شربها بطقوس

(١) لم يرد في الفاموس المحيط عن كلمة « البن » إلا هذه العبارة « البن ، بالضم ،

شيء يتخذ كالري »

(٢) الكواكب السائرة طبع بروت سنة ١٩٤٥ ١١٣/١

(٣) رسالة عن القهوة ، تأليف محمد الدنوسرى المصرى المتوفى سنة ١٠٢٥ هـ مخطوط

رقم ١٥١ مجاميع - دار الكتب

كأنتى تحاط بها الخمر كتصفيق شاربها ، وإنشاد أشعار الغزل والحب ، ووصف الخمر ، إذ أن ذلك يفسد النفوس وبخاصة إذا صحبها مخدر مثل الحشيش ، وخبز الغراب ، والأفيون . ولأن المقاهى تجمع الصغار والكبار ، والأراذل الذين يروجون الأكاذيب ويغتابون الناس ، ويلعبون الشطرنج وألعاب الميسر . وأنكروا على رجال الدين ذهابهم إلى المقاهى ورأوا أن ذلك يخل بالمروءة ، ويسقط الشهادة ويدنس العرض .

وقد ألف المتعصبون لها الرسائل فى بيان فضائلها ومنافعها . وذكروا أن شجرة البن فى الجنة غرسها سبعون ألف ملك ، وتسمى شجرة السلوان ، لأنها خرجت مع آدم ليتسلى بها عما فاته من النعيم المقيم . وقالوا إن مداومة أكل البن يقوى النظر والفهم ، ويصفى الذهن ، ويشرح الصدر ، ويزيل الهم ، ويطيب النكهة ، ويقطع البلغم ، ويدفع الجدرى والحصباء ، والسحر . وفى أكل سبع حبات منه دعوة مستجابة ، لأن فيها .
« بسم الله الرحمن الرحيم »

وقد زار الرحالة المغربى أبو بكر العياشى مدينة القاهرة ١٠٣٧ هـ فقال (١)
« ٠٠٠ ثم دخلنا لزيارة الشيخ إبراهيم الميمونى - رضى الله عنه - ومنزله قرب الجامع - يعنى الجامع الأزهر - وقدم لنا طعاما حسنا وكنا جماعة . وهذا خلاف المعتاد من أهل مصر ، وإنما يتكلمون بينهم بشارب البن الذى يسمونه القهوة . ونحن لانعرفها وليست عندنا بطعام ولا دواء ولا شهوة . والكلام فيها من حيث الحكم بالإباحة وعدمها طويل عريض ، معلوم شهير نظما ونثرا »
« وأكثر العلماء مائلون فيها إلى الإباحة . وترشح قولهم بفعل أكثر الصوفية مع تورعهم فى المطاعم والمشارب ، زاعمين أنها تعين على السهر فى العبادة ، ويستعين بها الطلبة كثيرا فى المطالعة الليلية . ولا شك أنها تزيد

ما يحصل في الرأس من تدويخ بسبب السهر ، أو خلو المعدة صباحا . فإذا شربها الإنسان وجد في أعضائه نشاطا ، وأحس بخفة في رأسه ، وهذا في الغالب لمن اعتادها . وهي بخفة اتفاقا وهاضمة . وصحيح بعض العلماء أنها تحرم على من طبعه السوداء ، وتسكره لمن طبعه الصفراء . وهي نافعة لصاحب البلغم . وغيرها من أنواع المطعومات كذلك يحرم تناول ما يضر منها على من علم أنه يضره . ولا يكون ذلك موجبا للحكم بتحريمها .

« والحاصل أن الشاربين لها فريقان : فريق يشربونها في أماكن معدة لذلك مزخرفة ، قلما تخلو من هُو وحضور من لا يحل حضوره من الجوارى والمرد . فهؤلاء الحامل لهم على شربها اتباع الأهواء والتلذذ بما قارفها من الأمور المذمومة . فلا يبعد أن يقال إنها في حق هؤلاء محرمة ، لا لذاتها بل لما قارفها »

« وفريق يشربونها في سكنهم أو حوانيتهم ، أو يشربونها في السوق . ويشربونها من غير جلوس مع الفريق الأول . فهؤلاء الحامل لهم عليها إلفهم لها حتى إنهم ربما يتضررون ضرراً خفيفاً بتركها كما يتضررون ألف الحجابة بتركها . ومن ألف شرب العسل المسهل بتركه وغير ذلك من الأمور التي يعتادها الناس . ويحملهم عليها أيضاً تحصيل المنافع المتقدمة من الاستعانة على السهر ومن إزالة التدويخ صباحا . »

« وغالب ما يستعملونها مع طعام خفيف من كعك أو كسر خبز ، فيكفيهم ذلك إلى وقت الغداء . هذا كله مع خفة المثونة ، إذ مجلس واحد يشرب من ذلك ما يكفيهم مع تيسرها في أي وقت أرادها . ولا يحتاج فيها إلى أكبر مثونة ، ولا مقارفة إدام أو ملح أو أزار أو خضر أو غير ذلك مما يحتاج إليه غالب الأطعمة . »

« ويزاد على ذلك وهو أكبر منافعها عندهم أنها تقوم مقام الغذاء للضيف بحيث لا يستحي أحد في تقديمها للباشا فن دونه . ويقوم ذلك عندهم مقام ما يتكلفه المرء عندنا من أطعمة كثيرة تبلغ قيمتها في بعض الأحيان ديناراً

فأكثر . ودرهم واحد يقوم مقام دينار لا يكرهه أحد . بل لو قدم أي طعام لم تكن معه فكأنه لم يقدم شيئاً ، وإن قدمت هي كفت ، .

* * *

وقد ساهم الشعراء في هذه المعركة بنصيب ، فنظموا القصائد والمقطوعات في مدح القهوة والإشادة بمزاياها . ومن ^(١) هؤلاء إبراهيم بن المبلط . وكان موجوداً سنة ٩٩١ هـ قال :

يا عائباً لشراب قهوتنا التي تشفى شفاء النفس من أمراضها
أوما تراها وهي في فنجانها تحكي سواد العين وسط بياضها ؟
وقال آخر :

للبن سر قد حكته شيوخنا يانعم منه كلهم أقطاب
فيهم نقول وقد تكامل وصفه في أكله نفع وفيه ثواب
وقال عبد البكري المتوفى سنة ٩٩٤ هـ

وقهوة بن تورث اللب قوة ومن عجب والقشر أصل وعنبر
ومهما أرادت عصابة منع شربها ترى أمرها يعلو ويقوى ويظهر
وأعجب منها قول من ضل رأيه بل عرف الحق الصراح وينكر
يكابر فيها الحق والله شاهد فيزعم فيها أنها الحس السكر
تحقق فيها النفع لاسيما لمن عن الجدد في فعل العبادة يفتسر

وبقيت مشكلة تحريم القهوة وتحليلها بين علماء مصر مدة من الزمن . ولكن لم ينته القرن العاشر حتى انعقد الإجماع على تحليلها . وفتحت المقاهي في أحياء القاهرة ، وأخذ أصحابها يتنافسون في اجتذاب الناس . فكان منهم من يستأجر القصاص ليقصوا الحكايات المشوقة ، والقصص المعجبة وبخاصة سير الأبطال والمغامرين . فظهرت في ذلك الوقت سيرة الظاهر بيبرس وهي .

(١) الكواكب السائرة ١/١٢

قصة طويلة امتازت بخيال خصب ووقائع طريفة ، فضلا عن أنها تصور حياة المجتمع المصرى أحسن تصوير ، وتسجل كثيرا من عاداته وأخلاقه .

وظهرت قصة أخرى هى سيرة الأميرة ذات الهمة . وبعض قصص صغيرة مثل « الدرة المسكلة فى فتح مكة المبجلة » و « غزوة الإمام على مع اللعين الهضام بن الحجاج » و « فتوح اليمين المعروفة برأس الغول » وغير ذلك مما عسى أن يكون قد ضاع .

وتضخمت قصص كانت معروفة من قبل مثل سيرة أبى زيد الهلالي ، وسيرة عنتر العبسى ، وسيرة سيف بن ذى يزن ، وقصة ألف ليلة وليلة . ويتخلل هذه القصص شعر تقرب لغته من اللغة العامية ينشده القاص مع أعوانه تنشيطاً للسامعين ، ولكل قصة كبيرة طائفة من الناس اختصوا بسردها على الجماهير . فكانت هناك طائفة الظاهرية ، والعنترية ، والهلالية ، واليزنية ، وهكذا .

وإلى جانب القصص كانت هناك طوائف المنشدين الذين ينشدون الأشعار والأزجال والموشحات متخذين آلات الطرب كالربابة والعود . فراجت سوق الأدب الشعبى رواجاً عظيماً .

وقد كثر فى هذا العصر انتشار المواد المخدرة وبخاصة الحشيش وأنواع السطل ، وانتشرت قصص الحشاشين ونوادهم وفكاهاتهم . وألف بعضهم فى ذلك رسائل وفصولاً فيها ما يدل على قوة الخيال وخفة الروح التى اشتهر بها المصريون حتى فى عبور المحن والشدائد .

* * *

وفى هذا العصر انتشر الدخان الذى ظهر فى مصر لأول مرة^(١) سنة ١٠١٢ هـ كما ذكر الإسحق فى تاريخه . وهو مؤرخ معاصر لاشك فى صدقه .

(١) لطائف أخبار الدول ص ١٢٥

وقد ذكر لنا رأيهِ في الدخان فقال : « إن الدخان مضر بالأبدان ، وهو
يأبِس الطباع ، لاشئ فيه من الانتفاع ، مبطل لحركة الجماع ، مسود للأَسنان ،
مِهْرَبٌ لِلْمَلَأَكَةِ الرَّحْمَنِ . وعاقبته وخيمته ، ومداومة شربه ذميمة ، يورث
النَّعْنَعُ في الفم والمعدة ، ويظلم البصر ، ويطلع بخاره على الأفئدة . ومن زعم
أن شربه محرق للبلغم فقد أخطأ فيما زعم ، وقوله في ذلك غير صحيح . ولو لم
يكن من دوائه إلا ولوع السودان به والأجلاف لسكان في ذلك ما يكف
عنه الأشراف » .

ولم يكن شأن الدخان كشأن القهوة ، فقد تمسك كثير من فقهاء المسامين
بتحريمه . وما زال المسلمون في اختلاف من أمره ، فالوهايون مثلاً يحرّمونه .
وكانت تصدر أحياناً أوامر بمنع تعاطيه جهاراً . فقد ذكر الجبرتي في
حوادث سنة (١) ١١٥٦ هـ أن الوالي العثماني أصدر أوامر بمنع شرب الدخان في
الشوارع وعلى الدكاكين وأبواب البيوت ، ونزل ومعه الأغا ونادى بذلك
وشدد في الإنكار والنكال بمن يفعل ذلك ، وأخذ الأغا يمر ثلاث مرات في
اليوم ، وكل من رأى في يده آلة الدخان فاقبه ، وربما أطعمه الحجر الذي
يوضع فيه الدخان بما فيه من النار .

وقد تعصب المتصوفة للدخان كما تعصبوا للقهوة والحشيش من قبل .
ونظم بعض الشعراء شعراً في ذلك ، نذكر منه قول أبي المواهب البكري
المتوفى سنة ١٠٣٧ هـ

هات استقنى التبغ إن تبغ الصفا سحراً	حتى أخذت منه وهو إغشاء
واستجّل أنوار شمع من يدي رشاً	قد زانه قامة بالحسن هيفاء
لعل نار أسي بالبعد قد وقدت	يوماً يكون لها بالقرب إطفاء
فاملاً كتموس رحيق كالخريق فقد	أغنتك إذ وصفت بالالطف صهباء
ودع ملام طبيب عابها سفها	وداوني بالتي كانت هي الداء

ولم تسكن لفائف التبغ قد عرفت في ذلك الوقت ، وإنما كان يوضع الدخان في الأحجار التي مازالت تتخذ في النارجيلة . ولذلك ذكر الشاعر النار والكئوس ويعنى بها الأحجار ، كما ذكر الساقى الذى ناوله هذه النارجيلة وتغزل فيه على عادة شعراء الحمر .

* * *

وانتشر مدعو الولاية في كل مكان يمتالون على أكل أموال الناس بالباطل . فروي الجبرتي في حوادث^(١) سنة ١١٠٧ هـ أن رجلا اسمه العليمي حضر من القيوم وأقام بالقاهرة مدعيا الولاية . فاجتمع عليه كثير من العوام ، واختلط الرجال بالنساء ، وحدث بسبب ذلك فساد عظيم . وأغضب هذا بعض العساكر فقتلوه ، وفي ذلك يقول حسن البدرى الحجازى :

جاء دجال بمصر وادعى ما يدعيه
كهرع الناس إليه من وضيع وسفيه
وعاينه قد أكبوا يرتجون الخير فيه
وله يدلى صريع ليرى ما يعتريه
فيرى فيه انعكاسا خاب من يسعى إليه
ونساء مع رجال جالسات بالبديه
طول ليل مع نهار أجل فسق تبغيه

وحدث في سنة ١١٧٣ هـ أن بعض خدام المشهد النفيسى أظهر عنزا صغيرة وزعم لها كثيرا من الخوارق والكرامات ، وأنها تسكلم السيدة نفيسة ، وادعى أنه يسمع كلامها . وخدع بذلك العامة من الرجال والنساء ، فحملوا إليها الهدايا الثمينة كأطواق الذهب والفضة ، والمأكولات الشهية كالجوز والفستق وماء الورد . فأرسل الأمير عبد الرحمن كتبخدا إلى صاحب العنز يدعو لزيارته مع العنز ليتبرك بها . فلما ذهب أدخلت العنز إلى المطبخ وذبحت دون أن يشعر صاحبها ولا يعلم ماجرى على عنزه . وبعد الأكل أراد أن ينصرف فسأل عنها فقليل له إنها كانت على المائدة . ثم وبخه الأمير وعنفه

وأمر أن يوضع جلدها على رأسه ويذهب في موكبه الذي جاء به . وفي ذلك يقول عبد الله الإدكاوي .

بنت رسول الله طيبة الثنا نفيسة لذتظفر بما شئت من عز
ورم من جدها كل خير فإنها لطلابها ياصاح أنفع من كنز
ومن أعجب الأشياء تيسر أراد أن يضل الوري في حبها منه بالعز
فماجلها من نور الله قلبه بذبح ، والتيس من اجلها مخزي
وكان بعض مدعى الولاية يسرون في الشوارع حفاة عراة ، ولا يصلون
ولا يصومون . وقد ^(١) سأل عبد الله جاك مينوقائد الحملة الفرنسية في مصر
شيوخ الأزهر عن الذين يسرون في الأسواق ويكشفون عوراتهم ويصيحون
ويصرخون ويدعون الولاية وتعتقدم العامة ، ولا يصلون صلاة المسلمين
ولا يصومون ، وهل هذا جائز في الدين الإسلامي أم محرم ؟ فأجابوه بأنه
حرام ومخالف للدين والشرع والسنة . فأمر جاك مينو بمنع هؤلاء الناس من
السير على ما اعتادوا ، وإلقاء القبض على كل من يخالف ووضعه في المارستان
إن كان مجنونا ، أو إخراجه من القاهرة إن كان عاقلا .

وكثر ظهور أرباب الطرق الذين اتخذوا التصوف والدروشة وسيلة
للكسب الحرام . فكانوا ينتقلون من مدينة إلى أخرى ، ومن قرية إلى
قرية . يقيمون الحضرات ، ويعطون العهود والمواثيق للناس . فيضطر هؤلاء
إلى إقامة الولائم للمشايخ ، وتقديم الهدايا لهم من سمن وزبد وجبن وحبوب
وأغنام وفواكه . فيجمع المشايخ مقادير كبيرة من هذه الأشياء ، وبذلك
يعيشون عالة على المجتمع ، ويستحلون أموال الفلاح الفقير المسكين . وقد
عرض الشعرائي بهؤلاء المحتالين تعريضا شديدا في كثير من كتبه . مثال
ذلك ما جاء في « رسالة في التصوف » له حيث يقول : « . فقد دعاني داعي
الشفقة على طائفة من الفقراء في هذا الزمان ، سموا أنفسهم بالصوفية ، وادعوا

الولاية الكبرى وهم أضل من الأنعام. فصار كل من أذن له شيخه بأن يستفتح الذكر بجماعة ، وأذن له بأن يلقي الناس أو لم يأذن له ، وسمع في خلوته هاتفا من جنى أو شيطان ؛ يظن أنه ولي الله عز وجل . فيجمع له جماعة من العوام من أهل الصنائع وغيرهم . فتارة يجلس في بلده ، وتارة يطوف البلاد ويكلف العباد في هذه الأيام الكدرة النكدية على الخالص والعام . وهو مع هذا يدعى أنه قائم في الخلق مقام نبيهم صلى الله عليه وسلم . وكفى بذلك كفرا وجهلا وسوء أدب . »

ومن هنا نرى أن أحوال تلك الطائفة كانت موضوعا للكتاب والشعراء . وبخاصة في أوائل العصر العثماني . وهذا من الأدب الاجتماعي الذي يتناول دراسة المجتمع ، وإظهار مافيه من عيوب ، والإرشاد إلى العلاج .

* * *

وقد أخذت الأضرحة التي وجدت في مصر منذ القرن الثالث الهجري تزداد يوما بعد يوم حتى صار لكل قرية ضريحها . وظل الناس كما كانوا من قبل عاكفين على إقامة الموالد لأصحاب هذه الأضرحة ، مدفوعين إلى ذلك بعوامل مختلفة . فقد كانت هذه الموالد أسواقا تجارية ومعرضا للسحرة والمشعوذين ، يعرضون فيها ألعابهم على الناس . وأمكنة يجتمع فيها الخواة وأصحاب الألعاب البهلوانية وتقام فيها المطاعم والملاهي والمراقص والمغاني . ومضمارا يتبارى فيه ركاب الخيل . وكان الأدباء والشعراء يجتمعون ببعض هذه الموالد وبخاصة مولد الحسين وأحمد البدوي ، والسيدة زينب والسيدة نفيسة ، وينشدون ما نظموا من قصائد في مدح أصحاب هذه الأضرحة والتوسل بهم . وما نظموه في أغراض أخرى كالأنغاز والتصوف والدعابات والفكاهات وغير ذلك . وقد كثرت القصائد التي نظمت في مدح أحمد البدوي ، والحسين ، والسيدة زينب . والإمام الشافعي .

* * *

وفي هذا العصر استمر الجدل بين الفقهاء والمتصوفة حول الرقص والغناء والضرب على الآلات الموسيقية في حلقات الذكر . فكان الفقهاء ينكرون هذا ويرونه من المحرمات التي يجب منعها ، وقد ألف ابن حجر الهيتمي المتوفى سنة ٩٧٤ هـ كتاب « كف »^(١) الرعاع عن محرمات اللهو والسماع ، وهو رد على كتاب لأحد المتصوفة سماه « فرح الأسماع برخص السماع » ويقول ابن حجر إن الزعم بأن الغناء يرقق القلب زعم باطل ، والحق إنه يحرك الشهوات ، وهو شعار الفسقة . والرقص إذا حدث عن تواجد فلا حرمه فيه . على أن التواجد غير مسلم به لصاحبه لما يتضمنه من التكلف والتصنع والرياء .

ولعبد الرحمن به مصطفى العيدروس المتوفى بالقاهرة سنة ١١٩٢ هـ رسالة سماها « تشنيف الآسماع ببعض أسرار السماع » أيد فيها وجهة نظر المتصوفة .

وقام بالجامع الأزهر^(٢) سنة ١١٤٧ هـ رجل تسكروى ادعى النبوة ، وزعم أن جبريل نزل عليه وعرج به إلى السماء ليلة سبع وعشرين من رجب ، وأنه صلى بالملأى سكة ركعتين وأذن له جبريل . ولما فرغ من الصلاة أعطاه جبريل ورقة وقال له « أنت نبي مرسل ، فأزل وبلغ الرسالة ، وأظهر المعجزات » فرماه العلماء بالجنون فرد عليهم قائلاً إنه ليس بمجنون ، وإنما هو نبي مرسل . فضربوه وأخرجوه من الجامع . ثم أرسل إلى المارستان ، فاجتمع عليه الناس رجالاً ونساء فأمر الوالى بوضعه في السجن ، وطلب من العلماء أن يعرضوا على هذا الرجل التوبة ، فامتنع وأصر على رأيه . فأمر الوالى بقتله ، فقتلوه وهو يقول « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » ونظم الشعراء في ذلك شعراً ومواليا فمن المواليا قول أحدهم :

واحد ظهر وادعى أنو نبي من حق وأنو عرج لاسما واجتمع بالحق
وإبليس ضلوا وصدوعن طريق الحق قم ياوزير البلد واحكم على قتله
أهل العلوم أرخوا هذا كافر بالحق

(١) مطبوع بهامش « الروايع عن اقتراف الكبائر »

(٢) الجبرقي ١ / ١٤٧

وقد انتشرت الآراء الإلحادية بين عدد قليل جدا من المصريين في أوائل هذا العصر . وربما كان الذي نشرها هو داود الأنطاكي فإننا نجد الشهاب الخفاجي الذي درس الطب على داود^(١) يقول في ترجمته له « إنه على مذهب الحكماء ومشرب الندماء . ولذا كثر كلام الناس في اعتقاده ، ونقل عنه شرح قطر من خفي إلحاده . ثم لما كثر اللغط فيه ارتحل للبيت العتيق فطافت به المنية من كل فج عميق »

وذكر صاحب خلاصة الأثر^(٢) في ترجمة يحيى بن عيسى الكركي الملحد الزنديق ، كما وصفه ، أنه سافر إلى مصر في طلب العلم « وكأنه عاشر بعض الملاحدة فغلبت عليه اعتقادات فاسدة ، وبث فيها شيئا من اعتقاداته » والكركي هذا قتل سنة ١٠١٨ هـ وداود الأنطاكي كان بالقاهرة إلى سنة ١٠٠٧ هـ وعلى هذا ربما يكون الكركي قد اتصل وهو بالقاهرة بـداود وتلاميذه ، وأخذ عنهم الآراء الإلحادية . ولكن ليس في كتب داود التي وصلت إلينا ما يدل على إلحاده ، بل على العكس فيها ما يدل على أنه كان عميق الإيمان . فلعله كان يتحدث بأحاديث فلسفية رأى الناس فيها إلحادا . وربما شعر بأنهم أرادوا به سوءا فرحل إلى الحجاز لأداء فريضة الحج قطعاً للألسنة . أما الكركي فإنه تهوّر وصرح بالكفر فلذلك كان نصيبه أن ضرب في القاهرة ، وقتل حين رجع إلى بلده .

وقال صاحب « هز القحوف »^(٣) ما نصه : « ... وسمعت بعض الملحد من الدراويش الملحقين لحاهم يقول كلاما يخالف الكتاب والسنة ، وهو أن البعث والنشور ، والجنة والنار لا حقيقة لها . وأن الشخص جنته وناره وحسابه في نفسه . وأن الدنيا لا تقنى ولا تزول . وإن الشخص إذا خرجت روحه ومات دخلت في جسد من الأجساد ، في آدمى أو حيوان ، حتى يدور عليها الدور فترجع إلى صاحبها الأول فيظهر بصورته التي كان عليها أولا . وهكذا سائر العوالم »

(١) ربحانة إلبا ص ٢٧١ طبع بولاق سنة ١٢٨٤ هـ (٢) ٤ / ٤٧٨

(٣) ص ٧٦ طبع بولاق سنة ١٣٠٨ هـ

ورأينا أحكام هذا العصر يخشون بأس الأزهريين ولا يستطيعون لهم دفعاً -
ويحاولون أن يسترضوهم ولا يؤخرون لهم طلباً . وقد حدث أن ورد مرسوم
سلطاني إلى الوالي ينص على إلغاء ما يضترف من الأوقاف الخيرية في جهات
البر . وأن ترسل أموال هذه الأوقاف إلى السلطان . وعقد مجلس حضره
الوالي والقاضي العثماني والشيخ سليمان المنصوري من علماء الأزهر . فقال
القاضي : أمر السلطان لا يخالف وتجب طاعته . فاعترض الشيخ سليمان قائلاً :
إن أموال هذه الأوقاف تنفق في وجوه البر ، ولا يجوز لأحد يؤمن بالله
ورسوله أن يبطل ذلك ، وإن أمر ولي الأمر بإبطاله لا يسلم له ، لأنه يخالف
للشرع ، ولا يسلم للإمام في فعل يخالف الشرع ولا لنائبه . فسكت القاضي
وانتهى الأمر بإهمال مرسوم السلطان . والأمثلة على ذلك كثيرة نذكر منها
ما حدث^(١) سنة ١١٩١ هـ حين اختلف الأزهريون مع بعض الأمراء -
فاجتمعوا بالجامع الأزهر وأقفوا أبوابه وأبطلوا الدروس والأذان
والصلوات . وطلع بعض شبابهم على المآذن وأكثروا من الصياح والدعاء
على الأمراء . فلم يسمع هؤلاء إلا أن أقبلوا مسرعين وأجابوا الأزهريين
إلى مطالبهم .

وكانوا يشتمون الأمراء ويعنفونهم . وقد^(٢) حدث أن يوسف بك ؛
وكان يحكم البلاد نيابة عن محمد بك أبي الذهب ؛ نقم على أحد القضاة فأمر
بحبسه . فلما سمع علماء الأزهر بذلك توجهوا إلى منزل يوسف بك وناقشوه
في موضع حبس القاضي . وسبه الشيخ على الصعيدي وقال له « لعنك الله ،
ولعن اليسرجي الذي جاء بك ، ومن باعك ومن اشتراك ، ومن جعلك أميراً »
وأخذوا القاضي المحبوس وخرجوا وهم يسبونوه وهو يسمعهم . ولم يفقد
الأزهريون تلك المنزلة إلا منذ قيام حكم محمد علي .

* * *

وقد اهتم الأمراء والأعيان والحكام بإقامة القصور الفخمة ، وبناء المساجد والمدارس والأسبلة . فكان للبكرين قصور كثيرة حول بركة الأزبكية وبركة الرطلى . وللسادات قصورهم كذلك . وتنافس الأمراء فى تشييد الدور الواسعة وأنفقوا عليها أموالا طائلة . ومن أشهر الولاة الذين اهتموا بحركة التعمير سنان باشا . ومن الأمراء رضوان كتنخدا الجلبى^(١) المتوفى سنة ١١٦٨ هـ فقد أنشأ عدة قصور بالغ فى زخرفتها وتأنيقها . وعبد^(٢) الرحمن كتنخدا المتوفى سنة ١١٩٠ هـ وكان مغرمًا بإقامة المساجد والكتاتيب والأسبلة والأضرحة . فأنشأ بين القصرين سبيلا يعلوه كتاب . وقد لفت هذا البناء الأنظار بما تجلّى فيه من دقة الصنعة وجمال الفن . وبني جامع المغاربة وسبيلا وكتابًا بالقرب منه . وشيد تجاه باب الفتوح مسجداً بمنارة وصهريجاً وكتاباً . وبالقرب من الأزبكية سقاية وحوضاً لسقى الدواب وكتاباً . وأنشأ مثل هذا فى أماكن أخرى . ومن أهم أعماله الإنشائية الزيادة التى أدخلها على الجامع الأزهر ، التى رفع سقفها على خمسين حاموداً من الرخام ، مع مثلها من البوائك المقوصرة المتسعة المبنية من الحجر المنحوت . وبني فوقها مكتباً فخماً لتحفيظ القرآن ، وأنشأ به سبيلا . وشيد بالأزهر رواقاً لأهل الصعيد الذين يطلبون العلم ، وجعل به مرافق ومنافع ومطبخاً ومخادع وخزائن للكتب . وأقام للأزهر منارتين . وجدد رواق المسكين والتكرورين . وأعاد بناء المدرسة الطبرسية التى بالقرب من المشهد الحسينى ، وجدد مسجداً بجوار ضريح الإمام الشافعى . وجدد المسجد النفيسى والجامع الملحق به . وبني جامعاً عند باب البرقية وحوضاً وسقاية ومكتباً ، وعين به بعض المدرسين . وبني مسجداً ومكتباً بالقرب من كوم الشيخ سلامة بالأزبكية . وأدخل إصلاحات كثيرة على ضريح شيخ الإسلام زكريا الأنصارى . وجدد بناء مشهد السيدة سكيئة ، والسيدة عائشة ، والسيدة فاطمة ، والسيدة رقية ،

وأبى السعود الجارحى . وبنى جامعاً ورباطاً بحارة عابدين . وأعاد بناء المدرسة السيوفية والمارستان المنصورى . وخص عن أوقافه واستخرجها ممن وضعوا أيديهم عليها . وشيد بالقاهرة عدة قناطر على الخليج وأقام عمائر كثيرة وقناطر فى بعض جهات القطر المصرى وفى الحجاز . وبنى لنفسه قصرين عظيمين أحدهما بمجة بولاق ، والآخر بعابدين . وكان قصره بعابدين فى منتهى الفخامة والروعة ، ملبطاً بالرخام والقيشاني ، ومنقوشاً بالذهب واللازورد والأصباغ البديعة الألوان ، وغرس به حديقة غناء ، وأنشأ فيها فسقية ذات أعمدة من الرخام وقهد كان عالماً بهندسة البناء ، مهتماً بالإتفاق على الفقراء وبخاصة العميان ، ولذلك مدحه الشعراء . فمن ذلك قصيدة طويلة نظمها أحدهم نوه فيها بما شيده هذا الأمير من المباني ، اسمها « مشاريع^(١) خيرات حسان فى مدح الأمير كتبخدا عبد الرحمن » .

ونجد الرحالة الإنجليزى إدوارد لين الذى زار مصر سنة ١٨٢٥ يقول . واصفاً حركة العمران^(٢) : « أما الفن الذى برع فيه المصريون فهو فن العمارة . وتشاهد فى العاصمة وما يحيط بها أروع آيات الفن المعماري العربى . وليست المساجد وغيرها من المنشآت العامة هى وحدها التى تتميز بالروعة والجمال ، بل إن البيوت التى يملكها الأفراد تثير فىنا هى الأخرى الإعجاب ، وخاصة البناء الداخلى منها ، والنقوش التى تزينها » .

* * *

ولم يعرف المصريون الأوروبيين حق المعرفة إلا منذ قدوم الحملة الفرنسية . أما قبل ذلك فإن الجاليات الأوربية التى كانت تنزل بالقاهرة والإسكندرية كانت تعيش فى أحياء خاصة ، وتنزى بالزى الشرقى وتتكلم اللغة العربية حتى كان من الصعب التمييز بين الأوربى والتركى . ولم يعرف المصريون شيئاً عن

(١) منها نسخة خطية بدار الكتب تحت رقم ١٦٦٤ - أدب فى ٣٠ ورقة .

(٢) انجليزى فى مصر ترجمة فاطمة محجوب . طبع دارالتحري بالقاهرة سنة ١٩٥٧ ص ٩٧ .

أوروبا الحديثة وما أحرزته من ضروب التقدم والرقى . وحتى بعد قدوم الحملة ظلت معلومات المصريين عن الفرنسيين مشوهة تدعو إلى الضحك . انظر مثلاً إلى ما يقوله الشيخ عبد الله الشرفاوى عنهم : « . . . وحقيقة^(١) حال الفرنسيات الذين حضروا إلى مصر أنهم فرقة من الفلاسفة إباحية طبائعية يقال لهم نصارى قائلون بخلق الله ، يتبعون عيسى عليه السلام ظاهراً ، وينكرون البعث والدار الآخرة وبعثة الأنبياء والمرسلين . ويقولون إن الله واحد لكن بطريق التعليل . ويحكمون العقل ويجعلون منهم مدبرين يدبرون الأحكام ، يضعونها بعقولهم ويسمونهم شرائع . ويزعمون أن الرسل محمداً وعيسى وموسى كانوا جماعة عقلاء ، وأن الشرائع المنسوبة إليهم كناية عن قوانين وضعوها بعقولهم تناسب أهل زمانهم . ولذلك جعلوا في مصر وقراها الكبار دواوين يدبرون ما يناسب أهل البلاد بحسب عقولهم . وكان في ذلك رحمة بأهل مصر ، فإنهم جعلوا من جملة ديوانها جماعة من المشايخ وصاروا يراجعونهم في بعض أشياء لا تليق بالشرع »

وقد تعرضت البلاد لكثير من الأوبئة والطواعين والمجاعات التي كانت تفتك بالناس فتكاد زرعاً . وزاد الحالة سوءاً كثرة الفتن والمعارك التي كانت تدور رحاها بين بعض المماليك وبعضهم الآخر . قال الجبرتي^(٢) في حوادث سنة ١١٩٨ هـ ما ملخصه « وانقضت هذه السنة كالتى قبلها في الشدة والغلاء وقصور النيل والفتن المستمرة ، وتواتر المصادرات والمظالم من الأمراء وانتشار أتباعهم في النواحي لجباية الأموال من القرى والبلدان حتى أهلكوا الفلاحين . وترك كثير منهم الحقول وانتشروا في المدينة بنسائهم وأولادهم يصيحون من الجوع ، ويأكلون ما يتساقط في الطرقات من قشور البطيخ وغيره ، فلا يجد الثوب شيئاً يكتسه . واشتد بهم الحال حتى

(١) تحفة الناظرين ص ٢٤٥ ، مطبعة بولاق

(٢) ٨٣ / ٢

الميتات من الخيل والحمير والجمال . فإذا خرج حمار ميت تراحموا عليه وقطعوه وأخذوه . ومنهم من يأكله نيتاً من شدة الجوع . ومات كثير من الفقراء جوعاً . وازداد الغلاء وعز الدرهم والدينار من أيدي الناس . وقل التعامل إلا فيما يؤكل . وصار سمر الناس وحدثهم في المجالس ذكر المأكول والقمح والسمن ونحو ذلك لا غير . ومد الأمراء أيديهم إلى الموارث يغتصبونها بالرغم من وجود الورثة الشرعيين . وأصيب المجتمع بالتفكك والانحلال ، فقد فسدت النيات ، وتغيرت القلوب ، ونفرت الطبائع ، وكثر الحسد والحقد ، وعمت الوشاية والنميمة »

وكان هذا سبباً في إقبال الناس على التصوف والالتحاق بالتكايا أو المعاهد الدينية ليعيشوا من الأوقاف المرصودة على هذه الأماكن .

ولم يكن الريف المصرى يعانى مظالم المماليك فقط ، بل كان يعانى كذلك مظالم العربان الذين اعتادوا أن يشنوا الغارات على القرى والكفور ، وينهبوا المحصولات والمواشى والأغنام . فلا عجب أن انحط الريف المصرى إلى حد كبير ، وأصبح في حالة يرثى لها من الفاقة والإملاق وسوء الحال . وإنك لتجد في كتاب «هز القحوف في شرح قصيدة أبى شادوف» للشربيني صوراً كثيرة لما آل إليه الريف المصرى من البؤس والفقر .

هذا موجز عن الحالة الاجتماعية في مصر إبان العصر العثمانى .

الفصل الثالث

الرحلة الفكرية

ساد في هذا العصر مذهب أهل السنة ، وهو المذهب الذى عرفته مصر . منذ سقوط الدولة الفاطمية . وكانت آراء الأشعرى هى المعتمدة عند غالبية رجال الدين . والانحياز إلى آراء الأشعرى يقتضى مهاجمة المعتزلة الذين قل وجودهم في العالم الإسلامى إبان العصر الذى ندرسه ، ولكن كتبهم كانت معروفة . فأخذ أشاعرة تلك الأيام على طاعتهم مهمة الرد على ما جاء فى هذه الكتب . وأكثر ما ظهر هذا فى دراستهم لكتب التفسير وبخاصة الكشف الزمخشري . فكانوا يحملون عليه إذا تناول شيئاً يتعلق بالاعتزال . أما إذا تكلم فى النحو والبلاغة فهو عندهم الصادق المصدق ، والإمام المحقق . فهم يأخذون من القدماء ما وافق عقائدهم ويرفضون ما خالفها . ويمدحون كل من يعرض بالمعتزلة بحق وبغير حق . وإلى جانب تفسير الزمخشري فإنهم كانوا يدرسون تفسير البيضاوى والفيض الرازى ويقفون منهما الموقف المتقدم . وألفوا رسائل فى الإيمان ، وهل هو مخلوق أو غير مخلوق ؟ وهل يكون بمشيئة الله أم لا ؟ نذكر من هذا « رسالة فى الإيمان »^(١) وكونه مخلوقاً أو غير مخلوق « للشهاب الخفاجي » و « رسالة فى الإيمان »^(٢) ، وهل يكون بمشيئة الله أم لا ؟ له . و « رسالة الجواهر المضيئة فى تجويز إضافة الإيمان »^(٣) الجازم إلى المشيئة . لأبى الحسن البكرى المتوفى سنة ٩٥٢ هـ و « رسالة »^(٤) فى كلام الله ، وهل هو مخلوق أو غير مخلوق ؟ له . و « رسالة الدر النظيم فى تحقيق الكلام القديم » لأحمد الجوهري المتوفى سنة ١١٨٢ هـ ، و « رسالة فى تحقيق

(١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) مجاميع تيمور . مخطوط رقم ٣٣١ ، ٩٢

(٥) ١٩٣ مخطوط تيمور

الجزء^(١) الاختيارى » له ، و « رسالة الفطرة^(٢) السليمة في تحقيق دلالة القرآن على الصفة القديمة » له أيضا . وعلاوة على ذلك فإنهم كانوا يتناولون هذه الموضوعات في خلال شرحهم للقرآن وتفسيرهم للحديث ، وفي الحواشي والتعليقات التي وضعوها على بعض الكتب .

وقد جاء بهاء الدين العاملى إلى مصر سنة ٩٩٢ هـ وألف بها كتاب « الكشكول » وضمنه مطاعن كثيرة في آراء الأشعرية ، وانتصارا للمعتزلة الذين كان ينتمى إليهم .

وقد اتخذت الدولة العثمانية المذهب الحنفى مذهباً رسمياً لها . فألفت كتب كثيرة في مناقب أبى حنيفة النعمان ، مثل « عقود^(٣) الجمان في مناقب أبى حنيفة النعمان » تأليف محمد بن يوسف من فقهاء القرن العاشر . و « الخيرات^(٤) الحسان في مناقب أبى حنيفة النعمان » لابن حجر الهيتمى المتوفى سنة ٩٧٤ هـ ومع أنه شافعى المذهب إلا أنه سخر قلمه في خدمة سياسة الدولة العثمانية . و « أعلام^(٥) الأخيار من فقهاء مذهب النعمان المختار » تأليف محمود بن سليمان المتوفى سنة ٩٩٠ هـ و « السكيات^(٦) الشريفة في تنزيه أبى حنيفة من الترهات السخيفة » لمصطفى بن نوح المتوفى سنة ١٠٧٠ هـ و « عقود الجواهر المنيفة في أدلة مذهب أبى حنيفة » لمرتضى الزبيدى المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ إلى غير ذلك

وكان بعض أتباع المذاهب الأخرى يؤلفون كتباً في الطعن على أبى حنيفة . وقد أشار إلى ذلك محمد بن يوسف في مقدمة كتاب « عقود

(١) ٣٠ ، ١ مجاميع بيروت رقم ٢٥٩ ، ٩٢

(٣) مخطوط رقم ١٨٠ م ، ١٣ ش دار الكتب

(٤) مطبوع بالقاهرة سنة ١٣٠٤ هـ

(٥) مخطوط رقم ٨٤ تاريخ م

(٦) مجاميع رقم ٣٧٣ ، ٤٢٧

(٧) طبع بمصر سنة ١٢٩٤ هـ .

الجمان» كما أشار ابن حجر الهيثمي إلى الطاعنين على أبي حنيفة في كتابه «الخيرات الحسان»

وعلى كل حال فإن المصريين رفضوا أن يجتمعوا على المذهب الحنفي على الرغم من الدعاية التي روجها العثمانيون لهذا المذهب ، وعلى الرغم من إشارتهم الأحناف للوظائف القضائية . وتمسك قسم كبير من المصريين بمذهب الشافعي ، لأن صاحبه مدفون بالقاهرة ، وله ضريح كان الناس وماز الوائزورونه متبركين . وبقي مذهب مالك كما كان من قبل . وساعد على ذلك وفود المغاربة إلى القاهرة ، وهؤلاء معروفون بتمسكهم بالمذهب المالكي . أما الحنابلة فكانوا قلة . ومما هو جدير بالذكر أن المصريين منذ وجدت الدراسات الفقهية في مصر ، أظهروا ميلا شديدا إلى مذهب مالك . ولما جاء الشافعي إلى القاهرة انتشر مذهبه . أما مذهب أبي حنيفة فكان قليلا . ومذهب ابن حنبل كان نادرا .

وإن فكرة توحيد الأحكام فكرة سليمة جدا ، ولكن المجتمع المصري حرم من هذه الميزة . ولذلك كان الناس يعانون في عباداتهم ومعاملاتهم حيرة واضطرابا ، وبخاصة الطبقات الجاهلة . وقد صور لنا الشعرا في كتابه «كشف^(١) الغمة عن جميع الأمة» هذه الحيرة فقال «... وبعد ، فقد شكنا إلى مرار بلسان الحال وبلسان المقال جماعات من الفقراء المتعبدين وأهل الحرف النافعة من المؤمنين ما يجدونه في نفوسهم من كثرة الغم حين يسمعون العلماء يقرأون مذاهبهم وينصرون أقوالها دون مذاهب غيرهم . وقالوا لي : قد التبس علينا شرع ربنا الذي تعبدنا به ، وعسر علينا تمييزه ، وازدرانا لجهلنا غالب الدين لم تنقيد بمذهبهم . فإن توضأنا على مذهب قال لنا أهل المذهب الآخر : وضوءكم باطل وإن صلينا على مذهب قالوا : صلاتكم باطلة . وإن زكينا قالوا : زكاتكم باطلة . وإن صمنا قالوا صومكم باطل . وهكذا في سائر عبادتنا . وما نعرف الحق مع أيهم حتى تقتصر عليه . وقد أورد ذلك عندنا الحيرة والشك» واستطرد الشعرا في ذكر أنه ألف هذا السكتاب معتمدا

على كتب الحديث الموثوق بها . وأورد معظم أدلة المجتهدين معتقداً أنه بهذا الكتاب يستطيع أن يقضى على الحيرة والشك ، وأنه قادر على جمع المصريين على كتابه ، ولكن غرضه لم يتحقق .

ويقال إن السلطان سليمان القانوني فكر في وضع قانون لجميع المسلمين . ولكنه مات قبل أن ينفذ هذا المشروع .

* * *

وظهر في هذا العصر كثيرون من كبار الفقهاء الذين كسبوا شهرة واسعة في العالم الإسلامي ، وسعى إليهم طلاب العلم من الآفاق .

فمن فقهاء المذهب الحنفي: أحمد بن محمد الشوبري^(١) المتوفى سنة ١٠٦٦ هـ الذي لقب بأبي حنيفة الصغير ، وقد أخذ عنه جميع علماء الحنفية في ذلك الوقت من أهل مصر والشام . ووصفه بعضهم بقوله « قرّة عين الإمام الأعظم وصاحبه » ، من انتهت رئاسة الحنفية بالقاهرة المعزية إليه .

ومن فقهاء الشافعية: محمد^(٢) بن أحمد الملقب بشمس الدين الرملي ، المتوفى سنة ١٠٠٤ هـ وقد اشتهر بالشافعي الصغير . وزعم بعضهم أنه مجدد القرن العاشر ، وبالفوا في مدحه . وهو كما يقول صاحب خلاصة الأثر « أستاذ الأستاذين ، وأحد أساطين العلماء وأعلام نحاريرهم ، محيي السنة ، وعمدة الفقهاء طارصيته في الآفاق . فرحل إليه طلبة العلم ، وأقبل الناس على قراءة كتبه » ومن المالكية: سالم بن محمد السهوري المتوفى سنة ١٠١٥ هـ كان كما ذكر المحبى « أجمل أهل عصره غير مدافع ، وأخذ عنه الجهم الغفير من أهل مصر والشام والحرمين »

ومن الحنابلة: (٤) منصور البهوتي المتوفى سنة ١٠٥١ هـ وقد اشتهر ذكره في أنحاء العالم الإسلامي . فرحل إليه طلبة العلم من شتى الجهات ،

(١ ، ٢) خلاصة الأثر للمحبى ١٧٤/١ الطبعة الوهية بالقاهرة سنة ١٢٨٤ هـ

(٣ ، ٤) خلاصة الأثر ٢/٢٠٤ ، ٤/٢٦٦

وله مؤلفات مازالت موضع الاحترام .

والآن يحق لنا أن نتساءل : إلى أى مدى جدد هؤلاء العلماء فى الفقه ؟
وهل أضافوا شيئاً جديداً إلى مادته ؟

الواقع أنهم لم يأتوا بجديد، لأن المذاهب الفقهية كانت نضجت واكتملت على أيدي من سبقهم من العلماء، ولكنهم استوعبوا هذه المذاهب وفهموها فهما جيداً، وتمثلوها إلى حد بعيد حتى أصبح كل منهم عالماً متبحراً فى مذهبه، محيطاً بدقائقه إحاطة تامة ، قادراً على شرح ما عسى أن يكون غامضاً منه .
وهذه ميزات ليست يسيرة .

* * *

وكان الجامعات الأزهر معهداً عاماً تدرس فيه جميع العلوم كالتفسير والحديث وفقه المذاهب الأربعة ، والنحو والبلاغة والمنطق والرياضيات .
وبه أروقة لمختلف أجناس الطلاب . وله أوقاف طائلة ، وبه مكتبة ضخمة .
والدراسة فيه منتظمة لا تكاد تنقطع ^(١) طوال اليوم . والطلاب يلتفون حول أساتذتهم فى شكل حلقة ذات صفوف . فيجلس بالقرب من الأستاذ الأفضل ، ويليه الأقل فالأقل . وهذه الصفوف تسمى طبقات . فيقال فلان من أهل الطبقة الأولى ، أو الثانية ، أو الثالثة ، وهكذا . وبعض المدرسين يتخذون ^(٢) ملاحظاً يتولى إجلال الطلاب كل فى مكانه . وقد يعهد بهذا إلى أحد طلبته . ولبعضهم معيدون يتولون إعادة ما ألقاه الأستاذ على الطلبة

(١) قال أبو بكر العياشى الذى زار مدينة القاهرة سنة ١٠٣٧ « وبنا تلك الليلة بالجامع الأزهر ، لأنها ليلة سبع وعشرين من رمضان . وفى الحقيقة كل اللبالي بذلك المسجد كلية المدرس . لأنه معهود بالذكر والتلاوة والتعليم آباء الليل وأطراف النهار . لا تنقطع منه العادة ليلاً ونهاراً ، صيفاً وشتاء . فهو عديم النظير فى ساجد الدنيا بأجمعها ، حاشا الساجد الثلاثة . لما لها عند الله من أعظم المزايا وأرفعها . وإن خص هو بهذه الفضيلة فمير مستنكر وجود مزية و المفضلول ليست فى القاضل . لاذ الفضل بوجود التفضيل لا بوجود الفضيلة »

(٢) خلاصة الأثر ٣/ ١٩٥

ومن وظائف الأزهر المتصلة بشئون التعليم ؛ وظائف مشايخ الأروقة ، وكانت موضوعا للتنافس . وشيخ الأزهر يعين بعد أخذ رأى علمائه . وتراعى فيه الكفاءة والمقدرة والاستقامة بغض النظر عن مذهبه . وقد بلغ بعضهم منزلة رفيعة عند الحكام ، وطاشوا عيشة الأمراء فى مسكنهم وملبسهم ومأكلاتهم .

وقد أنشأ محمد بك أبو الذهب (١) سنة ١١٨٧ هـ معهدا عاما أنفق عليه أموالا طائلة ، وعين به عددا كبيرا من أساتذة الأزهر ، وجعل به مكتبة تحوى عددا كبيرا من الكتب النفيسة ، كان من بينها « شرح القاموس المحيط » للزبيدي ، وهى النسخة الخطية التى كتبت فى حياة المؤلف . ورصد له الأوقاف اللازمة للإنفاق على المدرسين والطلبة . ولكن هذا المعهد خرب بعد وفاة منشئه .

وكانت هناك معاهد خاصة بكل مذهب عدا المذهب الحنبلى لعدم إقبال الناس عليه ، فلم يدرس فى غير الأزهر . ولبعض هذه المدارس الخاصة شهرة لاتقل عن شهرة الأزهر ، ولها احترام كبير .

فمن هذه المعاهد : المدرسة الخشابية بجوار الإمام الشافعى . ولا يعين بها إلا أعظم علماء الشافعية . وهى مختصة بتدريس فقه الشافعى وكذلك المدرسة الصلاحية وهى بجوار الخشابية . وهاتان المدرستان من أقدم مدارس القاهرة . وكان للشافعية مدرسة أخرى بجوار الأزهر ، هى المدرسة الطبرسية . وللأحناف مدارسهم الخاصة كذلك ؛ وأشهرها المدرسة المشيخة والسنابية والأشرفية والمؤيدية . ولهم بحى الصليبية مدرستان : إحداهما اسمها البروقية والأخرى اسمها الباسطية .

وعلاوة على ما تقدم فإن كثيرا من مساجد القاهرة والأرياف كان يتخذ أمكنة للدراسة . فإذا اشتهر عالم فى جهة من الجهات ، وأراد أن يرفع

الناس بعلمه ، ذهب إلى أقرب مسجد وعقد الدرس فيقبل عليه الناس نظرا لشهرته . وقد كان مرتضى الزبيدي يدرس صباحا في مسجد شيخون لقربه من منزله . ويدرس بعد الظهر في مسجد الحنفى . وكانت دروسه مجمعا للطلاب بل ولعلماء الأزهر أنفسهم ، ولبعض الأمراء والأعيان .

وكانت للأسكندرية مدارسها . واشتهر في دمياط جامع^(١) البحر ، وفي طنطا جامع أحمد البدوى وبخاصة بعد أن جددته على بك الكبير ، وزوده بمكتبة ، ورصد له أوقافا ، وخصص الطعام والكساء للطلبة . وفي دسوق جامع إبراهيم الدسوقي ، وفي منوف معهد درس فيه كثير من العلماء . واشتهرت جرجا وفرشوط بمدارسهما وعلمائهما وأدبائهما وشعرائهما . وقد زار مرتضى الزبيدي مدينة فرشوط وزل عند حاكمها شيخ العرب همام الذى أكرم وفادته ، ومنحه بعض شعرائها . والكتاتيب منتشرة في كل مكان . وكان طلاب الأقاليم يحضرون إلى الأزهر لاستكمال علومهم .

قال ادورد لين^(٢) الذى زار مصر سنة ١٨٢٥ م « والكتاتيب في مصر كثيرة متعددة ، لافى العاصمة وحدها ، بل في كل مدينة كبيرة . ويوجد كتاب واحد على الأقل في كل قرية من أمهات القرى . وما من مسجد في العاصمة أو سبيل أو حوض مما تشرب منه البهائم إلا وألحق به كتاب يتعلم فيه الأطفال نظير نفقات ضئيلة »

وكان الأطفال يتعلمون القراءة فقط . أما الذين يتعلمون الكتابة فكانوا قلة ضئيلة . وهكذا تفشت الأمية على الرغم من وجود الكتاتيب في كل مكان .

(١) قال أبو بكر العياني الذى زار مصر سنة ١٠٣٧ هـ يصف مدينة دمياط وجامعها الكبير « وهى — دمياط — مدينة كبيرة تمتد على ساحل النيل . ذات مساجد كثيرة ، وأسواق حافلة ، وخانات عامرة ، ومرسى عجيبة . غصت بها السفن السكار . والقوارب الصغار . فيها من أنواع الفواكه والثمار ، وصنوف الأطعمة ما لا يكاد يوجد في غيرها »
« وكان نزلنا بمسجدها الكبير ، وهو مسجد وثيق البناء ، فسيح الفناء ، على ساحل البحر ، يضرب الماء في سورته . يتناول الشارب والنوصى الماء بيده من البحر وهو جالس في باب المسجد . وفي المسجد طائفة من الطلبة يقرءون ويدرسون على هيئة ماى الأزهر »

(٢) انجليزى يتحدث عن مصر ص ٣٥

ونجد في هذا العصر تساهلاً كبيراً في منح الإجازات العلمية . ففي العصور الأولى كان طالب الإجازة يلزم أستاذه مدة طويلة ، يحفظ فيها كل ما يسمعه من الأستاذ الذي لا يمنحه الإجازة إلا بعد تدقيق وتحقيق وامتحان . أما في العصر الذي ندرسه فتكاثرت تعطى جزافاً ، إذ كان يكفي أن يقرأ الطالب أوائل كتاب أو كتابين مما يدرسه الأستاذ حتى ينال إجازة بجميع مروياته . وكثيراً ما أعطيت لمن طلبوها من أهل البلاد القاصية عن طريق المراسلة . فكان العالم في القاهرة يبعث إلى طالب في مكة بالإجازة دون أن يراه أو يختبره . فيبدو أنهم اعتبروها رتبة فخرية . وشذ من هؤلاء العلماء محمد بن حسن بن جمال الدين الشافعي المتوفى سنة ١١٩٩ هـ فقد ذكر الجبرتي^(١) « أنه كان سمعاً في الإجازة ، لا يجيز أحداً إلا إذا قرأ عليه الكتاب الذي يطلب الإجازة فيه بتمامه . ولا يري الإجازة المطلقة ، ولا المراسلة ، حتى إن جماعة من أهل البلاد البعيدة أرسلوا يطلبون منه الإجازة فلم يرض ذلك . وهذه الطريقة في مثل هذا الزمان عسرة جداً »

وقد ورثوا عن أسلافهم مادة التأني في صياغة الإجازات . ولذلك أنشئت إلى أبواب الأدب نثرًا كانت أو شعراً .

وإذا فرغ أحد الشيوخ من تدريس كتاب ، أقيم لذلك حفل عظيم . وقد وصف لنا أبو بكر العياشي المغربي^(٢) الذي زار مصر سنة ١٠٢٧ هـ حفلاً رآه في الأزهر فقال «... فلما كان في يوم تسعة وعشرين من الشهر سره صبان - ختم المشايخ دروسهم بختم الشيخ عبد السلام اللقاني بعد صلاة السج - وعادتهم في الختم أن يحضر يوم الختم أنجب تلامذة المدرس وكبراء إخوانه . فإذا فرغ المدرس ، قرأ القارئ آيات من القرآن بقراءة مطربة .

(١) ١٨٨ / ٢

(٢) رحلة العياشي ١ / ٦ طبع الجزائر سنة ١٣١٦ هـ

ومنهم من يقرأها بالتقراءات السبعة . وبعد فراغه ينشد منشد بصوت رخيم قصيدة من إنشاء بعض التلاميذ ، فيها مدح النبي صلى الله عليه وسلم ، والترضى عن مؤلف الكتاب المقروء ، والدعاء للشيخ الذى يدرسه . ثم يقوم آخر ويثنى على الله وعلى رسوله بثناء بليغ ، ثم على آل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه وتابعيهم بإحسان . ثم يترضى عن المشايخ أرباب المراتب . كل ذلك بنثر بديع ولفظ فصيح . ثم يقرأ الفاتحة ويهذى ثوابها إلى حضرة النبي صلى الله عليه وسلم ، وإلى من ذكر بعده . ويبلغ فى الثناء عليهم إلى أن يصل إلى الشيخ المدرس فيدعوه وللحاضرين بأبلغ دعاء بقلب حاضر ، وصوت خاشع ، ويؤمن الحاضرون على دعائه ، ثم يختم . وبعد هذا يقوم أهل المجلس كلهم ويصافحون الشيخ ، ويدعون له ويدعوه لهم . ويحضر الختم جمع عظيم من الناس وأهل الفضل والمجاذيب ،

* * *

وكان بالقاهرة مدرسة الطب فى المارستان المنصورى . وقد جاء إلى مصر فى أوائل هذا العصر طبيب حاز شهرة واسعة ، وهو داود الأنطاكي^(١) المتوفى سنة ١٠٠٨ هـ وكان على درجة كبيرة من الثقافة ، مستوعباً لكتب ابن سينا فى الطب والفلسفة . فوضع عدة كتب فى الطب أشهرها تذكرته التى ظلت موضع احترام طوال العصر العثمانى . وطبعت بمصر عدة طبقات . ودرس داود فى المارستان المنصورى ، وتخرج على يديه طلبة كثيرون اشتهر منهم أحمد بن^(٢) سراج الدين المعروف بابن الصائغ الشيخ الرئيس ، تولى مشيخة مدرسة الطب ، وتوفى سنة ١٠٣٦ هـ خلفته بنته .

ثم نبغ طبيب مصرى آخر ؛ هو مدين بن عبد الرحمن القوصوفى . كان موجوداً سنة ١٠٤٤ هـ وهو من تلاميذ داود ، ومن مؤلفاته فى الطب : قاموس^(٣) الأطباء فى المفردات .

(١) ١٠٤٤ هـ (٢) خلاصة الأثر ٣٣٣/٤ (٣) منه نسخة خطية بدار الكتب تحت .

واشتهر أحمد بن^(١) سلامة القليوبى المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ وكان « فى الطب ماهراً خبيراً ، حسن التقرير ، يبالغ فى تفهيم الطلبة ، ويكرر لهم تصوير المسائل » .

وكان اليهود أكثر إقبالا على الاشتغال بالطب من المسلمين . قال داود الأنطاكي فى مقدمة تذكرته : « . . . فإنى حين دخلت مصر رأيت التقيمه الذى هو مرجع الأمور الدينية يمشى إلى أوضاع يهودى لا تليق به ، فعزمت على أن أجعله — الطب — كسائر العلوم ، يدرس ليستفيد منه المسلمون . فكان فى ذلك وبالى ونسكد نفسى وعدم راحتى من سفهاء لازمونى قابلا ، ثم تعاطوا التطب فأضروا بالناس فى أموالهم وأبدانهم . وأنكروا الاعتفاع^١ ، وأفسحوا فى أفاعيل » .

وتعاطى الطب كذلك بعض الأقباط ولا سيما الرهبان .

وسبق أن ذكرنا أن عبد الرحمن كمتخدا المتوفى سنة ١١١٩ هـ جدد المدارس المنصورية وزاد فى أوقافه . وقد ظل هذا المدارسان المدرسة الوحيدة التى يدرس فيها الطب ، كما كان المستشفى الحكومى الوحيد الذى تعالج به مختلف الأمراض حتى قام محمد على .

وكانوا يدرسون العلوم الرياضية التى عرفت من قبل . وأنشأوا عن القدماء عادة خلط الحساب بالفرائض . ومن أنواع الرياضة التى درسوها : الجبر ، والهندسة النظرية « إقليدس » والحيل « الميكانيكا » والفلك . وأنشأوا المزاويل لمعرفة الأوقات ، والساعات التى كانت ترد عليهم من الخارج . وكان لبعض المساجد الكبيرة مؤقتون لتحديد أوقات الصلاة ، يعرف الواحد منهم بالميتقاتى .

إلا أن الإقبال على دراسة العلوم الرياضية كان قليلاً جداً ، في حين أن الإقبال على العلوم الدينية كانت له الغلبة . وهذا يرجع إلى قانون العرض والطلب . فالمعروف أن الطالب يدرس ما يساعده على كسب رزقه وبخاصة إذا كان فقيراً . وقد كانت الوظائف المعروفة إنداك وظائف دينية كالمؤذن والإمام والخطيب والمأذون والشاهد والقاضى ونائبه ، والمفتى والمحتسب والمدرس . وكان لوجود المذاهب الأربعة دخل فى هذه الكثرة التى لو وزعت على كل مذهب لم تكن شيئاً . ثم إن رجل الدين كان محترماً فى ذلك الوقت من الحكومة والشعب . أما الوظائف الحسابية فكانت فى يد الأقباط .

* * *

وكانت مصر تتمتع بشهرة علمية طيبة . قال أحمد باشا كور وزير الذى ولى مصر سنة ١١٦١ هـ للشيخ عبد^(١) الله الشبراوى ذات يوم « المسوع عندنا بالديار الرومية أن مصر منبع الفضائل والعلوم . وكنت فى غاية الشوق إلى المجيئ إليها ، فلما جئتها وجدتها كما قيل : تسمع بالمعيدى خير من أن تراه » وكان أحمد باشا قد تحدث مع بعض شيوخ الأزهر فى العلوم الرياضية فلم يعرفوا شيئاً . فقال الشيخ الشبراوى « إن غالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشئ من العلوم الرياضية إلا بقدر الحاجة الموصلة إلى علم الفرائض والموارث كعلم الحساب » وقال « إن طلبه الأزهر لا يستطيعون أن يشتغلوا بغير ذلك من العلوم الرياضية ، لأنها تحتاج إلى أدوات وآلات ودقة الرسم . وأهل الأزهر فقراء » ثم ذكر الشيخ الشبراوى اسم الشيخ حسن الجبرتى والد مؤلف التارخ المشهور ، وقال إنه عالم فى الرياضيات والفلك . فاستدعا والى فلما رآه أعجب بعلمه واتخذ من خاصته والمقرين لديه .

* * *

وكان بمعظم معاهد القاهرة مكتبات تحوى الكتب التى اعتادوا دراستها. ولكثير من العلماء مكتباتهم الخاصة فى منازلهم ، يفتتحونها لكل من يريد الانتفاع بها . واشتهر كثيرون بنسخ الكتب متخذين من ذلك وسيلة للرزق . نذكر منهم الشاعر المشهور عبد الله الإدكاوى المتوفى سنة ١١٨٢ هـ وهناك محلات لبيع الكتب يسمى أصحابها بالوراقين ، وحرقتهم بالوراقة . ولهم شيخ يسمى شيخ الوراقة .

ولم يكن الناس كلهم يؤمنون بكرامات الأولياء ، ويؤمنون بما يدعونه لأنفسهم من القدرة التى لا حد لها قال حسن البدرى الحجازى الأصل المصرى الإقامة والوفاة ، منكرآ كرامات الأولياء وإقامة الأنسرحة وزيارتها :

ليتنا لم نعش إلى أن رأينا كل ذى جنة لدى الناس قلبا
علمهم به يلوذون بل قد تحذوه من دون ذى العرش ربا
إذ نسوا الله قائلين فلان عن جميع الأنام يفرج كربا
وإن مات جعلوه منارآ وله يهرعون سجدا وعرا
بعضهم قبل الضريح وبعض عتب الباب قبله وترا
هكذا يفعل المشركون مع أصنامهم يبتغون بذلك قرا
كل ذا من صمى البصيرة والويع ل لشخص أسمى له الله قلدا

وقد صور الشعراى موقف معاصريه المنكرين الأولياء فى مقدمة كتابه « الطبقات الكبرى » فقال : « . . . فإذا مر عليهم ولى من أولياء الله ينسبونه إلى الزندقة والجنون ، وتراهم ينظرون إليه وهم لا يبصرون . فمنهم المنكر لكراماتهم ، ومنهم المنقص لمقاماتهم ، ومنهم التالب لأعراضهم ، ومنهم المعترضون على أحوالهم ، ويخوضون بحججهم فى مقالهم ، وهم يستهزئون . »

وقد ألف الشعراني هذا الكتاب دفاعاً عن الأولياء وما يأتون به من الكرامات والخوارق . وقال في كتابه^(١) « لطائف المئين » ... وفي عصرنا هذا جماعة من الصوفية العاملين ، ربما يكون المنكر عليهم لا يصلح تعليماً لهم ، كسيدى محمد ابن الشيخ أبى الحسن البكرى ، والشيخ سليمان الخضيرى ، والشيخ ناصر الدين الطبلاوى ، والشيخ زين سبط على المرصنى . وقد عرضت هؤلاء على بعض المنكرين فقال : لا أعتقد فى واحد من هؤلاء إلا إن رأيت له كرامة . فقلت له : وأى كرامة أعظم من العلم والعمل ؟ فلم يرجع إلى قولى وتركته . ولكن الشعراني عرض بأهل عصره ممن يظهرون التصوف ويبطنون النصب والتدجيل فقال^(٢) « ما نصه » ... وقال لى الأمير محمد دفتر دار مصر مرة : أنا لا أعتقد فى مشايخ مصر الآن ولو مشى أحدهم فى الهواء . فقلت : لماذا ؟ فقال : لأنى رأيتهم يجتهدون فى طلب الدنيا أكثر مما يجتهدون فى طلبها . وقد دخل على شيخ منهم فى رمضان ليفطر عندى فقلت له : هذا الطعام عندى فى حله شك فلا تأكل منه . فقال : قدمه لى وعلى حسابه فى الآخرة . فكيف أعتقد فى مثل هذا وأنا لا تطيب نفسى أن آكل منه مع أى معدود من الظلمة ؟ ! »

وبقيت هذه المناقشات بين المتعصبين للأولياء وكراماتهم ، وبين المنكرين . فهذا عبد الرؤوف المناوى المتوفى سنة ١٠٣١ هـ يؤلف كتاباً اسمه « إرغام أولياء الشيطان بذكر مناقب أولياء الرحمن » والمقصود بأولياء الشيطان هم المنكرون للأولياء وكراماتهم . ويرى المناوى^(٣) أن الولي « لا يبلغ درجة النبى ، ولا تسقط عنه التكاليف بكمال الولاية كما ادعى بعض أهل الإلحاد والاتحاد ، أن الولي إذا بلغ الغاية فى المحبة وصفاء القلب وكمال الإخلاص ، سقط عنه الأمر والنهى ، ولم يضره ذنب ، ولا يدخل النار بارئاً من الكبائر .

(١) ص ٩١ وما بعدها ؛ مطبعة بولاق سنة ١٢٨٨ هـ

(٢) تنبيه المغترين ص ١ وما بعدها ، المطبعة المحمودية سنة ١٣١٥ هـ

(٣) السكواكب الدرية فى تراجم الصوفية ورقة رقم ١ مخطوط رقم ٢٦٠ تاريخ

وذلك باطل بإجماع المسلمين . ولا تكون ولاية غير النبي أفضل من النبوة بحال . وإنما الكلام في ولايته - أى النبي - فقيل هى أفضل لما فيها من معنى التقرب وكمال الإخلاص وقيل بل نبوته لما فيها من الوساطة بين الحق والخلق . ثم إن ظهور الكرامة لا يدل على أفضلية ، وإنما هى بقوة الإيقان وكمال العرفان »

وقد كثرت الكتب المؤلفة لإثبات كرامات الأولياء . نذكر منها « حاجات الشرنوبى » (١) تأليف أحمد الشرنوبى المتوفى سنة ٩٩٤ هـ و « الفتوحات » (٢) الربانية فى مناقب السادة الخضيرية » تأليف مراد بن يوسف الأزهرى المتوفى سنة ١٠٣٠ هـ و « الماء » (٣) الزلال فى إثبات كرامات الأولياء فى الحياة وبعد الانتقال » لأحمد الجوهري المتوفى سنة ١١٨٢ هـ و « كنز » (٤) السعادات فى الكرامات بعد الممات » لعبد الرحمن الأجهورى المتوفى سنة ١١٩٧ هـ و « السهم » (٥) القوى فى نحر كل غيب ، فيمن ينكر كرامات الأولياء » للسجاعي المتوفى سنة ١١٩٧ هـ وهذا غير ما ألفه الشعرائى والمناوى . ولو كان الناس كلهم يسامون بزاعم الأولياء لما احتاج الأمر إلى تأليف هذه الكتب والرسائل التى يتكاد يخطئها العد . وإنك لتلمس فى عناوين بعضها ما يدل على الرغبة فى التجدى والهجوم . وفى (٦) سنة ١١٢٣ هـ حضر إلى القاهرة واعظ تركى ، أخذ يعظ الناس بجامع المؤيد . ثم انتقل من الوعظ إلى ذكر ما يفعله أهل مصر بأنهم - فى الأولياء ، وإيقاد الشموع والقناديل على القبور . وقال إن هذا كفر يجب على الناس أن يتركوه . وعرض بقول الشعرائى فى طلبقاته إن بعض الأولياء اطلع على اللوح المحفوظ . فأنكر ذلك على الأنبياء فضلاً عن الأولياء . وقال بوجوب هدم القباب المبنية على الأضرحة . وأنكر وقوف الفقراء بباب زويلة فى شهر رمضان .

(١) مطبوع (٢) مخطوط رقم ٧٧ تاريخ م (٣) ٤ : ٣ (٤) تاريخ م .

(٥) ٤٠٣ مخطوط تيمور (٦) الجبرى ١ / ٤٨

فلما سمع الحاضرون ذلك خرجوا ليلاً إلى باب زويلة حاملين العصي والأسلحة فهرب من كان هناك . ثم إنهم قطعوا الجوخ والأكر للعلقة وهم يقولون « أين الأولياء ؟ » فأغضب عملهم بعض الناس فذهبوا إلى الجامع الأزهر وأخبروا الشيخ النفراوى وأحمد الخليلي بما حدث . فأفتى هذان الشيخان بأن كرامات الأولياء لا تنقطع بالموت ، ولا يجوز لأحد أن ينكر اطلاع الأولياء على اللوح المحفوظ . وقالوا بوجوب زجر الواعظ الذي غضب من هذه الفتوى ، وأبدى استعزاده لمناظرة العلماء . وتعصب له كثيرون وتطوعوا للدفاع عنه ، وتعاهدوا على نصرته . وأخذ الواعظ يحرص أنصاره على الدفاع عن الدين وقمع الدجالين ، ولكن الأمر انتهى بنفيه وتشقيت شمل أنصاره .

وهذا الواعظ من غير شك متأثر بآراء ابن تيمية والواقع إن آراء ابن تيمية كانت موضوعاً للنقاش عند بعض علماء هذا العصر . فقد ألف ابن حجر الهيتمي كتاباً سماه « الجوهر المنظم في زيارة القبر النبوي للمكرم » ومعلوم أن ابن تيمية يرى أن زيارة القبور ومنها القبر النبوي شرك وكفر صريح . فعارضه ابن حجر بقوله إن زيارة القبر النبوي مشروعة مطلوبة بالكتاب والسنة وإجماع الأمة والقياس . وقد اعتمد ابن حجر على ما كتبه السبكي من قبل في الرد على ابن تيمية ، ولم يأت بمجديد . على أن ابن حجر يرى أن إقامة المولد النبوي بدعة لأنها لم تعرف عند المسلمين الأولين . ويقول إن أكثر ما يرويه القصاص والوعاظ فيما يتعلق بمولد الرسول مكذوب ، لا أساس له من الصحة . ولكنه ذكر أنها بدعة حسنة لما اشتملت عليه من الإحسان الكثير إلى الفقراء ، وتلاوة القرآن ، وإظهار السرور والفرح بالنبي ، وإغاظة أهل الزيغ والزنادقة والملحدين ، والكفرة

(١) النعمة الكبرى على العالم بمولد سيد ولد آدم . مصورتاريخ رقم ٥٥٥٨ دار الكتب

لوحة رقم ٥

(م ٤ — الأدب المصري)

والمشركين . وقد كرر ابن حجر هذه الآراء في كتاب آخر هو « الدر المنضود في الصلاة على صاحب المقام المحمود » .

* * *

ولم يعد ابن تيمية أنصاراً في العصر الذي ندرسه . فيقول صاحب^(١) « الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة » : « إن موسى المصرى المتوفى سنة ٩٩٠ هـ كان يعتقد اعتقاد حمى الحنابلة » ويقصد بحمى الحنابلة أتباع ابن تيمية .

وألف يوسف بن مرعى الحنبلى المتوفى بالقاهرة سنة ١٠٣٠ هـ كتاب « الكواكب الدرية في مناقب ابن تيمية » لخصها من مناقبه لعبد الهادى ابن قدامة المقدسى ، ومن مناقبه لسراج الدين البزار ، ومن مناقبه لأحمد ابن القاضى محيى الدين بن عمر الشافعى . وختم كتابه بفصل في الرد على خصوم ابن تيمية الذين يرمونه بالكفر .

ونحن نعلم أن ابن تيمية قال بوفاة الخضر ، ولكن الصوفية في هذا العصر قالوا ببقائه حياً وقد ألف^(٢) مرعى « رسالة الخضر » وأثبت فيها أنه مات وهو بهذا يتابع أستاذه ابن تيمية وله غير ما تقدم كتاب « رفع^(٣) الشبهة والغرر على من يحتج على فعل المعاصى بالقدر » عرض فيها بالاتحادية والحلولية الذين وقعوا في الإباحية وغرقوا في المعاصى وتركوا الفرائض محتجين على هذا بأنه مقدر عليهم ، لا يستطيعون تركه . واعتمد مرعى على آراء ابن تيمية في هذا الموضوع .

ونلاحظ في هذا العصر كثرة الأسئلة التى وجهت إلى العلماء بخصوص

(١) مخطوط رقم ٤٠٣٤ نصوص .

(٢) ورقة رقم ٣٣٩ من الجزء الثالث ، مخطوط ١٢٠٦ تاريخ .

(٣) (٤ ، ٣) مخطوط ٣٩٥ بحايم تيبور .

الخضر ، وهل هو حي أم ميت ؟ ونلاحظ كثرة الرسائل التي وضعت في هذا الموضوع ، مما يدل على أن السائلين كانوا في شك من حقيقة أمره . وقد يكون شكهم هذا ناجماً عن اطلاعهم على آراء ابن تيمية . ومن الرسائل التي وضعت لإثبات وجود الخضر حياً « القول الدال على حياة الخضر والأبدال » لمصطفى بن نوح المتوفى سنة ١٠٧٠ هـ .

* * *

وكانت كتب ابن عربي منتشرة في دوائر المتصوفة ، لا سيما « الفتوحات المكية » ولكن من الإنصاف أن نقول إن أغلبهم لم يقبلوا نظريات الاتحاد والحلول ووحدة الوجود . ومنهم من اعتبر القول بها كفرآ . وهذا هو محمد البكري المتوفى سنة ٩٩٤ هـ رأس المتصوفة في عصره يقول في إحدى قصائده :

أطلقوا وحدة الوجود وقالوا كل شيء هو الإله الباري
يا لقومي أما لظه نصير ؟ غاب من لم يكن من الأنصار

ويقول من قصيدة أخرى :

حاول محال ، واتحاد مخالف لوحدته فالوصف فيه تلونا

* * *

وقد جاء إلى مصر في هذا العصر علماء أعلام ما زالوا موضع ثقة واحترام ، وألفوا كتباً قيمة لا يستغنى عنها الباحث . نذكر منهم بهاء الدين العاملي الذي ألف كتابه « الكشكول » بالقاهرة . وداود الأنطاكي وقد سبقت الإشارة إليه . ومرعي بن يوسف الحنبلي صاحب المؤلفات المشهورة التي أسلفنا الكلام على بعضها . وأحمد بن محمد المقرئ صاحب « نفع الطيب » وغيره ، وعبد القادر البغدادى صاحب « خزانة الأدب » وبدر الدين العباسي مؤلف « معاهد التنصيص ، شرح شواهد التلخيص » ومرتضى الزبيدي

شارح القاموس . وعبد الرحمن بن مصطفى العيدروس الصوفي المشهور .

ومر بها كثير من علماء المغرب . وزارها من علماء الشام والدالحبي الذي ألف رحلة عن هذه الزيارة . والحبي صاحب « خلاصة الأثر » . وعبد الغنى النابلسي الذي خصص جزءاً كبيراً من رحلته عما شاهده بمصر . وأبو بكر العياشي من علماء المغرب ، وصاحب الرحلة التي أشرنا إليها . كما زارها بعض علماء الحجاز .

واستوطنها من شعراء الشام كثيرون نذكر منهم : زين الدين العاملي ، وشمس الدين الحموي . وزارها طرز الريحان البعلبي ، وفتح الله النحاس ، وابن الدرا . واستوطنها من شعراء المغرب يوسف بن زكريا المغربي . ومن الحجاز نور الدين القلعي .

وزارها من الرحالة الأوروبيين كثيرون ، نذكر منهم الرحالة الفرنسي « فولني » وألف رحلة مترجمة إلى اللغة العربية تحت عنوان « مصر في القرن الثامن عشر » وكان حضوره إلى وادي النيل سنة ١٧٨٤ م وقد انتفع نابليون بما كتبه فولني عن مصر إلى حد كبير . ووصفه برتييه أحد قواد الحملة الفرنسية بأنه الدليل الأمين ، وقال إنه هو فقط الذي لم يغشهم .

* * *

واشتهر في هذا العصر من المتصوفة : محمد البكري والشعراني « وعبد الرؤوف المناوي الذي يقول فيه صاحب خلاصة الأثر « . . . فهو أعظم علماء هذا التاريخ آثاراً . ومؤلفاته غالبها متداولة كثيرة النفع ، وللناس عليها تهافت زائد ، ويتغالون في أمثاتها » .

ومن العلماء : ابن حجر الهيتمي ، وأحمد السجاعي ، وأحمد الدمنهوري ، وأحمد الجوهري ، وغيرهم كثيرون لا يتسع المقام لذكرهم .

ومن رجال النحو : الصبان ، والكفراوي ، ومحمد الأمير . وقد ألفوا كتباً ما زالت تدرس حتى عصرنا هذا .

ومن المؤرخين : ابن إياس الحنفى ، وهو أشهر من أن يذكر . ومحمد ابن عبد المعطى الشهير بالإسحاقى صاحب كتاب « لطائف أخبار الأول فيمن تصرف بمصر من أرباب الدول » انتهى فيه إلى سنة ١٠٣١ هـ ومحمد بن محمد ابن أبى السرور البكرى صاحب كتاب « عيون الأخبار ونزهة الأبصار » و « النزهة الزهية فى ذكر ولاية مصر والقاهرة المعزية » و « الوشى المرقوم من النطق المفهوم » و « المنح الربانية فى تاريخ الدولة العثمانية » و « اللطائف الربانية على المنح الرحمانية » وإبراهيم الصوالحى - كان بالقاهرة سنة ١٠٢١ هـ - مؤلف كتاب « تراجم الصواعق فى وقعة الصناجق » ومصطفى بن إبراهيم مؤلف « تاريخ وقائع مصر سنة ١١٠٠ - ١١٥٠ » وشيخ مؤرخى مصر فى ذلك العصر عبد الرحمن الجبرتى الذى انتفع بمجهود هؤلاء المؤرخين حينما ألف كتابه « عجائب الآثار » ونقولا الترك مؤلف كتاب « ذكر تملك الجمهورية الفرنسية لقطار المصرية »

ومن كتاب السير والتراجم : نور الدين الحلبي مؤلف « إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون » ويعرف بالسيرة الحلبية . ومحمد بن على الداودى مؤلف « طبقات للفسرين » والشهاب الخفاجى صاحب « ريحانة الألبا » و « خبايا الزوايا فيما فى الرجال من البقايا » وأحمد بن سلامة القليوبى مؤلف « تحفة الراغب فى سيرة جماعة من آل البيت الأطياب » ومحمد بن أحمد البهوتى مؤلف « التحفة الظريفة فى السيرة النبوية الشريفة » وأبو الصلاح على بن محسن الصعيدى مؤلف « تعطير الأنفاس بمناقب الشاذلى وأبى العباس » وأحمد الرشيدى مؤلف « حسن الابتهاج فيمن ولى فى مصر إمارة الحاج » وعبد الرحمن الأجهورى مؤلف « مشارق الأنوار فى آل البيت الأخيار » ومرضى الزبيدى مؤلف « الروض المعطار فى نسب آل جعفر الطيار » و « رفع نقاب الخفا عن ائمتنى إلى وفاء الوفا » ومحمد بن على الصبان مؤلف « إسعاف الراغبين

في سيرة المصطفى وفصائل أهل بيته الطاهرين « ومدين بن عبد الرحمن القوصوني مؤلف «ريحانة الألباب وريحان الشباب في مراتب الآداب» وقد اعتمد صاحب خلاصة الأثر على هذا الكتاب الذي لم يصل إلينا فيما كتبه عن أدباء مصر وشعرائها وعلمائها في القرن الحادي عشر . وعبد البر القيوي مؤلف «منزه العيون والألباب في بعض المتأخرين من أهل الآداب» جعله على طريقة الشهاب الخفاجي في ريجاته . وهذا الكتاب لم يصل إلينا كذلك مع أنه اشتهر ببلاد الشام ، وعليه اعتمد صاحب خلاصة الأثر فيما كتبه عن مصر .

وظهرت في هذا العصر مؤلفات كثيرة في الروحانيات ، وفك الأرصاد والطلاسم ، وفي ألعاب المهارة كالسيا والزايرجة . وفي التنجيم وضرب الرمل . ولم يكن الناس كلهم يؤمنون بهذه الخرافات . فهاهو الإدكاوي الشاعر ينكر على المنجمين ما يزعمونه من معرفة مايقع في المستقبل ، وله شعر في ذلك نذكر منه :

الله يعلم ما يكون وما به تسرى الرياح وماله يجري الفلك
فدع المنجم في ضلالته وما ينبيك عنه في مقاتله أفك
واحذر تصدقه قتهلك عامدا يامدعي الإيمان فيمن قد هلك
علم الإله محجب إلا على من يرتضيه من نبي أو ملك
هذا اعتقادي والذي ألقى به ربي لأسلك ناجيا مع من سلك
وألف رسالة في تأييد آرائه اسمها « هداية المتوهمين في كذب المنجمين »

أما بعد فهذه صورة للحالة الفكرية في مصر إبّان العصر العثماني . ويمكننا أن نخرج من هذه الدراسة بأمور :

أولا - إن الحركة العلمية في مصر في ذلك العصر كانت نظرية محضة .

ولم يعرف المصريون العلم التجريبي القائم على المشاهدة والتجربة والاختبار .
ثانيا - إنها استقت من المصادر القديمة ، ولم يكن فيها تجديد أو ابتكار .

ثالثا - إنها لم تتصل بالنهضة العلمية الأوروبية ، لا من قريب ولا من بعيد . فالمعلومات الجغرافية والفلكية القديمة ظلت كما هي . فلم يصل إلى أسماع المصريين أنباء العالم الجديد ، وما كشفه الأوربيون من قارات ومحيطات . ولم يقفوا على شيء من تقدم علم الفلك أو علوم الطبيعة والكيمياء والطب . ولو ترك المصريون وشأنهم في ظل هذه الحياة العلمية لما تغير حالهم ، ولبقيت معالمهم الفكرية كما هي دون أي تقدم .

لذلك لما اطلعوا على العلوم الحديثة التي صاحبت الحملة الفرنسية أبدوا دهشتهم واستغرابهم ، واعتقدوا أنها أنواع من السحر .

وحينما أرسل محمد علي البعث العلمية إلى أوروبا ، رأى الطلبة علومها لا عهد لهم بها من قبل . ورأوا كتباً مؤلفة بطرق تختلف عن الطرق المتبعة في البلدان العربية . وأدركوا الفرق البعيد بين الشرق والغرب . وقد سجل رفاة الطهطاوي إعجابه بالطرق الغربية الحديثة في التأليف ، ونمى على الكتب العربية اهتمامه . الشديد بالنحو والإعراب ، وكثرة ما عليها من شروح وتعليقات ، وما في أساليبها من تعقيد والتواء .

وحسبنا أن نقول إن الطباعة التي انتشرت في أوروبا في ذلك العصر ، لم تعرف في مصر . وقد أدرك محمد علي أن الثقافة للمصرية في ذلك الوقت لا تصلح لبناء دولة على النمط الحديث . لذلك لم يتردد في إرسال وفود الطلبة إلى مختلف البلاد الأوروبية لتلقي العلوم . كما استقدم الأساتذة والمدرسين من كل فن وعلم للتدريس بمصر . وأنشأ المدارس على النمط الأوربي .

ولكن الآداب لا شأن لها بالحياة العلمية . فقد نشأ الأدب في صحراء العرب حيث كانت الحياة بدائية ، ولم تكن هناك حضارة ولا مدنية ، ولا كيمياء صناعية ، ولا ورق ولا طباعة . نعم في هذه الصحراء القاحلة ظهر فحول

الشعراء . إن الأدب لا يمكن أن ينعدم لأنه وليد العواطف ، والعواطف موجودة في كل زمان ومكان . لذلك كان من الخطأ أن نربط بين تأخر العلوم والصناعات وبين الأدب فنحكم عليه بالأنحطاط قياسا على انحطاط العلوم .

وكذلك من الخطأ أن نتخذ لغة أمريء القيس أو المتنبي أساسا للحكم على شعراء العصر العثماني . وذلك لأن هذا العصر تحكم فيه طابع خاص يختلف كل الاختلاف عن العصور السابقة ولكل عصر طابعه ، ولكل بيئة معاملها ومميزاتها . والأدباء إنما يعبرون بلغة العصر الذي يعيشون فيه . وهل نحتقر الأدب الشعبي لأنه لم يتخذ لغة المتنبي في أساليبه وعباراته ؟؟

الباب الثاني

الفصل الأول

الشعر ومذاهبه

قال الشهاب الخفاجي في ترجمة محمد البليبي الشاعر المصري المتوفى سنة ١٠١٩ هـ مانصبه^(١) . . « وله شعر أصنى من الرحيق المعتق ، وأبهى من الوشى المنمق ، إلا أنه تجاوز رقة النسيب إلى التجنيس والغريب » .

وقال في ترجمة الشاعر يوسف بن زكريا المغربي نزيل القاهرة ، المتوفى سنة ١٠١٩ هـ بعد أن أورد جملة من شعره^(٢) « واعلم أن هذا كله ليس بشعر ترثضيه الأدباء ، وهو كل شعر أكثر فيه من البديع » .

وكتب الخشاب إلى أحد الشعراء ، وكان يعرض شعره للذم بالتزامه ما لا يلزم :

ألزمت^(٣) نفسك في القريض مذاهبا ذهبت بشعرك في الحضيض الأوهده
وتركت ما قد كان فيه لازما هلا عكست فجئت بالقول السدى ؟
كدرت فيه بما صنعت بحوره فغدت مشارع ليس ينحوها الصدى
فاذا نظمت فكُنْ لنفسك نافدا نقد البصير بذهنك المتوقد
أولا فدع تسكليف نفسك واسترح من قولهم ما شعر بالجيد

(١ ، ٢) خلاصة الأثر ٢ / ٢٤٦ . ٤٠٤ / ٥٠٤ .

(٣) الجبرق ٢ / ٢١٧ وديوان الخشاب من ٣٨٠ طبع الجوائب .

فمن هذا وأمثاله نعلم أن الشعراء المصريين في العصر العثماني كانوا يكرهون التكلف والتزام الصنعة ، واستخدام المحسنات اللفظية من جناس وطباق ومقابلة إلا ما أتى عفواً ، ويفضلون أن يترك الشاعر نفسه على سجيتهما . وهذا المذهب متفق كل الاتفاق مع قوم غلب على كثير منهم ارتجال الشعر في سهراتهم الخاصة التي كانت تجمع بينهم ، وفي المجالس الأدبية التي كثرت في ذلك العصر ، وفي الموالد التي تقام للأولياء .

ومن اشتهر بالارتجال : أبو السماع البصير المتوفى سنة ١٠٦٦ هـ وفيه يقول المحب^(١) « الشاعر البديهي ، أعجوبة الزمان ، وأحد الأفراد في البديهة وارتجال الشعر . وكانت طريقته إذا أراد الارتجال أن يبدأ بإنشاد قصيدة من كلام أحد الشعراء المتقدمين بصوت شجي . وفي أثناء إنشاده يبتدر على وزن تلك القصيدة في أي باب كان من أبواب الشعر ؛ مدحاً كان أو غزلاً أو غيرها . »

« وورد دمشق في أوائل شوال سنة ١٠٤٨ فأنزله أديب الزمان أحمد الشاهيني عنده ، وأقبلت عليه أعيان الشام وأدباؤها لغرابة حاله وتفوقه في شأنه . »

وقاسم بن عطاء الله المتوفى سنة ١٢٥٤ هـ وفيه يقول^(٢) الجبرتي . « .. وصار وحيد عصره في هذه الفنون — الشعر والزجل — بحيث لا يجاريه أحد مع ما لديه من الارتجال في الشعر مع غاية الحسن . وكان الشيخ العيّدروس يتعجب منه ويقول : هو ممن يلقنه جنى . »

واجتمع يوماً في مجلس به جماعة من الأدباء كالشيخ محمد بن الصلاحى ، والشيخ عامر الزرقانى ، وكان يوماً مطيراً . فقال ابن الصلاحى مرتجلاً :

(١) خلاصة الأثر ١ / ١٣٩ .

(٢) الجبرتي ٢ / ١٨٦ .

تقدومكم ضحك الغما م فلم العين البكا
ما ذاك إلا أنه لنوال كففك قد حكى
فقال قاسم :

أفديك بالعينين يا نجل الصلاح مع الذكا
هطل الغمام كأنه لعزیز جاهك قد شكا
ومثل هذا كثير تجده منبثاً في ثنايا الكتب . وقد بلغ من كراهية
بعضهم للتكلف أنهم فضلو نظم المزدوجات لأنها أسهل من نظم القصائد .
وكان الفن الشعري غالباً على كثير منهم حتى إنهم استخدموا الشعر فيما
يستخدم فيه النثر . مثال ذلك أن الشاعر يحيى^(١) الأصيلي المتوفى سنة
١٠١٠ هـ ذهب إلى منزل أحد الأعيان فأخبر الإذن له ، فكتب يقول :

على الباب من كاد من شوقه يموت وذلك يحيى الأصيلي
أتى يتغنى بأوصافكم فهل تأذنون له بالدخول ؟

وحدث أن مرتضى الزبيدي كاف عبد الله الإدكاوي أن ينسخ له كتاباً .
وقام الإدكاوي بهذه المهمة ، ولكن الزبيدي أخر عليه أجره ، وأراد
الإدكاوي أن يطالبه بهذا الأجر ، فلم يبعث إليه برسالة ، وإنما بعث إليه
بقصيدة^(٢) جاء فيها :

صبح الله سيدي بالسعادة وحباه من كل خير مراده
ووقاه الردى وزاد علاه رفعة لا تنى تزيد سياده
خلك المرتجى إجابة ما قد عودته عاداتك المستجاده

(١) خلاصة الاثر ٤ / ٤٨١ .

(٢) ديوان الإدكاوي ورقة رقم ٢٩٣ مخطوط ٧٨٢٨ — أدب ، دار الكتب .

- ٦٠ -

فتفضل وابتعث بما قد تبقى ولك الفضل إن بعثت زياده
وابقى فى العز والسيادة يا أو حد ما نال ذو احتياج إفاذه
والأمثلة على ذلك كثيرة جداً بحيث إننا نستطيع أن نجمع منها مجلدات .
كما أنهم حذوا حذو أسلافهم فى استخدام الشعر فى الإجازات العلمية ،
وفى تقرير السكتب والرسائل . وبلغ من تعلقهم بالفن الشعرى أنهم نظموا
بعض العلوم .

* * *

قلنا إن الشعراء فى ذلك العصر كرهوا التكلف وآثروا أن يترك الإنسان
نفسه على سجيته . والآن نضرب بعض الأمثلة على ذلك :

قال الشهاب^(١) الخفاجى من قصيدة طويلة :

قدحت رعود البرق زندا أضرم أشجانا ووجدنا
فى حمة الظلماء إذ مدت على الخضراء بردا
حتى ثناء نوره وتمطت الأغصان قدأ
وأتى الشقيق بمجمر للروض أوقد فيه ندا
وعلى الغدير مفاضة سردت لها النسمات سردا
وحبابه من فوقه قد بات يلعب فيه نردأ
فسقى معاهد بالحمى قد أنبت حبا وودا
تذر الليالى فى ثرى من عنبر للمسك أهدى

(١) خلاصة الأثر ١ / ٢٣١ .

وقال الصبان^(١) يمدح شيخ السادات :

بعبير شرك . تعبق الأقطار	وبنور وجهك تشرق الأسرار
وبيمن طلعتك السعيدة طالعا	يصفوا الزمان وترحل الأكدار
وبجود راحتك الشريفة أخصبت	للعالمين منازل وديار
وإلى حمى حرم سمائك مجده	تسعى العفاة وتهرع الزوار
يادرة الدنيا وغرة وجهها	ومنار أهلها إذا ما احتاروا
ياقطب دائرة الوجود وعارفا	بشذا تقاه تهبط الأسرار
ياشمس أفلاك السكال وسيدا	دانت له الأبرار والفجار
يهنيك ما أولاك ربك من علا	دهشت لبعض صغارها الأفكار
قد أفرغ المولى عليك مواهبا	لاعد يحصيها ولا معيار
وعلى بنى العصر اصطفاك لرتبة	تركت قلوب عدائك فيها النار
السيد السند الإمام المجتبي	صدر الصدور المنتقى المختار
الجوهر الفرد الذى لم تشتمل	أبدا على أمثاله الأعصار
العروة الوثقى لمعتصم به	الآية الكبرى لمن يختار
تاج الأمائل، عين أعيان الورى	غيث السماحة ، سيبها الممدار
وابن الكرام الشم من آل الوفا	أبناء من سجدت له الأشجار
كناه مولاه أبا الأنوار إذ	من نوره تتولد الأنوار
ما جاء ليسل الخطب إلارده	من ذلك الوجه المضى نهار
هو للأحبة رحمة وعلى العدى	أسد الإله وسيفه البتار
والناس بالرتب العلية فخرهم	ولها بأبناء الرسول فخار
منح من الوهاب عز مقامها	ومواهب ما إن لها إنكار
ماذا يقول المادحون وفضلهم	نطقت به الآيات والأخبار ؟
الله فى القرآن أذهب عنهم	رجسا وطهرهم فهم أطهار

وودادهم فرض وحبهمو به تمحى الذنوب وتغفر الأوزار
وقال الشيخ عبد الله الشبراوى متشوقاً إلى مصر ونيلها في بعض
أسفاره :

أعد ذكر مصر إن قلبي مولع
وكرر على سمعي أحاديث نيلها
بلاد بها مد السباح جناحه
رويداً إذا حدثتني عن ربوعها
إذا صاح شجرور على غصن بانه
عسى نحوها يلوى الزمان مطيقي
لقد كاتب لي فيها معاهد لذة
أحن إلى تلك المعاهد كلما
أما والقدود المائسات بسفحها
وما في رباها من قوام مهتف
لش عاد لي ذاك السرور بأرضها
لأعتنقن الأهمى في عرصاتها
... الخ .

بمصر ومن لي أن ترى مقلتي مصر
فقد ردت الأمواج سائلة نهرا
وأظهر فيها المجد آيته الكبرى
فتطويل أخبار الهوى لذة أخرى
تذكرت فيها اللعظ والصعدة السحرا
وأشهد بعد الكسر من نيلها جبراً
تقضت وأبقت بعدها أنفسا حسري
يجدد لي مر النسيم بها ذكرى
والحظ غادات قد امتلأت سحرا
علا وغلا من أن يباع وأن يشري
وقرت بمن أهواء مقاتي العبرى
وأسجد في محراب لذتها شكراً

ومن قول الخشاب في يوسف بن على الكاتب ، وكان يتولى تحرير
المنشورات للفرنسيين أثناء احتلالهم لمصر :

إني رأيت أبا البرية آدما
فدنوت منه مصلياً ومسلماً
هل كان يوسف من بنيك فإننا
من ذلك في شك قريب موسم ؟

في النوم معتجراً ببرد معلم
وسألته في صورة المستفهم

تأجاب وهو مصعد ومصوب عينيه في كهيئة المستعظم
حواء طالقة ثلاثاً إن يكن ممن إلى من البرية ينتمى
... الخ .

ونستطيع أن نجتمع مجلدات من هذا الشعر الذي يرسل فيه الشاعر نفسه
على سجيته . ومعظم نتاج العصر العثماني في مصر من هذا النوع . بل إننا
نجد ما يفوق هذه الأمثلة قوة وروعة ، ورقة وسلاسة وعذوبة ، كما يتضح
من مجموعة النصوص التي أوردناها في نهاية هذا الكتاب .

* * *

ولكن الشعر في هذا العصر ابتلى بقوم دخلاء ، ظنوا لضعف شاعرهم
أنهم قادرون على أن يكونوا في عداد الشعراء إذا تكلفوا القول ، وأنفقوا
الوقت الطويل في ضروب الصناعة اللفظية . وهؤلاء الدخلاء على الشعر قلة
لا يعتمد بها ، ولا ينبغي أن تتخذ أساساً للحكم على العصر كله .

ومن هؤلاء عبد الرحمن الحميدى المتوفى سنة ١٠٠٥ هـ وله ديوان
مطبوع اسمه « الدر المنظم في مدح الحبيب » (١) الأعظم ، فهو أحياناً يضع
نصب عينيه لإيراد جميع الحروف الهجائية في البيت الواحد . مثال
ذلك قوله :

خذوا بدمى حسناً غزالا عشقتها فصرت كطل ظل بالثج في رخص (٢)
وأحياناً يلتزم الحروف التي لا تنقط ، كقوله :
أسرك دهر سره كله هم ومورد أكنار لوارده سم

(١) المطبعة المحمودية بالقاهرة سنة ١٣١٣ هـ ص ٧٠ ، ٩٥ ، ٨٣ ، ١٤٣ .

(٢) الثج ثج الماء أى سال . رخصه كمنعه أى عمله ، والرخص القربة
التي يوضع فيها الماء .

وتارة يلتزم بدء أبيات القصيدة بالحروف الهجائية على الترتيب « كقوله :

أبت هند وصى فالكرى مذقت شطا وحظى ذكا من لاجع مشخن ضغطا
بذلى قضت فالوجد زاك وعنه لا محيص بلاغوث شفى ناظرا سخطا
فالبيت الأول يبدأ بحرف الألف ، والثانى بحرف الباء ، وهكذا إلى
آخر القصيدة التى تنتهى بانتهاء الحروف الهجائية .

وله قصيدة سماها « شفاء العين بمدح النبوى » فى المديح النبوى ، عدتها
تسعة وأربعون بيتا ، كل بيت ينتهى بكلمة « العين » فكأنه جمع المعانى
المختلفة لهذه الكلمة ، وأتى فى كل بيت بما يتناسب معه فى المعنى ، شأنه فى
ذلك شأن شعراء البديعيات الذين مدحوا الرسول عليه السلام بقصائد ،
وجعلوا فى كل بيت لونا من ألوان البديع ، مع فارق وهو أن هذا المادح
اكتفى بلفظ العين على اختلاف معانيها فى كل بيت من أبيات قصيدته التى
جاء فيها :

يا مائسة القديا مكحلة العين كم من حسد فيك قد أصبت من العين
قد حزت جمالا ورقة ودلالا إذ فقت هلالا أضيا وفقت سنا العين
فالعين فى البيت الأول هى العين الباصرة ، وفى البيت الثانى بمعنى
الشمس .

وفى سنة ١١٥٨ هـ قدم إلى مصر شاعر حجازى كسب شهرة ونفوذا
فى عصره ، وهو نور الدين على بن تاج الدين القلعى المتوفى سنة ١١٧٠ هـ
وكان مغرما بالصناعة اللفظية . ومنها نوع يسمى « وسع الاطلاع » فاجتمع
به بعض الشعراء ومنهم عبد الله الإدكاوى الذى أخذ عنه هذا الفن وأفسد
به بعض شعره . ووسع الإطلاع أنواع هى :

١. — كل كلمة فى البيت تبدأ بالحرف الذى تنتهى به الكلمة السابقة ، ملا
عدا القافية . مثال ذلك :

صَبُّ بوعدك كم مظلته هاجرته هَلَّا أجرته^(١) ؟
سهران نام مسامرو ه هَجِعَا أَفلا أَمته ؟
فكلمة « صَب » تنتهى بحرف الباء الذى تبدأ به كلمة « بوعدك » وهكذا
إلى آخر البيت الأول . وفى البيت الثانى ترى كلمة « سهران » تنتهى بحرف
النون الذى تبدأ به كلمة « نام » وهكذا إلى آخر البيت

٢ - نوع يسمى « العود » وهو أن تنظم قصيدة فتقول .
جماله قد علا قدرا وجل علا ها قد سباني فلولا عاد يانعمى^(١)
ثم تعود فتأخذ من هذا البيت كلمات مناسبة ، وتنظم منها بيتا آخر
يبدأ بلفظة « جماله » وينتهى بها فتقول :
(جماله قد سباني قد جل قدرا جماله)

مثال آخر :

دلالة ياؤالة الحب زاد فاو قد عاد بالقرب ياصحبي شفى سقمى
(دلالة زاد صحبى بالقرب زاد دلالة)
٣ - النوع الثالث . أن تلتزم بدء كلمات البيت بحرف واحد مثل :
يتمنى يراك يوما يهنى يجتنى يانعا يميننا يساره^(٢)
فكل كلمة فى هذا البيت تبدأ بحرف الياء
٤ - أن تكون كل كلمة مكونة من حرف مهمل وحرف منقوط على
الترتيب ، مثل :

جميل بديع جل ذاتا بهية به زدت حبا ، فاتك بجماله^(٤)
٥ - نظم البيت مكونا من كلمات مهملة وأخرى منقوطة على الترتيب مثل :
جننت ولوعا فى هواه شغفت كم فتننت عساه يجتنى لكاله

(١ ، ٢ ، ٣) انظر ديوان الإدكاوى ورقة ٢١٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٧

(٤) ديوان الإدكاوى ورقة ٢٢٣ .

(٥ - الأدب المصرى)

٦ - نظم البيت مكوناً من حروف مفرقة . مثل :

أدم وده واردة رواه وروه وأول ودم راع ودودا وواله (١)

٧ - أن ينظم قصيدة يبدأ كل بيت منها بحرف بحيث لو جمعت هذه الحروف على الترتيب لكونت اسم الممدوح . مثال ذلك قوله :

- ١ - سيدى مذغبت عن صبك المغ رم ضاقت عليه أكناف مصر (٢)
- ٢ - يا فريد البها وحقك لا أصر بر عن أن أراك يوما بدهرى
- ٣ - داو مضناك باللقا وتكرم ياغزال النقا بقولى وجبرى
- ٤ - يا بديع الجمال يا واحد الحس من حنانا تشفى سقاهى وضرى
- ٥ - أنت أنسى ولذتى وسرورى ومرادى وكنه سرى وجهرى
- ٦ - بك هام الفؤاد فامنن عليه منك بالوصل لا ترعه بهجر
- ٧ - راقنى ما أراه فيك من الحس من البديع الذى تقسم فسكرى
- ٨ - أحلالا بعدى وأنت بوجدى لك أدرى من كل عبد وحر
- ٩ - هام لى فى وصف ما حزت يا أمه يف حتى قل نظمى ونثرى
- ١٠ - يوم عيد رؤياك بل ومحيا ك هلالى يا ذا الجمال وبدرى
- ١١ - ما لقلبي صبر سوى أن يلا قيك ومن لى حتى اللقاء بصبر

فالآبيات الأربعة الأولى تبدأ على الترتيب بالحروف : س ، ي ، د ، ي .
ومن مجموعها يتكون لقب الممدوح « سيدى » وبقية الآبيات تبدأ بالحروف
ا ، ب ، ر ، ا ، ه ، ي ، م . ويتكون منها اسم الممدوح وهو إبراهيم . ويلاحظ
أن المعانى كلها غزلية وليست من المدح فى شيء .

٨ - أن ينظم قصيدة ، ثم يدخل زيادة فى أول البيت أو فى آخره بحيث
لا يتغير المعنى وإن تغيرت القافية فى حالة ما إذا كانت الزيادة فى آخر البيت .
مثال ذلك قوله :

يا من تحملُ بذكره عُقدُ النوائب والشدائد^(١)
يا من إليه المشتكى وإليه أمر الخلق عائد
فيقول إذا جعل الزيادة في الأول :

(ياذا العلا ياربنا) يا من تُحَدِّدُ لُ بذكره عقد النوائب والشدائد
(يا سيدى يا خالى) يا من إليه المشتكى وإليه أمر الخلق عائد
أو تكون الزيادة في الآخر فيقول :

يا من تحمل بذكره عقد النوا ئب والشدائدُ (لا محالة تنجلى)
يا من إليه المشتكى وإليه أمر ر الخلق عائدُ (فى المهم المشكل)
هذه هى ضروب الصنعة التى زاو لها بعض الشعراء ومنهم الإدكاوى ،
والقلعى ، وعبد الرحمن الحميدى .

أما الشعراء الآخرون فإنهم كرهوا مثل هذا التكلف . وقد أنكر
بعض معاصرى الإدكاوى عليه هذا للذهب الذى يفسد الشعر ويجعله مجرد
صناعة لفظية ، وذكره بأساليب القدماء التى لم تعرف التكلف ، فرد عليهم
قائلًا :

كن للمعاصر خير ناصر كم للأواخر من مفاخير^(٢)
لا تحقرنَّ جديدهم كم فى جديدهم جواهر
ودع التعصب للأوا ئل يا فتى أو للأواخر
من كان منهم مبدعاً فاعقد عليه عرى الخناصر
وهذه الأبيات لا أثر للتكلف فيها .

وقد انتشر فى هذا العصر تسجيل التواريخ فى القصائد بحروف الجلل .

(١) ديوان الإدكاوى ورقة ٢٤٠ ، وهذا النوع الأخير من الصناعة عرف بقلة فى العصر
الفاطمى . مثال ذلك قصيدة الاسكندراني « ذات الدوحة »
(٢) ديوانه ورقة ٣٣٦

وبيان ذلك أن الحروف الهجائية تتكون من : أبجد ، هوز ، حطى ،
كلن ، سعفص ، قرشت ، ثخذ ، ضظغ .

أبجد : ١ = ا ، ٢ = ب ، ٣ = ج ، ٤ = د ،

هوز : ٥ = هـ ، ٦ = و ، ٧ = ز ،

حطى : ٨ = ح ، ٩ = ط ، ١٠ = ي ،

كلن : ١١ = ك ، ١٢ = ل ، ١٣ = م ، ١٤ = ن ،

سعفص : ١٥ = س ، ١٦ = ع ، ١٧ = ف ، ١٨ = ص ،

قرشت : ١٩ = ق ، ٢٠ = ر ، ٢١ = ش ، ٢٢ = ت ،

ثخذ : ٢٣ = ث ، ٢٤ = خ ، ٢٥ = ذ ،

ضظغ : ٢٦ = ض ، ٢٧ = ظ ، ٢٨ = غ ،

واستخدمت حروف الجمل أولا في عبارات نثرية يتألف من مجموع
حروفها التاريخ المقصود . وأقدم ما وصل إلينا من هذا النوع قول أحدهم
مؤرخاً سبيلاً أنشأه الوالى العثمانى بالقاهرة ، وهو ^(١) « رحم الله من دنه
وشرب » فمجموع حروف هذه العبارة بحساب الجمل يساوى ٩٦٦ وهو
تاريخ إنشاء السبيل المذكور .

وأقدم تاريخ شعري قول أحدهم في مقتل رجل اسمه محمود :

موت محمود حياة فيه للعالم رحمه ^(٢)

قتله بالنار نور وهو في التاريخ ظلمه

فالخروف التى تتألف منها كلمة « ظلمه » بحساب الجمل تساوى ٩٧٥
وهو تاريخ قتل محمود ، لأن ظ = ٩٠٠ ، ل = ٣٠ ، م = ٤٠ ، هـ = ٥
ومن هذا الوقت نجد من الشعراء من يؤرخون بعض قصائدهم .

وهناك شعراء كثيرون لم يستخدموا هذا الفن ، أو استخدموه مرات قليلة . وأكثر ما يرد التاريخ الشعري في قصائد الرثاء ، إذ كان من المستحسن عندهم أن يسجلوا تاريخ وفاة الميit . وكذلك ما ينظم للتهاني والأفراح . وقد ورد في بعض شعر المديح . أما الغزل والتصوف والهجاء فلم يرد فيه قط .

وكان يطلب من أحد الشعراء أن ينظم بيتين أو أكثر يختمهما بتاريخ بناء مسجد أو مدرسة أو قصر أو سبيل أو ضريح أو غير ذلك من المباني . وبعض الشعراء يسجل اسمه في نهاية القصيدة ، وهذا أمر عرف من قبل العصر العثماني . كما أن منهم من كان يختم بعض قصائده بالصلاة على النبي . وهذا أيضاً مما عرف من قبل .

وقد ظهر في هذا العصر ما يقرب من مائة شاعر ، وردت تراجمهم ومقتطفات من شعرهم في تاريخ ابن إياس ، والكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة ، والنور السافر في أعيان القرن العاشر ، وريحانة الألبا للشهاب الخفاجي ، وخلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر للمجبي ، وتاريخ الجبرتي .

وقد اتضح لنا أن الشعر في هذا العصر تأثر ببيئات مختلفة ، وخضع لاتجاهات متباينة ، بحيث يمكننا أن نقسمه إلى مدارس ، نتناول كلا منها بالبحث لنكشف عن خصائصها . وهذه المدارس هي :

- | | |
|------------------------|-----------------------|
| ١ - المدرسة البكرية . | ٢ - المدرسة العلوية . |
| ٣ - المدرسة الأميرية . | ٤ - المدرسة الشعبية . |

الفصل الثاني

المدرسة البكرية

ظهور فكرة الصديقية لأول مرة في تاريخ مصر الإسلامى.

لم يكن للبكرين في مصر قبل العصر العثمانى شأن كبير . فقد ذكر صاحب «الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة» (١) « أن جلال الدين البكرى أنكر عليه مال للسلطان الغورى فهم أن يعاقبه . فاستجار بصديقه عبد القادر الدشوطى الذى توسط له عند السلطان فسأحه في المال . واعتزافا بهذا الجليل وهب جلال الدين البكرى ابنه أبا الحسن الدشوطى ليلازمه ويكون في خدمته . ثم إن الدشوطى جدد مسجدا وهبه لجلال الدين ، وهو المسجد الذى مازال قائما بشارع البكرية بناحية بركة الرطلى ، والذى يحمل اسم جلال الدين .

وقال عبد الغنى النابلسى في رحلته (٢) . « إن العسكر المصرى لما ثاروا على السلطان الغورى وأرادوا خلعه ، أتوا إلى الشيخ جلال الدين وقالوا له : نحن نقيمك خليفة على المسلمين في بلاد مصر ، لأن الصديق جدك كان كذلك . فإن السلطان الغورى قد تعدى علينا وظلم ، وجاوز الحدود . فأجابهم بقوله أصبروا فإن سلطانكم قريب . ثم وقع ما وقع وجاءهم السلطان سليم خان من بنى عثمان . »

ومن السهل علينا أن ننفي هذه القصة ، لأنها لم ترد في كتب التاريخ

(١) ورقة ٣٢٢ وما بعدها مخطوط ١٢٠٦ تاريخ .

(٢) ورقة ١٨ مخطوط جغرافيا .

الموثوق بها ، فلم يذكرها ابن إياس . ومن ناحية أخرى لوجود الخليفة العباسي المعترف بخلافته . ومن ناحية ثالثة لأن المباليك كانوا يتنازعون من أجل الملك . وكان نزاعهم يقوم على المطامع الذاتية . فليس من المعقول أن يخرجوا ملك مصر من أبناء جلدتهم ويعطوه طائعين مختارين لجلال الدين البكري . ثم ذكر عبد الغنى النابلسي قصة أخرى تتعلق بجلال الدين ، وهي :

« ويقال إنه — السلطان سليم — لما دخل مصر كان الشيخ جلال الدين آخذاً بزمامه ، والشيخ أبو السعود الجارحي على يمينه ، والشيخ الدشوطي على شماله . ويقال إن هؤلاء الأولياء الثلاثة هم الذين ذهبوا إلى الشام وجاءوا بالسلطان سليم وأدخلوه إلى مصر ، وهم مشاة في ركابه . وكان يقصر المنازل لأجلهم . وقالوا له : هكذا أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . »

وهذه القصة — وإن تكن من غير شك — مختلفة ، إلا أنها تدل على أن جلال الدين كان مائلاً للسلطان سليم . وربما كان مدفوعاً إلى ذلك بما حدث بينه وبين الغوري .

وقد ذكر ابن إياس في كتابه « بدائع الزهور »^(١) — حوادث سنة ٩١٧ هـ أن الشاه إسماعيل الصفوي أرسل إلى السلطان سليم رسالة جاء فيها :

نحن أناس قد غدا شأننا حب على بن أبي طالب
يعيننا الناس على حبه - فلعنة الله على العائب
فأجابه سليم برسالة جاء فيها :

ما عيبكم هذا ولكنه بغض الذي لقب بالصاحب
كذبتم عليه وعلى بنته فلعنة الله على الكاذب

وكان ابن إياس معاصراً للحرب بين السلطان سليم وشاه إيران . وإذا كنا نرتاب في صدور هذا الشعر من سليم ، فإننا لا نرتاب مطلقاً في وجود

حائفة بكريّة أراد السلطان العثماني أن يكسبها إلى جانبه في حربه ضد الشاه الشيعي ، وفي حربه ضد سلطان مصر السنّي قانصوه الغوري . ونلاحظ أن سليم لم يذكر في شعره سوى بغض الشيعة لأبي بكر وكذبهم عليه وعلى بنته ، مع أننا نعلم أن الشيعة يبغضون كل من حال بين علي والخلافة ويكفرونه .

وعلى كل حال فقد كانت سياسة الدولة العثمانية تعمل على ترويح الخصومة ضد الشيعة ، لأن الدولة كانت في حرب مع شيعة إيران وشيعة اليمن . ثم إنها رأت بعد تنازل الخليفة العباسي للسلطان سليم بالخلافة أن تبطل مزاعم العلويين فيها . فسخرت المؤلفين في كل مكان للطعن في تعاليم الشيعة وتقنيده آرائهم . ومن هؤلاء الكتاب الذين تطوعوا لخدمة الدولة : ابن حجر الهيتمي المتوفى سنة ٩٧٤ هـ فقد ألف كتاباً اسمه « الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزنادقة » جاء في مقدمته^(١) « إني سئلت في تأليف كتاب يبين حقيقة خلافة الصديق وإمارة الخطاب . فأجبت إلى ذلك مسارعة في خدمة ذلك الجنب . فجاء بحمد الله أنموذجاً لطيفاً » . وأهل الزندقة هم الشيعة في نظر المؤلف . والباب الأول من هذا الكتاب في بيان كيفية خلافة الصديق ، والاستدلال على حقيقتها بالأدلة العقلية والنقلية . والرد على شبه الشيعة وإبطالها . والباب الثالث في بيان أفضلية أبي بكر الصديق على سائر هذه الأمة . وقد أفرغ المؤلف جهده في إبطال حجج الشيعة في خلافة علي والوصية التي يزعمون أن النبي صلى الله عليه وسلم وصى بها له .

وعلاوة على ماتقدم فإنه ألف كتاباً^(٢) آخر في مناقب معاوية . وهذا يعتبر رداً على الشيعة كذلك لأنهم يكفرون معاوية .

وقد ذكر عبد الغني النابلسي^(٣) أن السلطان سليم شيد في قناطر السباع قصرًا كبيراً ووهبه للشيخ جلال الدين . ثم إن العثمانيين منحوا شيخ البكرين

(١) ص ١ ، المطبعة الميمنية بالقاهرة سنة ١٣٠٧ هـ

(٢) تطهير الجنان واللسان من النفوس بئس معاوية بن أبي سفيان مطبوع بهامش الصواعق المحرقة (٣) الحقيقة والحجاز ٣٥ جغرافيا مخطوط

في مصر امتيازات لم تسكن له من قبل ، منها الأوقاف الواسعة . ومنها أنهم جعلوه شيخاً لمشايع الطرق الصوفية ، يعين شيوخها ، ويتنظر على أوقافها . فاستطاع شيوخ البكرين أن يبنوا القصور الفخمة على شواطئ بركة الأزبكية ، وبركة الرطلى . ويغرسوا بها الحدائق الغناء ذات النافورات الجميلة ويزودوها بالرياش الفاخرة ، ويقتنوا الخيول الأصيلة ، والجواري والعبيد . وأن يتشبهوا بالملوك في حياتهم .

وكانوا يستضيفون الأدباء والعلماء القادمين إلى القاهرة ، فتمكنوا بوساطة هؤلاء من نشر نفوذهم الأدبي وتعاليمهم من اليمن إلى الحجاز ، ومن العراق إلى الشام ، ومن مصر إلى شمال أفريقيا ، بل وفي تركيا . وكانت تحمل إليهم هدايا الملوك والأمراء والأعيان . وكانت شفاعتهم لا ترد ، وكلمتهم مسموعة عند أرباب الدولة . فانظر مثلاً إلى ما يقوله صاحب خلاصة الأثر في^(١) ترجمة زين العابدين البكري المتوفى سنة ١٠١٣ « وبلغ صاحب الترجمة في آخر أمره من الجلالة ونفوذ الكلمة مبلغاً ليس لأحد وراءه مطعم حتى خشيه حكام مصر ، وكانوا يدارونه ويتوقعون رضاه »

وانظر إلى ما يقوله مجد الأمين الشامي في كتابه^(٢) « نفخة الريحانة ورشحة طلاء الحانة » .

« السادات البكرية سادات الوجود ، وأولياء النعم الذين عرفوا بالكرم والجود . بيت كالبيت العتيق يزوره من لبي وأحرم ، ومن نال ثم عتبة بابه فقد ظفر بالحجر المكرم . ثبتت أوتاده وأطنابه ، ووصلت بأسباب السماء أسبابه . لا زحاف فيه إلا في بيوت حساده ، ولا إبطاء إلا على قلوب أضداده . حرم آمن ليس للحوادث عليه هجوم ، ولا للشياطين البغي فيه استراق ، فلذا تستريح شهبه من الرجوم . فهم نور الكون قبل أن يخلق النيران ، وقطب الدائرة قبل أن تؤمر الأفلاك بالدوران . خالصة الله من عباده أهل الصلاح ،

وتراب نعالهم كحل لعيون أهل الفلاح . مامنهم إلا فتى لثوب العز صاحب ،
وللوقار مع الصُّبا مصاحب . فإذا استوى على كرسیه فلك عليك المهابة
قبل الحاجب حاجب . بحار طمت وعلت القلل ، متمردة منخفضة الوهاد في
صوب العهاد ، فتوالت البحار خجلا منها . في جريد الدهر من مدائنهم عقود
وقلائد ، ليس إلا كلماتها شذرات وقوافيها فرائد .

وتدور تعاليم البكرين حول شخصية أبي بكر الصديق . اغترأهم يذهبون
فيه مذهب الإسماعيلية في علي . ومعلوم أن الإسماعيلية قالوا إن نور الله تنقل
من الأصباب إلى الأرحام حتى اجتمع في عبد المطلب ، ومنه إلى محمد فالأئمة
من أبناء علي . فقال البكرية إن الحقيقة المحمدية ^(١) انتقلت إلى أبي بكر
وذريته من بعده . فالصديق هو الإنسان الكامل ^(٢) . وعرفوا الإنسان
الكامل بأنه الجامع لما تفرق من الكمالات في سائر الأفراد الإنسانية ما عدا
النسبة . فهم والحالة هذه متفقون مع الإسماعيلية في نظريتهم في الإمامة التي
تقول بمثل هذا القول تماما . وذكروا في آية (رب أوزعني أن أشكر نعمتك
التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه ، وأسألك في ذريتي)
أنها حكاية من القرآن على لسان أبي بكر . فالصديق سأل الله في هذه الآية

(١) عمدة التحقيق في بشائر آل الصديق ، تأليف إبراهيم العربي ، ص ٣ وما بعدها
طبع جمعية المعارف بالقاهرة سنة ١٢٨٧ هـ

(٢) فكرة الإنسان الكامل عرفت عند الفرس في ذهابهم المذهب . والظاهر عرفه عند
اليونان باسم الإنسان الأول . ويرى بعض المفسرين أن فكرة الإمامة التي قالوا بها سابعة
عضة عرفها الإسماعيليون ، ثم أخذها المسلمون وعرفوها باسم « الإمامة الإسماعيلية » ثم
أخذها المسلمون على يد جملة إخوان الصفا . ثم عرفها الإسماعيلية . ولهذا الإمامة في الإنسان
الوجود . فأحلوا محل « السكامة المتجسدة » عند النصارى صورة « نورانية » هي الآخر المعلوم
الذي تركه الخلق في الخلق ؛ مع وضع نوع من الأركان الشجرية عليها . إن هذه الملو
الإلهي . وهذه العين هي النبي محمد ؛ هذا النور النبوي الأول الذي قالوا إن الله قال له
« كن فلو لاك ما خلقت السموات » والمطلب في « كون » الله هو « نور »

انظر الإنسان الكامل ؛ ترجمة عبد الرحمن بدوي ص ٨٧ من الطبعة الثانية . والدمعة
بالقاهرة سنة ١٩٥٠

صلاحاً خاصاً لأسرته ، أى أن يعطيهم مقام الصديقية التى تلى مقام النبوة فى الرتبة . وأتى « بنى » الظرفية الشاملة لصلاحهم ظاهراً وباطناً ، وهذا نفس ما ادعاه الإسماعيلية والشيعة عامة فى هذه الآية من أنها نزلت فى على وأبنائه . من بعده .

وقال البكريون إن الصديق الذى قال الله فى حقهِ (ولسوف يعطيك ربك فترضى) أكرم على ربه تبارك وتعالى من أن يهين ذريته بإدخالهم النار فى الآخرة . وقد قال الشيعة من قبل إن هذه الآية نزلت فى على وأبنائه . من بعده .

* * *

والصديقية عند البكرين قاصرة على ذرية (١) أبى بكر التى منحها الله له . بصفة خاصة بناء على سؤال أبى بكر . ومن ذلك نراهم جعلوا الصديقية هذه فى مقام الإمامة عند الشيعة . وهنا يظهر وجه الاختلاف بين البكرية والشيعة . فالشيعة يقولون إن ما خُص به أهل البيت إنما كان باختيار الله وبأمر منه دون أن يسأله أحد فى ذلك .

وكما أن الشيعة قالوا بانتقال الإمامة فى ذرية على بحيث لا يخلو عصر من وجود إمام يكون حجة الله فى عصره على عباده ، فكذلك قال البكرية (٢)

== وقد عرف عبدالكريم بن إبراهيم الجيلانى الإنسان الكامل بأنه القطب الذى تدور عليه أفلاك الوجود من أوله إلى آخره . وهو واحد مند كان الوجود إلى أبد الآبدين . ويقول إن الإنسان الكامل يظهر فى صور مختلفة تبعاً لاختلاف الرمان . واسمه الأصل « محمد » وله فى كل زمان اسم يلين به . ويقول إن الإنسان الكامل متقابل لجميع الحقائق الوجودية بنفسه . انظر الإنسان الكامل؛ تأليف عبد الكريم الجيلانى ٢/٦١ ، المطبعة الشرفية بالقاهرة سنة ١٣٠٠هـ . ويقول صدر الدين القنوى فى رسالته « مراتب الوجود » « الإنسان الكامل ، وبه تمت المراتب ، وكل العالم ، يظهر الحق بظهوره الأكمل على حسب أسمائه وصفاته . وهو الجامع للحقائق الحقة ، والحقائق الخلقية جملة وتفصيلاً ، حكماً ووجوداً بالذات والصفات » [انظر الإنسان الكامل ، ترجمة وتحقيق عبد الرحمن بدوى ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٥٠]

باتتقال الصديقية في ذرية أبي بكر بحيث لا يخلو عصر من وجود صديق
بكرى . قال محمد البكرى المتوفى سنة ٩٩٤ هـ .

في كل عصر منهمو سيد مؤيد بالحق ما حى الرب

وروى عن محمد البكرى أنه قال « يجلس عقبننا مع عيسى ابن مريم على
سجادة واحدة » .

ولم يقف البكريون عند نسبة الصديقية إلى أبي بكر ، بل جعلوا له
حقيقة معنوية تشبه الحقيقة الحمديّة كما سنرى . فرووا حول أبي بكر كثيرا
من الأحاديث التي تؤيد وجهة نظرهم في الحقيقة البكرية مثل حديث^(١) « بعثت
أنا وأبو بكر كفرسى رهان فسابقنى فسبقته ، ولوسبقنى لاتبعته » وهذا الحديث
ورد في كتب الشيعة مع إبدال كلمة « أبي بكر » بكلمة « على » فالله لم يبعث
محمدًا وحده ، بل بعث معه أبا بكر ، ولم يكن أحدهما يمتاز عن الآخر ، ثم أخذوا
يتسابقان نحو النبوة فسبق محمد ، وذكروا تأييدا لهذا الحديث أن أبا بكر
كان الثانى بعد الرسول في الإسلام ، وأول من آمن به وثانيه في الهجرة
وثانيه في الغار ، وثانيه في دخول المدينة ، وثانيه في الإيمان بالإسراء ،
وثانيه في الميلاد ، لأن النبي ولد يوم الاثنين وأبا بكر ولد يوم الثلاثاء .
والنبي ولد لاثني عشر ربيع ، وأبو بكر ولد لثلاثة عشر ، وثانيه في القيام
بأمر الدعوة الإسلامية ، والخليفة بعده . وثانيه في القبر وكما للقرآن من
أسرار هو فيها ثاني اثنين ! ؟ فصحبته للنبي أزلية .

وحديث معناه أن النبي لما كان قاب قوسين أو أدنى من العرش أخذته
وحشة ، فسمع في حضرة الله صوت أبي بكر فاطمأن قلبه واستأنس بصوت
صاحبه . وقالوا إنه كان بين النبي وأبي بكر إشارات أزلية لا يعرفها غيرهما

(١) العمدة ص ٩٩ . وهذا الحديث ذكر بغير إستاد . ولا وجود له في الكتب المعتمدة .
وكذلك شأن جميع الأحاديث التي أوردها صاحب العمدة .

فكان النبي يقول « يا أبا بكر ، أتدرى يوم لا يوم ؟ فيقول أبو بكر . نعم » .
ومعناه : أتدرى لما كان كذا وكذا قبل خلق الأيام ؟

وحديث « خلقت أنا وأبو بكر من طينة واحدة » وحديث « كان جبريل إذا قدم أبو بكر على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يحادثه يقوم إجلالاً للصديق دون غيره . فسأله النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال جبريل : أبو بكر له على مشيخة في الأزل . وما ذاك إلا أن الله تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لآدم حدثني نفسي بما طرد به إبليس ، فحين قال الله تعالى اسجدوا ، رأيت قبة عظيمة عليها مكتوب : أبو بكر ، أبو بكر ، مرارا ، وهو يقول : اسجد ، فسجدت من هيبة أبي بكر ، فكان ما كان » .

وروا أنه لما مات أبو بكر واستخلف عمر كان يتبع آثار أبي بكر ويتشبه بفعله . فأخذ يتردد على عائشة وأسماء ويقول لهما : ماذا كان يفعل الصديق إذا خلا ببنيته ليلا ؟ فيقال له : ما رأينا له كثير صلاة بالليل ولا قيام . إنما كان إذا جنه الليل يقوم عند السحر ويقعد انقرفضاء ويضع رأسه على ركبتيه ثم يرفعها إلى السماء ويتنفس الصعداء ويقول : آخ ، فيطلع الدخان من فيه . فيبكي عمر ، ويقول : كل شيء يقدر عليه عمر إلا الدخان . وأصل ذلك كما ذكروا أن شدة خوف أبي بكر من الله أوجبت احتراق قلبه ، فكان جلسه يشم منه رائحة السكيد المشوي . وسببه كما زعموا أن الصديق لم يحتمل أسرار النبوة الملقاة إليه .

وقالوا في حديث^(١) « أنا أعلمكم بالله وأخوفكم منه » إن المعرفة التامة تكشف عن جلال المعرفة وجماله . وكلاهما أمر عظيم جدا تنقطع دونه الغايات . ولولا أن الله تعالى ثبت من أراد ثباته وقواه على ذلك

ما استطاع أحد الوقوف ذرة على كليهما جلالاتهما . والغاية في الطرفين قد نالها الصديق فقد ورد في الحديث « ماصب في صدرى شيء إلا صببته في صدر أبى بكر . ولو صببه جبريل عليه السلام في صدر أبى بكر ما أطاقه لعدم مجراه من المائل ، ولكن لما صب في صدر النبي وهو من جنس البشرية فجرى في قناة مماثلة للصديق ، فبواسطتها أطاق جملة ومع ذلك احترق قلبه » .

ومن هنا نرى أن البكرية كفرقة صوفية امتازت عن غيرها من الفرق ، وذلك بأن أضافت إلى مفهوم الحقيقة المحمدية الصوفي عنصرا جديدا ، هو الحقيقة المعنوية لأبى بكر الصديق ، بحيث تكون هذه الحقيقة الأخيرة ملازمة للحقيقة الأولى ، ولا تمفك عنها منذ الأزل . وقد مر بنا قولهم إن صحبة أبى بكر للنبي أزلية ، أى أن الحقيقة البكرية وجدت مع الحقيقة المحمدية .

وإذا كان الصوفية يقولون إن الأولياء يتصلون بالحقيقة المحمدية فإن البكرين قالوا إن الأولياء يتصلون بالحقيقة البكرية . وقد صور لنا محمد البكرى المتوفى سنة ٩٩٤ هـ الحقيقة البكرية فى شعر كثير نذكر منه (١) :

هو الجمع فى عين الشهود بلا مرا تحلى بأنواع من الفيض بالامر (٢)
هو الملبسوت الواسع المطلق الذى تعالى عن الأوهام والذهن والفكر
هو الرحموت الجامع السكل فى العلا ومرشد أرباب الهدى سبل الذكر
هو العين من عين لعين تنقلت وعين هداة قد أفاضت على البحر (٣)

(١) ذبوان محمد البكرى ورقة ١٢٠ مخطوط ٨٥

(٢) الجمع : الحالة التى يشعر فيها الصوفى بوحدة الحق والخلق ، وفى عن نفسه وعن كل ماسوى الله . بلامرا : بلاشك . الفيض : هو تجلى الذات الإلهية .

(٣) العين : موضع تجلى الذات الإلهية . أو النور الإلهى .

هو المركز النورى فى كل حضرة

وجامع ملك الكون فى قبضة الأسر

هو الكل والكل العظيم جميعه :باطنه كالدر فى مهمه قفر
هو يتنه منه إليه مسيرها تحدث عن أسرار كل ذى قدر
هو الجامع الأسرار من آدميه ووارث خير الخلق فى السرو والجهر
ومشهد كل العالمين مقامه ورافعهم فى الله فوق ذرى الفخر
وكل ولى بعد طه وعارف فقطة ماء من بحار أبى بكر
وما زال هذا المجد فيه حقيقة

إلى أن بدا المولى أبو الحسن البكرى

ومعنى هذه الآيات أن أبا بكر اجتمع فيه الحق والخلق فتجلت فيه
الذات الإلهية ، وأصبح هو هذا العالم المتراعى الأطراف الذى لا يستطيع
الإنسان أن يحيط به أو يدرك كنهه. وهو الذى اجتمعت فيه الرحمة وأصبح
هاديا ومرشدا للناس . وهو العين أى النور الذى تنقل فى الأصلاب من آدم
وهو مركز النور الإلهى ، وفى كل مجال يظهر فيه أثر للسر الإلهى . وفيه
تركز هذا الوجود ، فهو الخلق والحق والوجود ، والصورة التى يتجلى فيها
الحق يوم القيامة تبدأ منه وتنتهى إليه معربة عن أسرار . وهو الذى
اجتمعت فيه الأسرار الإلهية من لدن آدم ، والذى ورث خير الخلق ، أى
النبي محمد عليه الصلاة والسلام . فهو يمثل العوالم كلها ، ويكسبها فخرا لاحد
له . وكل ولى وعارف بعد النبي محمد لا يغدو أن يكون نقطة من بحار
أبى بكر . وما زال هذا المجد يثقل فى ذرية أبى بكر حتى ظهر فى شخص
أبى الحسن البكرى .

وقالوا إن داوم^(١) ناموس آل الصديق وقيام عزتهم إلى انتهاء الدنيا

ثابت بقوله تعالى « في ذريتي » فإن عدتها بالجمل الكبير ألف وأربعمائة وعشرة ، وهي مظنة تمام الدنيا . وعندهم أن من أحب آل الصديق نجا من كل سوء ، ومن كل مكروه . وأن خلافتهم صدق وحق وقد نص عليها القرآن . قال مجمل زين العابدين (١) البكرى :

وحاشا الذي بالحُب والود يلتجئ إلينا يرى سوءاً وحافظه الولي خلافتنا بالحق والصدق قد أتت أدلتها عن نص ذكر مُرسل . وقال محمد البكرى إنه ورث الخلافة عن النبي :

ورثت النبي فلي من رُباه مقييل الخلافة والمسرح ومنكر آل الصديق كافر . قال : (٢)

إن الذي ينكرنا لقد أتى إحدى الكبر وكل من يعرفنا نال الأمانى وظفر وقالوا إن الألف في « ألم » (٣) تشير إلى أبي بكر ، واللام إلى الله ، والميم إلى محمد . وفي ذلك يقول محمد البكرى :

لئن كان نفر الأكرمين صحائفنا فإننا لآيات السكتاب فواتح وأطالوا القول في آية « ثانی اثنین إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه » وفي الحديث الوارد عن النبي عليه السلام حين مرض وهو « مروا أبا بكر فليصل بالناس » .

ومع أن البكرية غالوا في أبي بكر غلوا قبيحاً كما رأينا ؛ إلا أنهم طعنوا في الشيعة ، واعتبروهم جميعاً رافضة (٤) وقالوا إن الرافضى إذا أشرف على الموت يقلب الله صورة وجهه وجه خنزير ، فلا يموت إلا إذا صار وجهه كذلك ، فإذا رآه أهله فرحوا واستبشروا لأنه مات على الرفض . أما إذا لم يحدث ذلك فإنهم يحزنون ويقولون إنه مات سنياً .

(٢٤١) ديوانه ورقة ٥٠ ، ٩٨ (٣) العمدة ص ٨٧ والمراد ألم نشرح لك صدرك ، وكله آية وردت فيها « ألم » (٤) العمدة ص ٨٦

وأول شخصية بكرية ظهرت في العصر العثماني وتركت آثاراً أدبية؛ هي شخصية أبي الحسن البكري المتوفى سنة ٩٥٢ هـ وسبق أن ذكرنا أن أبا الحسن لازم الدشطوطي . وقد حدث أن زار مصر أحد كبار متصوفة الشام في ذلك الوقت وهو « رضى الدين الغزى » فأمر^(١) الدشطوطي أبا الحسن أن يأخذ عنه التصوف . ولم يلبث أبو الحسن أن استوعب تعاليم الصوفية وبخاصة ابن عربي وابن الفارض . ثم ذهب لأداء فريضة الحج واتصل بكثير من علماء الأقطار الإسلامية . ولما رجع من الحجاز زاول التدريس بمسجد والده جلال الدين ، وبالجامع الأزهر . ومؤلفاته التي وصلت إلينا يغلب عليها الجمع ، إذ هي أحاديث نبوية في موضوعات شتى . مثال ذلك « غاية الطلب في فضل العرب » و « تحفة العجلان في فضائل عثمان » و « الانتباه إلى فضائل لا إله إلا الله » ، وغيرها . وكل مؤلف من هذا يحتوى على أربعين حديثاً بإسنادها . وقد ترجم له الشعراى في ذيل^(٢) طبقاته فقال « الصوفى المحدث ، نادرة الزمان ، الشيخ أبو الحسن البكري — رضى الله عنه — أخذ العلم عن جماعة من مشايخ الإسلام والتصوف كالشيخ رضى الدين الغزى . وتبحر في علوم الشريعة من فقه وتفسير وحديث وغير ذلك . وكان له النظم الشائق في علوم التوحيد . وأطلعنى مرة على تأييده صملها نحو خمسة آلاف بيت أوائل دخوله في طريق القوم ، ثم إنه غسلها وقال إن أهل زماننا لا يتحملون سماعها لقلة صدقهم في طلب الطريق » .

وقال محمد اليمى في كتابه « السنا^(٣) الباهر » ما نصه « وقال جماعة إنه — يعنى أبا الحسن البكري — بلغ رتبة الاجتهاد ، وصنف التصانيف الكثيرة المحررة الشهيرة . منها ثلاثة شروح على المنهاج ، وثلاثة شروح على الإرشاد ، وشرح العباب ، وشرح الروض ، ومختصر الإيضاح وشرحه .

(١) الكواكب السائرة ورقة ٣١٢ مخطوط رقم ١٢٠٦ تاريخ .

(٢) ص ٥٠ طبع مصر سنة ١٣٠٢

(٣) ص ٣٨ طبع مصر سنة ١٣٠٨

وعدة متون في الفقه ، وعدة رسائل في التصوف ، وغير ذلك . وكل كتبه محررة ، ومسائلها مقرررة . وانتشرت تصانيفه في سائر الأقطار ، وانتفع بها الكبار والصغار . وأخذ عنه خلائق لا يحصون ، وتخرج به العلماء العارفون . وله نظم نضد فيه عقود الجواهر ، يقصر عنه كل أديب وشاعر . وله موشحات توحيدية لم ينسج على منوالها أحد من البرية .

ولكن ديوان شعره لم يصل إلينا . وقد أورد له صاحب السكواكب السائرة^(١) قصيدة طويلة في التصوف والحب الإلهي ، والوعظ والإرشاد وللنأجة ، نذكر منها :

أتم معاني الكائنات فأينما أنتم حلتم حلَّت البركاتُ
 لله ما أحلى قديم حديثكم ذاك الذي هو للقلوب حياة
 تحيا قلوب العارفين بذكركم والجاهلون قلوبهم أموات
 غنى الزمان بمدحك متعللا فرحاً فكل جهاته نغبات
 ومنها :

وبدا سنا مصباحكم فقلوبنا كرجاجة وصدورنا المشكاة
 وقع النداء لنا أأست بربكم ؟ قلنا : بلى وأجابت الذرات

والقصيدة كلها على هذا النمط من الرقة والسلاسة والبعد عن التكلف ، ولكن المذهب الصوفي لأبي الحسن لا يظهر فيها . ولا يستنتج من قوله :

. فأينما أنتم حلتم حلَّت البركات

أنه يدين بمذهب الحلول ، لأن أتباع هذا المذهب يقولون بحلول الله في جميع المخلوقات الطاهرة والشريرة . والمخلوقات الشريرة لا يمكن أن تكون محلاً للبركة الإلهية التي يذكرها الشاعر .

وقد نوه البكريون بشأن أبي الحسن كثيراً في كتبهم ورسائلهم ، ورووا
تلك الكرامات والخواص . واعتبروه مؤسس مجدهم الأدبي والصوفي
والاجتماعي فانظر إلى ابنه محمد البكري حين يقول :

وكل ولي بعد طه وعارف	فنقطة ماء من بحار أبي بكر
وما زال هذا المجد فيه حقيقة	إلى أن بدا المولى أبو الحسن البكري
فماز جميع الإرث وازداد أمره	به منه ما يبيديه عن شأنه ذكرى
فمن ذاك أن العين حقاً تقابلت	بعين تجلّي الحق في أحمد السر
فودت تجليها بها فتعينت	بطلعتها في الذات من دون ماستر
فأصبح مخطوب الجمال وروث الـ	كمال وحامي الحق بالبيض والسمر
وعالم هذا العالم الأكبر الذي	توسع حقاً في مراتبه الغر
وهيكل أسرار التجلّي وقطبها	ومشرق بدر السر في ليلة القدر
ولا عجب أن يطلع البدر في الدجى	بأية وقت شاءه ملك الأمر
ووارث تكليم الكليم وحائز الـ	كلام بما يبيديه في الكليم العشر
فروض ربى روض تربته التي	يفوق شذاها للمسك في طيب النشر
ولوح به رقم العلوم بأسرها	وسر نظام الكون في البر والبحر

فلم يذكر الشاعر أحداً من أجداده ، بل قصر كلامه على والده . وقال
لأنه كالبدر الذي طلع في الظلام ، ولا عجب في أن يطلع البدر في أي وقت
متى أراد الله ذلك . ويريد بالدجى خمول الذكر الذي لازم أسرته مدة من
الزمن ، ولم يتبدد إلا بظهور أبي الحسن الذي حاز إرث الصديق وأضحى
موضعاً لتجلي الأسرار الإلهية ، متعمقاً في علوم الحقيقة التي تلقاها عن
الله مباشرة كما تلقى موسى الوصايا .

* * *

ولما مات أبو الحسن خلفه في مشيخة السجادة ابنه محمد البكري الكبير
المشهور بأبيض الوجه ، المكنى بأبي بكر ، وأبي المكارم . وقد ترجم

لنفسه فذكر أنه ولد عام ٩٣٠ هـ ثم تحدث عن نشأته وحياته الدراسية واشتغاله بالتدريس والتأليف ، وماله من نظم ونثر . وردت هذه الترجمة في كتاب « عمدة التحقيق في بشائر آل الصديق » تأليف أحمد دعاة البكرين في القرن الحادى عشر ، وهو إبراهيم العبيدى المالكى الذى شغل وظيفة الإفتاء فى البحيرة . وقد رآه عبد الغنى النابلسى حينما زار مصر سنة ١١٠٥ هـ وذكره فى رحلته .

قال محمد البكرى إنه ختم القرآن فى أواخر السابعة من عمره ، وصلى به إماماً^(١) فى تراويح رمضان فى مقام السادة المالكية عند الكعبة . وهو فى الثامنة . ثم حفظ ألفية بن مالك والتنبيه لأبى إسحاق الشيرازى فى فقه الشافعى قبل تمام العاشرة . وكان مواظباً على حضور دروس والده ، فأخذ عنه التفسير والفقه والحديث . ولم يذكر أنه تعلم لأحد سوى والده .

ثم شرع فى التأليف وهو فى السادسة عشرة . فشرح كتاب الاختصار فى فقه الشافعى ، وقطعا من مؤلفات فقهية ، ورسائل كاملة فى التصوف . وزاول التدريس فى مسجد جده المشهور بالجامع الأبيض . ثم خلف والده فى التدريس بالجامع الأزهر .

ورث محمد البكرى عن والده ثروة طائلة مكنته من أن يعيش كما قال الشعرا فى عيشة الملوك فى مسكنه ومأكله ، وملبسه ومركبه ، وجواريه وعبيده . وكان الناس ينكرون على البكرين الجمع بين الغنى وحياة التصوف التى ينبغى فى نظرهم أن يكون طابعها التقشف والفقر . ولكن البكرين ومنهم محمد البكرى كانوا يرون ألا تناقض بين الغنى والتصوف . ويحتجون بقولهم^(٢) إن أبا بكر كان له ثلاثمائة وستون كرسيًا ، على كل كرسي حلة بألف دينار . وأن^(٣) عبد الرحمن بن عوف كان من أغنياء الصحابة . ونحن نعرف من

(١) إمامه الذى جائزة عند الشافعية والمالكية

(٢، ٣) عمدة من ٨٧ ، ١٢٣

التاريخ أن أبا بكر عاش في الإسلام فقيراً ومات فقيراً . فإن صحت دعواهم في عبد الرحمن بن عوف فإنها لاتصح في أبي بكر . واحتجوا كذلك بقوله تعالى « قل من ^(١) حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » وقوله صلى الله عليه وسلم « كل طيبا ، والبس طيبا ، واعمل صالحا » .

. تمتع محمد البكرى في حياته بنفوذ أدبي واسع ، وتبادل الرسائل مع الملوك والأمراء والوزراء والأعيان في كثير من أنحاء العالم الإسلامي . وكانت تصل إليه الهدايا النفيسة ، وكان مقبول الوساطة . وقد ذكره الشعرا في ذيل طبقاته وأثنى عليه كثيرا . كما ذكره عبد الرؤوف المناوى في ^(٢) طبقاته - الطبقة العاشرة فقال - « ... رزق من القبول والحظ التام عند الخاص والعام مالا تضبطه الأقلام . وكان فصيح اللسان ، ذكي العصر والزمان . يلقي دروسا في التفسير محررة موشحة بمناقشات كبار المفسرين كالزخشري وأضرابه . ويأتي في تقريره بما يدهش الناظر ويحير الخاطر . واختص في زمانه بإلقاء دروس التصوف الحافلة البديعة . ولم أر أحدا من علماء عصره كهو في صفاته وخلق مجلسه من اللغظ واللغو والغيبة . فكان مجلسه لا يذكر فيه شيء من ذلك البتة ، بل كله فوائد علمية ، إما تفسير بعض آيات قرآنية أو أحاديث نبوية . وسمعته يقول : هذا القص الواقع في وعظ زماننا يستحقون عليه القص . وكان الباشا وقاضي العسكر فمن دونهما من الأمراء والكبراء يأتون إليه ويخصونه من بين أقرانه بالزيارة مرارا وكرارا كثيرة »

وإذا كان بعض معاصريه أنكر ولايته لأنه لم ير له كرامة ، فإن البكرين اعتقدوا فيه الولاية ، ورووا له الكرامات الكثيرة . وقالوا إذا كانت لك حاجة إلى الله وأنت في أى مكان من الأرض فتوجه نحو قبره وقل « يا شيخ محمد ، يا ابن أبي الحسن ، يا أبيض الوجه ، يا بكرى ، توسلت بك إلى الله تعالى في قضاء حاجتي » فإنها تقضى ، وهى مجربة فيما زعموا .

(١) الأعراف آية ٣٢

(٢) الكواكب الدرية ، ويعرف بطبقات المناوى ورقة ٣٢ مخطوط رقم ٢٦٠ تاريخ

ويعتبر محمد البكرى أعظم شخصية بكرية ظهرت في مصر خلال العصر العثماني . فهو الذي وضع الحزب البكرى المشهور الذي انتشربين أتباع الطريقة البكرية مدة طويلة . وهو أول من اتخذ شعره وسيلة للدعاية للتعاليم البكرية . وقد ترك ديواناً ضخماً ، منه نسختان خطيتان بدارالكتب المصرية . الأولى تحت رقم ٨٥ - أدب ، والثانية تحت رقم ١٧٢٢ - أدب . وتوجد منه نسخة خطية بمكتبة بلدية إسكندرية تحت رقم ٣٥٥٢ ج ، كما أن الجامعة العربية أحضرت . شريطاً من استنبول من نسخة خطية لهذا الديوان ، رقمها ١٢١٥

ولمحمد البكرى ، عدا هذا الديوان الضخم ، مجموعة رسائل عنوانها «دستور الغرائب ومعدن الرغائب» منها نسخة خطية بمكتبة بلدية سوهاج . وقد أحضرت الجامعة العربية شريطاً من هذه النسخة تحت رقم ٩٥٤ - أدب وله كذلك بعض رسائل في التصوف . وسنقصر الكلام هنا على شعره .

شعر محمد البكرى ، عدا القليل منه ؛ في التصوف . ولكي نقف على حقيقة مذهبه الصوفي سنضع أمامنا بعض ما يكشف لنا عن آرائه الصوفية . فن ذلك قوله :

كم أناس توغلوا في الدماوى	زعموا أنهم من الأبرار
بل من العارفين بالله لكن	قسماً لإنهم من الكفار
أطلقوا وحدة الوجود وقالوا	كل شيء هو الإله الباري
يا لقوى أمالطه نصير	خاب من لم يكن من الأنصار ؟
أى شخص يقول آمنت بالله	ه ويرضى مقالة الفجار ؟
وتراهم تمشدقوا بأكاذيب	ب افتروها بالنثر والأشعار
أطرقوا الرأس حيلة لحطام	وسعوا فيه حيلة الأفكار
قائل منهمو أنا الحق وال	كل . أنا وحدة بلا إنكار

وغدوا في أثواب زور ولبس وشنار وذلة وعوار
في هذه الأبيات تعريض شديد بالاتحاديين^(١) والحلوليين^(٢) والقائلين
بوحدة الوجود . واتهام لهم بالكذب والتزييف ، والغش والخداع ، فضلا
عن الكفر والفجور . وقد كرر هذا في مواضع كثيرة من شعره . فمن
ذلك قوله :

ما حلت الذات ، بل جلت وما اتحدت بمشرق ، لا ولا المعنى بمنقسم
وقوله :

حلول محال واتحاد مخالف لوحده فالوصف فيه تلونا
وقوله :

حيرة عمت الوجود فأعمت عن سناها قوما وصحبا وآلا
فاستمع لي واستنصت الكون وافقه ما إليك انتهى وخل الخيالا
ليس في مظهر يحل حبيبي هو أعلى قدرا وأبهى كالا
لا ولا باتحاده قال قوم عرفوه حاشا لذا أن يقالا

فإذا كان محمد البكري كما ترى ينكر مذهب الاتحاد والحلول ووحدة الوجود
ويكفر أصحاب هذه المذاهب ، فبأي رأى كان يدين ؟ الواضح من شعره
أنه كان يقول بوحدة الشهود ، أي أنه يذهب بمذهب ابن الفارض مع فارق
عظيم ، وهو أن محمد البكري يقول بالحقيقة البكرية التي تنتقل في ذرية الصديق ،
والتي امتازت بها هذه العائلة عن غيرها من الناس . ولو أنه قال بمذهب الاتحاد
أو الحلول أو وحدة الوجود لفقد هو وأفراد بيته الميزة الوحيدة التي يتمتع
بها ، وذلك لأن للمذاهب السابقة تسوى بين الناس وتجعلهم كلهم متصلين
بالذات الإلهية ، فلا ميزة لأحد على أحد . وهو يريد أن يكون لبيته مكانة
خاصة وميزة لا يشاركه فيها غيره ، ألا وهي وراثته للحقيقة المحمدية والحقيقة

(١) مذهب الاتحاد ينص على أن الخلق متحد مع الحق

(٢) مذهب الحلول ينص على أن الله حال في مخلوقاته .

البكرية . وإذا كان محمد البكرى قد كفر القائلين بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود ، فإن الإسلام الصحيح يبرأ من التعاليم البكرية والقائلين بها ، والمروجين لها .

* * *

ذكرنا أن محمد البكرى كان يدين بمذهب وحدة الشهود . والمؤمنون بهذا المذهب يقولون إن الله يتجلى لكل من يخلص له في عبادته وينهى في حبه . قال محمد البكرى :

ولاحث لنا فاستغرقت كل واحد وصارت له فينا عن الآين طاويه
مقدرة سر الوجود بوحدة الشهود فلا تلقى هنالك ثانيه

والمعنى أن الذات الإلهية تجلت وتكشفت وجذبت نحوها هؤلاء المتصوفة فغابوا عن الزمان والمكان ، ولم يشعروا بوجودهم من فرط النشوة .

ويعبر محمد البكرى عن مذهب وحدة الشهود مستدلاً بقصة موسى عليه السلام حينما رأى النار وتوجه إليها فتجلى له الله سبحانه وتعالى وكلمه . قال :

جمعتني منك حتى كنت منك بما قدست فيه لموسى ذلك النادى
جعلت بالشجر المخضر نارك فاء نزلت بنورك جمعاً سرحة الوادى
فظنها المطلب المقصود فابتدرأ مشهود حتى تبدى أنك البادى
ما أنت نار ولا نور تقسمه أأحلام هيهات أنت الواحد الهادى
فامنن بكشف حجاب أنت ناسجه عليك منك وقرب كل قصاد

في هذه الأبيات إشارة إلى قوله تعالى على لسان^(١) موسى « امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجدر على النار هدى » ويقول المتصوفة

(١) سورة طه آية ١٠ .

إن الله تجلّى لموسى فى صورة النار لأنها عين مطلوبة من جهة. ومن جهة أخرى فإنها رمز القهر والمحبة ، لأنها تفتى كل ما اتصل بها . وكذلك الله يفتى كل ما اتصل به ، أى كل من تحقق من وحدته الذاتية . وهذا الفناء هو الذى يعبر عنه المتصوفة بالجمع . والنار كذلك رمز المحبة لأنها مصدر النور المحبوب لذاته .

وينكر محمد البكرى لبس الصوف والمرقعات ، لأنها لا تتفق مع ما كان عليه من غنى . قال :

وما مذهب للفيلسوف وفرقة بلبسته للصوف مذهب شرعى

* * *

ومن مصطلحات^(١) الصوفية الواردة فى شعره :

١ - الجمع والفرق : الجمع الحالة التى يشعر الصوفى فيها بوحدة الحق والخلق ، ويفنى عن نفسه وعن كل ماسوى الله . فهى حالة غيبية روحية . وعكسها حالة « الفرق » التى يكون فيها فى حالة صحو ، أى حينما يشتغل بأمور الدنيا . قال :

وأبعد الجمع عنهم فى شئوهمو ما يحجب العين من غبن ومن كدر
فالحق بالحق مرآة لشاهدهم وليس ثم سوى المعشوق للفطر

٢ - البسط والقبض : البسط هو النشوة التى يشعر بها الصوفى فى حالة فناءه بالذات الإلهية . وعكسه القبض ، وهو الضيق والتبرم الذى يقع فى حالة الصحو . قال :

وأطلقهم بسطا بكل لطيفة وقيدهم قبضا بدائرة الفنا

٣ - الطى والنشر ، وهما كالجمع والفرق . فالطى : انطواء الخلق فى الحق فى حالة الفناء ، أو الغيبة الروحية . وعكسه النشر . قال :

(١) رجعت فى شرح هذه المصطلحات إلى تعريفات الجرجاني ، وشرح فصوص الحسك
لصدر الدين القونوى .

نشر وطى حكمة قدسيه سمدى وسى ظلة رسميه

٤ — الوتر والشفع : الوتر هو الذات الإلهية . والشفع هو العالم . ويقول المتصوفة إن الذات الإلهية إذا نظر إليها مجردة عن جميع العلاقات والنسب لم يكن لها دلالة ولا إشارة إلا على نفسها . أما العالم الذى هو كثرة من صور الوجود فله إشارتان : إشارة إلى نفسه ، وإشارة إلى الذات المندرجة فى كل صورة من صوره . والحقيقة أن الوتر هو الشفع ولكنهما متغايران فى الذهن ، كما أن الواحد العددي هو عين الأعداد كلها ولكنه مغاير لها ذهنياً . وهذا الرأى الرياضى قديم ذهب إليه اليونان ، فقالوا إن الواحد أصل العدد ، وكل ما يأتى بعده فهو مندرج فيه . فالإنان عبارة عن واحد زائد واحد . والثلاثة عبارة عن واحد ، زائد واحد ، زائد واحد . وكذلك سائر الأعداد . وقد أخذ إخوان الصفا عن اليونان هذه الفكرة فقالوا إن الواحد أصل العدد ومنشؤه ، وأوله وآخره . قال محمد البكرى :

ومنه شفعه الأزهر بدا فى الخلق بالوتر

وقال :

واستغرق الشفع بالوتر المحيط ولا تترك لنفسك سهماً غير مرمى

٥ — اللاهوت والناسوت : يقول المتصوفة إن لكل موجود ناحيتين : ناحية الباطن أو الحق ويسمونها باللاهوت . وناحية الظاهر أو الخلق ويسمونها بالناسوت . قال محمد البكرى :

فلم أدر ما الناسوت أين ولا الذى تعين باللاهوت عن وصف نسبة

٦ — الفيض : تجلى الذات الإلهية . قال :

هو الجمع فى عين الشهود بلامرا تجلى بأنواع من الفيض بالأمر

وتكون بمعنى خروج شئ من شئ ، مثال ذلك قوله :

وعَظَّرَ الْأَرْجُ الْقَدَمَى حِلَّتَنَا وَفَاضَ مِنْ مُعَصَّرَاتِ الْغَيْبِ وَادِينَا
٧ - التَّعِينَاتُ : وَهِيَ مَجَالِي الذَّاتِ الْإِلَهِيَّةِ . فَكُلُّ مَا يَتَجَلَّى فِيهِ اللَّهُ
يُسَمَّى التَّعِينُ . قَالَ :

وَفِي الْعُرُوشِ وَالْأَوَاحِ النُّقُوشُ كَمَا شَاءَ التَّعِينُ فِي مَثَلٍ وَفِي مَثَلٍ
٨ - الْبَرْزَخُ : حَالَةُ مَا بَيْنَ الْفَنَاءِ وَالصُّحُورِ . قَالَ :

فَأَشْبَاحُهُمْ فِي بَرْزَخٍ مِنْ شُهُودِهِ وَأَرْوَاحُهُمْ فِي غَيْبَةِ الْقُرْبِ وَالْغَنَى
٩ - الْخَيْرَةُ : الْحَالَةُ الَّتِي يَرَى الصُّوفِيُّ فِيهَا الْحَقَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ . وَيَرَى
الْوَحِيدَ كَثِيرًا ، وَالكَثِيرَ وَاحِدًا ، وَالْأَوَّلَ آخِرًا ، وَالْآخِرَ أَوَّلًا ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ
مِنَ الْأُمُورِ الْمُتَنَاقِضَةِ الَّتِي تَوَقَّعُ النَّفْسُ فِي الْخَيْرَةِ وَتَجْعَلُهَا هَامَّةً عَلَى وَجْهِهَا ،
دَائِبَةً الْحَرَكَةَ فِي دَائِرَةِ الْوُجُودِ . قَالَ :

هَدَيْتُ بِالْغُرَّةِ مِنْ ضَلٍّ فِي طَرْتِكَ الدَّهْمَا وَحَيْرَتِي

١٠ - الْقُدُوسُ وَالسُّبُوحُ : هُمَا مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ . وَمَعْنَاهُمَا الْمُنْزَهُ ، وَإِنْ
كَانُوا يَقُولُونَ إِنَّ الْقُدُوسَ أَخْصَ فِي مَعْنَى التَّنْزِيهِ مِنَ السُّبُوحِ وَأَبْلَغُ ،
إِذِ التَّقْدِيسُ تَنْزِيهِ اللَّهِ عَنْ كُلِّ صِفَاتِ الْمُمْكِنَاتِ وَلَوْ أَزَمَهَا حَتَّى كَمَالَاتِهَا ، وَعَنْ
كُلِّ مَا يَتَوَهَّمُ وَيَتَعَقَّلُ فِي حَقِّهِ تَعَالَى مِنَ الْأَحْكَامِ الْمَوْجِبَةِ لِلتَّحْدِيدِ وَالتَّقْيِيدِ .
وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى التَّقْدِيسُ هُوَ نَهَايَةُ التَّجْرِيدِ ، وَلَا تَقُولُ بِهِ إِلَّا النُّفُوسُ الْمَجْرُودَةُ .
الَّتِي لَا صِلَةَ لَهَا بِالْأُمُورِ الْمَادِيَةِ قَالَ مُحَمَّدُ الْبَكْرِيُّ :

إِلَى الْقُدُسِ الذَّاتِيَّ وَالْمَعْنَى الرُّوحِيَّ إِلَى مَلَكَوْتٍ مِنْهُ يَظْهَرُ سُبُوحِي .
وَقَالَ :

وَقَدْ دَخَلُوا لَكِنْ بَيْوتَ وَجُودِهِمْ وَأَدْخَلَنِي الْقُدُوسُ أَيْ جَنَابُ .
١١ - السِّرُّ الْمَحِيطُ وَالسِّرُّ الْبَسِيطُ . يُطْلَقُ الْأَوَّلُ عَلَى الذَّاتِ الْإِلَهِيَّةِ ،
وَالثَّانِي عَلَى الْإِنْسَانِ قَالَ .

وَبِعِزَّةِ السَّرِّ الْمَحِيطِ مُرَكَّبِ السَّرِّ الْبَسِيطِ بَطِينَةِ وَتَرَابِ .

١٢ - النفخ ، وهو خروج شيء من شيء ، أو فيض شيء من شيء .
قال :

ولقوله ونفخت فيه آية تعطى القلوب من المني ما تطلب
١٣ - الأحدية والصمدية : الأحدية اسم للذات المجردة عن جميع
الأسماء والصفات . والصمدية نسبة إلى الصمد ، من أسماء الله تعالى . قال :
في روضة أحدية صمدية أنا لي بها مني المغنى المطرب .
١٤ - الهوية : الصورة التي يتجلى فيها الحق يوم القيامة . قال :

يا هويات صفات ظهرت في ذوات بالتجلى قهرت
١٥ - قرآن وفرقان : استخدم المتصوفة كلمة « قرآن » بمعنى الدعوة
إلى تنزيه الله . فمن دعا إلى تنزيه الله فهو قرآني . وقد ردد محمد البكري هذه
الكلمة في شعره فقال :

قرآن عرفاني الأعلى يكلمكم فاسمعوا وانصتوا يا جملة الأمم
وكذلك استخدموا كلمة « فرقان » ومعناها . لا يختلف عن « قرآن »
قال محمد البكري :

فبمعنى منه لأئمة ، ظهرت جمعا بفرقان
١٦ - النكاح : يرى المتصوفة أن أعظم اتصال جسماني بين الرجل
والمرأة هو النكاح ، إذ فيه يتوجه الرجل لإيجاد ولد يكون على صورته
ويخلفه من بعده . ولذلك شبهوا توجه الله إلى خلق آدم ونفخه فيه من
روحه ليكون على صورته ويخلفه ويرى فيه نفسه ؛ شبهوا هذا بالنكاح .
قال محمد البكري :

وعزة قد أنكحتها بكشِيرٍ وقيس لليلي صار في شرعتي بعلا
فولد ذاك البعل منها مشاهداً يعدوها شكلا ويجمعها شملا

١٧ - التابوت : وهو في اصطلاح الصوفية الجسم الإنساني . وقد ورد

ذكر التابوت في قوله تعالى « وقال لهم ^(١) نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينه من ربكم وبقيته مما ترك آل موسى وآل هرون تحمله الملائكة » والمراد بالسكينه عند المتصوفة : الحضور الإلهي ، أو الله نفسه . وفي هذا المعنى يقول محمد البكري :

وقابلك التابوت فيه بقيه يضم بها التابوت من سره شملًا .
١٨ - العارف : هو الولي أو الإنسان الكامل الذي تحققت فيه كل صفات الوجود ، فكان مظهرًا تامًا وكونًا جامعًا لها . وقلب العارف من رحمة الله ، وهو أوسع منها لأنه وسع الحق جل جلاله . ومن خصائصه أنه يشاهد الحق في كل مجلى ، ويراه في كل شيء ، ويعبده في كل صورة من صور المعتقدات . وقد وصف محمد البكري نفسه بأنه عارف الوقت ، ومخصوص الزمان . قال :

الفتى البكريّ مقدم الوغى عارف الوقت ومخصوص الزمان

١٩ - الحكمة : والمراد بها عند الصوفية التعاليم الباطنية التي اختص بها النبي محمد عليه السلام وورثها من بعده . وأطلقوا على هذه التعاليم اسم العلم الباطن . وهو عندهم علم الطريق الصوفي ، وما ينكشف للصوفية من حقائق الأشياء ، ومعاني الغيب . قال :

ينزل الحكمة في روضها غيثًا تعالى الله من ودقه
ومن خصائص الحكمة أنها تنزل على القلوب ، لا على العقول .
٢٠ - المطلق الأعلى : ومعناها الذات الإلهية . قال :

تجلى المطلق الأعلى فجلى نوره الأدوار
٢١ - ذات الذوات . ومعناها الحقيقة المحمدية . قال :

هو السر في ذات الذوات تقابلت شواهد في فيء نفس وطينة
٢٢ - الولي : الولاية عند المتصوفة أساس المراتب الروحية كلها . فكل
رسول ولي ، وكذلك كل نبي . وأخص صفات الولي المعرفة ، أي العلم الباطن .
والنبوة والرسالة تنقطعان لأنهما مقيدتان بالزمان والمكان . أما الولاية فلا
تنقطع . وقد وردت كلمة « ولي » في مواضع مختلفة من شعر محمد البكري .
قال :

فعماء يذكرنا وذلك سؤلنا فهو الولي ابن الولي ابن الولي
٢٣ - الحضرة : المجلى الذى يظهر فيه أثر إلهى من نوع خاص . أو المجال الذى
يظهر فيه فعل إلهى خاص . قال :

وانجلت آزال حضرته من شئون البدء فى الأبد
وقال :

حدثنا الواحد عن واحد عن حضرة المشهود والشاهد
وقال :

هى الروح والروح أمر خفى دق . إلا عن حضرة الرحمن
حضرة الرحمن هى مجموعة المجالى التى يظهر فيها أثر الرحمة الإلهية .

٢٤ - التخلل : هو سريان الحق فى صورة الموجودات جميعها . قال :
تخلل روحى جبه فهو شاهدى ومشهود روحى فى جميع للمشاهد
ويفسر الصوفية كلمة « خليلا » فى قوله تعالى « واتخذ (١) الله إبراهيم
خليلا » بالتخلل وهو السريان

٢٥ - أسماء الذات : قال المتصوفة إن الكون هو الأسماء التى أطلقها الله على
نفسه . وغاية الخلق عنده أن يرى الله نفسه فى صورة تتجلى فيها صفاته
وأسمائه . أو بعبارة أخرى يرى نفسه فى مرآة العالم . وإلى هذا يشير محمد
البكري فى قوله :

أُسماء الذات تجلت في ستر الأوصاف وذا الأرب
هذه أهم المصطلحات الصوفية التي أوردها محمد البكري في شعره . وقد
أخذها كلها من كتب ابن عربي وبخاصة فصوص الحكم الذي يشير إليه بقوله:
نُقشت في فصوصنا حكم ال وصف فرحنا نخير في الحكماء

وقد سبق أن ذكرنا أن البكرين أضافوا إلى جانب الحقيقة المحمدية بمعناها
الصوفي ، حقيقة أخرى هي الحقيقة البكرية . قال محمد البكري :

وأعلنت نوري في مشاهد حضرة ال جمال على أعلام أعلام ملتي
وقدست هاتيك المنازل عن سوى تنزل عرفاتي ببطحاء مكة
ومني بصديق صديق مظهر ال وجود ومرآتي وعين سريري
وما ثم إلا أن أُمري أمره وتحقيقه في نظرة أي نظرة
ولولاي ما وُلي ولي ولاية وقد وُليت هذا اللوا أوليتي
فقل لأهيل الحق قالة صادق تألي عليها بالعهود الوثيقة
عليكم بباب الله باب محمد فلوذوا به قبل انخرام المنية
وفوزوا بتقيل الثرى في رحابه ولا تنثنوا عنه بصارف شهوة
فهو في هذه الأبيات يشير إلى وراثته للحقيقة البكرية ، فأمره أمرها .
ولولاه مظهر الأولياء . ثم ناشد أتباعه ومريديه أن يلجأوا إليه ويلتقوا
حوله ، ويلوذوا ببابه الذي هو باب الله حتى يفوزوا برضى الله . وقد عني
نفسه في قوله « عليكم بباب الله باب محمد » إذ أن اسمه محمد . فن لاذ ببابه
وقبل ثراه فقد ظفر بالحسنى وزيادة ، وأصبح مقرباً من الله . وقال :

أما بالصدق والتصديق موالى حضرة الصديق
مجالى طلعة التحقيق وأهل الفيض والذكر

وفي آل أبي بكر يقول :

لهم نفحات هب نشر نسيمها
لهم ألسن عن ربهم بشئونه
لهم عزمات لو أشاروا ببعضها
لهم رحمت لو يقابل فيضها
لهم نظرات صاحبها عناية
مفاتيح أسرار القلوب وحضرة الـ
خلائف أقطاب ملوك أئمة
بنو الصديق والصديق أفضل سيد
محبه في ذمة الله آمين
فمن طيبها كل المعاهد عطروا
تحدث عنه منه فيه وتخبّر
ليذبل أو رضوى لهدوا وفطروا
ذنوب البرايا أصبحت وهي تغفر
بها الفقر يفنى مثلما الجبر يكسر
غيوب ومن أسرارهم ليس تحصر
ميامين من جدواهم وفاض كوثر
مآثره بعد النبيين تذكر
بعزمهم ويرعى ويحمي وينصر

هذه بعض خصائص العائلة البكرية. فهم أهل التقوى والورع ، وأهل العلم
الباطن . وهم أولو العزم والطول ، وأهل الرحمة الذين أودع الله فيهم أسرارهم ،
من أحبه فقد نجا من الهلاك ، وأمن على نفسه من شرور الدنيا وعذاب
الآخرة .

وأبو بكر الصديق أفضل الوارثين للنبي صلى الله عليه وسلم . قال :
عليك صلاة الله ثم سلامه يدومان ما قلب لنحوك منبعث
وآل وأصحاب ولا سيما الذي هو الصادق الصديق أفضل من ورت
ويصف محمد البكرى نفسه بأنه يضيء العالم بخلافته ، وينغيث الملهوف ، ويحمي
الضعيف ، ويكشف الخطوب ، ويفرج السكروب . وباسمه يزول البؤس ،
والضر . قال :

وإني لقدس العالم الأحدي من
وإني إذا المضطر نادى أغثته
وإني أحمي من أشاء بإذنيك
وإني كشاف الخطوب وفارج الـ
وإني سبط المصطفى أحمد الذي
إضاءة بدرى بالخلافة لألاء
وتكشف عنه بالعناية حوباء
على وتأتيه بمنك سرا
كروب وباسمي زال بؤس وضراء
شريعته يمن ويسر وسحاء

وإني من أبناء صديقه الذي بأسراره سادت أصول وأبناء
ففخر الأتباعي وخدام حضرتي وبالله أوليهم جميع الذي شاءوا
نجد مثل هذا منبثافي ديوانه . فهو لم يترك الناس ليعتقدوا فيه ماشاءوا ،
وينسبوا إليه ما يحلو لهم من الكرامات والخوارق ، بل أخذ يدعو لنفسه ،
وينوه بفضائله وخصائصه ، وما حبي به من القدرة الفائقة على إغاثة الملهوف
وحماية الضعيف . ودعا أتباعه لأن يفخروا به ويتمسكوا بأهدابه . وقد وضع
لأتباعه ومريديه أناشيد خاصة يتغنون بها في حلقات الأذكار ، وفيها تقديس
عظيم لآل الصديق . فمن ذلك قوله :

يا نفحة	نبويه	يا نفحة	بكريه
يا بهجة	أحديه	يا عزة	صمديه
يا حضرة	قدسيه	فيها الأمانى	للأريب

الغوث بالفرج القريب
يا آل صديق الحبيب

اصدق وصدق يا مريد واترك بمماراة العميد^(١)
واسلك على النهج السديد واتبع لنا الرأي الحميد
فأنا المخلص بالمزيد وأنا النجيب ابن النجيب

الغوث بالفرج القريب
يا آل صديق الحبيب

هكذا اتخذ محمد البكرى شعره وسيلة للدعاية له ولبيت الصديق . وكان
هو كرئيس حزب ديني كبير يرغب في طبع أتباعه بطابع خاص حتى يمتازوا عن
غيرهم . وهذا الطابع هو تربيتهم على حب آل الصديق وتقديسهم ، والولاء لهم في
السر والعلن ، وإخلاص الاعتقاد فيهم . ولا يتيسر ذلك إلا إذا شغلهم بمثل

(١) العميد : السيد .

تلك الأناشيد ، يضعها في أسلوب سهل عذب ، له رنة موسيقية حلوة . وكان أتباعه يحفظون هذه الأناشيد ويتغنون بها ، وينقلونها من مكان إلى مكان فذاعت وانتشرت على كل لسان . وهو يذكر بعد النفحة النبوية النفحة البكرية . وهذا طبيعي لأنه يريد أن يصرف الناس عن حب آل علي ، ويجعلهم لا يؤمنون إلا بأبي بكر وآله . فالحقيقة البكرية التي هي هدفه الأول والآخر ، والتي اجتهد في الدعاية لها وحمل الناس على الإيمان بها ، ظاهرة ظهورا واضحا في هذا الشعر وتلك الأناشيد .

وكما أن محمد البكري تأثر بكتب ابن عربي وخاصة فصوص الحكم ، فإنه تأثر كذلك بابن الفارض . فنظم في الحب الإلهي والخمرة الإلهية شعرا كثيرا نسج فيه على منوال ابن الفارض ، وأضاف إلى جانب الخمرة الإلهية خمرة أخرى هي الخمرة البكرية . قال :

وإذا أدبرت خمرة بسكرية أذن وقل لا عاش من لا يستقي
وإلى جانب الحب الإلهي حب آل الصديق .

ونجد في هذا الشعر غزلا بالآماكن الحجازية وتشوقا إليها مثل : سلع ، ورامه ، والوعساء ، وحاجر وغيرها . وهو لا يقصد بها ظاهرها ، وإنما يكني بها عن الحقيقة المحمدية . كما يذكر الكشيبي ويكني به عن المقامات المحمدية التي تشبه رمال الكشيبي في عدم القدرة على حصرها . ومثال ذلك قوله :

ذكر العذيب ورامه فتشوقا يبكي حذارا أن يقال تعوقا
لا والذي خلق النوى وقضى به لست الخلف عن أثيلات النقا
والنقا : كناية^(١) عن المقام المحمدي الذي انتقاه الله واختاره

ونجد كذلك غزلا ببعض النساء كسعاد وزينب ومي والرباب وغيرهن . وهو حين يذكر هذه الأسماء يكني بها عن الحضرة الوجودية المحتجبة بصور

(١) انظر سمر ح ديوان ابن الفارض لعبد الغني النابلسي ، وتعريفات الجرجاني

الأكوان العدمية . مثال ذلك قوله :

أدعو سمعاً ثم أدعو زينبا ها قد عشقت فقيدى أو أطلق
ويذكر الحى ويكنى به عن الروح الأعظم أو الذات الإلهية . قال :
جدد بذكر الحى عهدى وأشواقى واهتف بمن حبه عهدى وميثاقى
والربوع كناية عن مقامات العارفين ومنازلهم ، وما يجدون فيها من الحقائق
والعلوم . قال :

درت بين الربوع أسأل عنهم أين حلوا وجدتهم فى فؤادى
ويذكر حادى الأظعان ، فيريد بالحادى : الله ، والأظعان : الناس .
قال :

ويا حادى الأظعان روح بذكرهم فؤادى وقل عن ظبي رامة منشدى
والأقنار كناية عن العارفين بالله . قال :

مارأينا الأقنار تهتز بالتيب هـ دلالة وتنثى كالغصون
ويكنى بالخمر عن شراب المحبة الإلهية . قال :

فهايتها خمرة لو أنها ذكرت عند السميع لأغنته عن الراقى
وقد سبق ابن الفارض إلى هذا المعنى فقال :
ولو أن ركبا يعموا ترب أرضها وفى الركب ملسوع لما ضره السم
ويكنى بالخان عن حضرات الذات العلية . قال :

فسر معى نحو حانات ترف بها عروسها سير مشغوف ومشتاق
وقد أتى فى شعره بكثير من معانى ابن الفارض . مثال ذلك قوله :
أنا يعقوب هواها فارحموا من تفانى فى الجمال اليوسفى
وهو شبيه بقول ابن الفارض :

لو أسمعوا يعقوب ذكر ملاحه فى وجهه نسى الجمال اليوسفى

وقوله :

أو بانيتها دعى الأموات لا يتدروا من فورهم يحسبون الحشر للباقي
مأخوذ من قول ابن الفارض :

ولو نضحوا منها ثرى قبر ميت لعادت إليه الروح وانتعش الجسم

وقوله :

أو أنها جلّيت والليل معتكرا لأشرق الليل منها أى إشرقا
مأخوذ من قول ابن الفارض :

ولو خضبت من كأسها كف لأمس لما ضل في ليل وفي يده النجم
وكذلك تحدث عن الوتر والعود ، والسماع والغناء ، والشطح والرقص
وغير ذلك مما عرف به الصوفية ، فمن هذا قوله :

لم تسمع الأذن أنباء من الوتر وإنما الوتر أهدي طيب الخبر
والعود إن رن أن الصب فابتدرت دموعه فحكت صوبا من المطر
ما ذاك من طرب باللهو بل طرب بحكمة أشهدتها العين بالآثر
ونجد أمثال هذا كثيرا في شعره .

* * *

وقد سبق أن ذكرنا أنه أضاف إلى جانب الحب الإلهي حب آل الصديق ،
والتفانى في الإقبال عليهم والإخلاص لهم .. وكان يعتبر نفسه صديق زمانه ،
الوارث للحقيقة البكرية . وشعره في هذا يشبه شعره في الحب الإلهي .
انظر إلى قوله :

لا تشتغل عن شهودى إياك إياك واحذر
فكل شيء مليح منه جمالى أكبر
البدر أشرق منى وحاجب الشمس أسفر

وناسم من حديثي كل الأماجد أسكر
والله والله لولا جمال ذاتي يستر
لأحرق نيرانى أهل الوجود للعمّر
ولم يكن قط عبد لحسن وجهي أبصر
هل ظن غيري مولى من الأئمة يذكر ؟
فمن يؤمل جودي بغاية السؤل يظفر
ومن يخالف أمرى فى حضرة المقت يقبر
أحمى الذمار وإنى ليث الزمان الغضنفر
سبسط الحبيب ونجل الصديق أكرم معشر
قد فاز قومي وصحبي بذاك حالى بشعر

فهو يدعو الناس إلى ترك كل ما يشغلهم عن شهوده ، ويحذرهم من
:الانصراف عنه ، ويقول إن جماله يفوق كل جمال ، وأن البدر والشمس
طلعا منه . وحديثه مسكر ، ولولا جمال ذاته لأحرق نيرانه الدنيا وما فيها .
والأئمة كلهم لا يذكرون إلى جانبه ، ولا ينبغي لأحد أن يذكرهم . ومن
أمل جوده ظفر بمطلوبه . ومن خالفه ولم يؤمن به أصابه غضب الله ، وحققت
عليه اللعنة : وهو حاضى الناس من البلاء . وقومه وأصحابه ومحبيه هم
الفائزون . وقال :

ألذ من رشف زلال الضرب ومن مدام توجت بالحبيب
وضرب قينات بأعوادها تهيم القلب بحسن الطرب
ومن سرير الملك رقيته يبلغ العبد رفيع الرتب
ألذ من ذاك ومن ذا وذا حب بنى الصديق نخر العرب
ججاج المجد وملاكه مظاهر السر محل العجب^(١)

(١) ججاج : سادة ، مفردا ججاج .

في كل عصر منهمو سيد مؤيد بالحق ما حي الرّيب
ما أمّهُ في الكرب مَنْ أمّهُ إلا وزالت عنه كل الكُرب
فاقصّد جمهم خاضعاً سائلاً رضاهم فهو أجل القُرب
وإن يضق أمر فقل سادتي هذا بنى الصديق وقت الحَسَب^(١)

لا نجد شاعراً من ذرية أبي بكر - قبل مجل البكرى - نظم مثل هذا الشعر ، ولا اتخذ شعره وسيلة للدعاية إلى حب آل أبي بكر والإيمان بالحقيقة البكرية . فهو من هذه الناحية يعتبر مجدداً في الشعر المصري أى أنه أضاف إلى أغراضه المعروفة في عصره غرضاً جديداً هو الحب البكرى .

وقد اتخذ من نسبه المتصل بأبي بكر الصديق من ناحية أبيه ، والمتصل بالحسن بن علي من ناحية جده لأمه مجالاً عظيماً للفخر . فنظم في هذا الصدد قصائد كثيرة تعيد إلى الأذهان شعر الشريف الرضى في الفخر . ولا غرابة في ذلك فقد توفر له العنصر الذي توفر للرضى . فمن ذلك قوله :

أنا ابن أبي بكرٍ المَجْتَبَى وسبط كرام بهم أمدَحُ
بنى حسن سبط طه البشير ومَن نوره الزاهر الأوضح
به شرف البيت والركن وال حطيم وزمزم والأبطح
إذا وُزن الناس طُرّاً به فكفّة ميزانه أرجح
فتحت كنوز الهدى للعفا ة فأعطيهمو خير ما يُمنح
ولست براض وحاشاى أن يخيب مریدی فلا ينجح
أسرّ إذا أمّنى سائل فإني بإسعافه أفرح
ولى همّة فوق فرق الأثير ونفس لما فوقه تطمح
بجد لساني ذبحت العُدا ة فله سيف به أذبح

(١) المعنى : إذا وقعت في شدة فقل يا بنى الصديق ساعدوني وأعينوني فإنى مسلوب عليكم ؛ وهذا وقت المساعدة .

وَيَذْكُرْنِي الْحَلَمَ خُلِقْتُ الْكَرِيمُ فَأَعْفُو وَمِثْلِي مَنْ يَسْمَحُ
وَرِثْتُ النَّبِيَّ فِي مَنْ رُبَاهُ مَقِيلُ الْخِلَافَةِ وَالْمَسْرَحِ
وَقَتُّ بِأَعْتَابِ عِرْفَانِهِ مَقِيمًا هُنَاكَ فَلَا أُبْرَحُ

فهو هنا يفخر بنسبته إلى أبي بكر وإلى النبي صلى الله عليه وسلم .
ويقول إنه يهدي الناس إلى الحق ، وأن قاصده لا يخيب . فهو كريم يفرح
بقدوم السائلين عليه . وبعد أن قدم الفخر بحسبه ونسبه وكرمه ، أخذ
يفخر بفصاحته وقوة بيانه التي أهلك بها أعداءه . ثم فخر بحلمه وعفوه .
وانتهى من ذلك إلى أهم شيء عنده وهو وراثته للخلافة النبوية . والبكريون
يعتقدون أن النبي حينما عهد إلى أبي بكر بالصلاة بالناس إنما عهد إليه
بالخلافة . وعلى ذلك فمحمد البكري هو الوارث الوحيد للخلافة النبوية في
عصره . فهو في نحره بحسبه ونسبه ، وكرمه ، وحلمه ، وعفوه ، وصفحه ،
وفصاحة لسانه وقوة بيانه ووراثته للنبي عليه السلام يشبه تماما الشريف
الرضي من حيث المعاني والأساليب .

ومما روى عنه قوله « جدتي لوالدتي من بني مخزوم ، فولدني في قريش
ثلاثة بيوت : بنو تميم ، وبنو مخزوم ، وبنو هاشم » وقد ردد هذا في
شعره فقال :

أنا ذو المجد أثيلا وابن فياض الهبات
من بني تميم قريش صفوة العرب السراة
وذؤابات بني هاشم الغر الحماة
وزعامات بني مخزوم الصيد الكفاة
نحن بالصدق فزنا بالآمانى العاليات
فلمن يهوى هوانا كل أنواع الهبات

وبما أن الشريف الرضى يقرن الفخر بالحماسة ، فكذلك فعل محمد البكرى
فى أسلوب قوى رائع لا يكاد يختلف عن أسلوب الرضى من حيث جودة
الصياغة ونخامة الألفاظ ، فضلا عن الصور والمعانى . ومثال ذلك قوله :

وسرتُ وثغر النصر يبسم ساجحا	لهامابه وسع النفا نف طافح ^(١)
كأن سحر الجيش بالقوم زاخر	خضم وفلك الخيل فيه سواج
كأن مشار النعم أهدى لنا شذا	من المسك تذريره علينا اللواقح ^(٢)
كأن مدار الحرب حان وخيلنا	نشاوى نجيع أرسلته الجوانح ^(٣)
كأن أعادينا ولا بلغوا المنى	أكف لأسياف المنايا تصافح
ونحن ملوك الحرب والصيْدُ صيدنا	وليس لنا إلا الأسود جوارح
وفتياننا شمّ المرانين عزة	وكيف وإنّا فى السراة ججاج ^(٤)
ومقعدنا فوق الثريا جلالة	وأبصارنا من فوق ذاك طوامج
ومجد معالينا تعالى مقامه	فإن سيم مدحا لم تنله القرائح
فإن كان فخر الأكرمين صحائفنا	فإنّا لآيات الكتاب فواتح

وإذا كان محمد البكرى صادقا فى فخره بحسبه ونسبه ؛ فإنه لم يصدق فى هذا
الشعر الحماسى الذى يصور نفسه فيه فى صورة البطل المقدم الذى تهاب لقاءه
الشجعان . وذلك لأن واقع حياته لا يدل على ذلك ، فلم يكن من رجال الحرب
ولم يذكر عنه أنه قاد جيشا أو اشترك فى معركة . وإنما كان يحيا حياة دعة
وسلام ، ويعيش فى ترف ونعيم ، مشغلا بعلوم الدين والتصوف ونظم
القصائد . ومثل هذا يقال فى الحماسة عند الشريف الرضى .

وقد صبغ فخره بصبغة تصوفية . مثال ذلك قوله :

فإن أى أفق تشرقين بهذه الـ معارف إشرقا على غيره سما

(١) الهمام : السكثيف والضخم . الفائف ، جم تلفف ، أى الصحراء المتسعة .

(٢) اللواقح . الحملة بالأمطار . (٣) النجيع . الدم السائل .

(٤) شم . جم أشم وهو المرتفع . المرانين : الأنوف (٤) ججاج : جمع ججاج وهو السيد

فقلت بأفق العبد صديق وقته ومن ملأ الأدوار جودا وأنما
إمام بنى الصديق في الوقت مطلقا ومن أتقن الأسرار علما وأحكما
ومن جاء في العصر الأخير لتنتهى به رتب التدوير كيسا وتختما
فهو منبع الأسرار الإلهية ومشرق المعارف الربانية . وهو صديق وقته
هو إمام عصره . والأدوار جمع دور ، أى الوقت الذى يقوم فيه الإمام ، وهو
صاحب الدور . ويقول محمد البكرى إن الأدوار انتهت به وختمت بظهوره .

* * *

ويدخل في باب التصوف ما نظمه الشاعر في الوعظ والإرشاد وآداب المريـد
كما يراها ، مثال ذلك قوله :

مدارُ أحوالنا فى كلِّ مرتبة	حفظُ الحدود وتركُ الحظ والأرب
وأن يكون الذى يهوى مشاهدنا	مجانبا لسبيل اللهو واللعب
وأن يقوم إذا ما الليل تم له	نصف لمولاه بالإخلاص فى الطلب
يثن شوقا إلى المحبوب تحسبُه	تكلسى أثار شجائها نوحُ منتحب
مُفرغ القلب من غير الحبيب له	فى بابِه ذل مسكين ومكتب
والصوم يكسِّرُ منه حيث قدره	رب العباد ليلقى غاية الأرب
والصدق يجعله زادا لرحلته	والذكر أعظم ما يختار من سبب
يظهر السر يحلو القلب بمنحه	من المعارف سرا باهر العجب
وينزل الفيض من غيث الغيوب بما	يختاره الله من كشف بلا ريب
والله نسأله عونا لطالبنا	على أوامره فى سائر الرتب

هذه هى الآداب التى وضعها محمد البكرى لأتباعه ومريديه . المحافظة على
أحكام الدين وفرائضه ، وترك اللهو واللعب ، والإعراض عن الشهوات . ثم
القيام فى منتصف الليل للعبادة والذكر والتواجد ، والاتجاه إلى الله بكل ما
يملك الإنسان من جوارح مع إظهار الذل والمسكنة ، ثم الإكثار من الصوم

الذى يطهر النفس ، والتزام الصدق . وبهذه الأمور تستقيم حال المرید . وقد صاغ كل هذا فى شعر سلس عذب .

ومحمد البكرى يدعو فى كثير من شعره إلى التمسك بالفضائل والاعتصام بأحكام الدين ، وترك الدجل والشعوذة ، وإخلاص العبادة لله . وهذه دعاية نافعة جداً لأن عصره زخر بالمشعوذين والنصابين الذين كانوا يحتالون على أكل أموال الناس بالباطل ، ومدعى الولاية الكاذبة الذين أسقطوا عن أنفسهم الحدود فتركوا فرائض الدين وانغمسوا فى الشهوات إلى الأذقان :

ويدخل فى باب التصوف كذلك ما نظمته فى التوسل والاستغاثة بالله وبالرسول ، وما نظمته فى المديح النبوى . فمن قوله متوسلاً ومستغثاً :

إلهى إلهى أغث سائلاً فقيراً ذليلاً كثير التعب
إلهى ضاقت عليه الأمور ففرجْ بجودك كل الكرب
إلهى هذا مقام الحقيق وعندك ما يبتغى من طلب
إلهى حاشا ترد الكسير وفيما لديك تنهى الرغب

فهذه أدعية وضعتها للتابع والمريدين لينشدوها فى أوقات تعبدهم . فهى أدعية شعرية تؤدى وظائف الأدعية النثرية التى كان يضعها أقطاب المتصوفة .

ونظم بعض القصائد التى تؤدى وظائف الأحزاب والأوراد . من ذلك قوله :

أعوذ بالله الصمد من كل هم ونكد
أعوذ بالله الأحد من كل ضيق وشر
الح .

بدأ بالاستعاذة بالله من الهم والحزن والضيق . ثم أخذ يستغفر الله ويدعوه أن يحفظه من كل سوء ويجنبه كل مكروه ، ويصرف عنه الكيد والحسد . ثم أكثر من الصلاة على النبي ، وتوسل إلى الله أن يمتعه بالعيش الرغيد والحياة السعيدة .

وله سداً نبوية قصيرة لم يتعرض فيها لذكر شيء من المعجزات ، وإنما هي تصوير للحقيقة الحمديّة التي أودع الله فيها أسرارها . ثم يخلص من ذلك إلى ذكر ذنوبه الكثيرة ، ويظهر الندم والتوبة ، ويعرب عن أمله في شفاعته الرسول . ويختتمها بالتوسل والدعاء .

وله جملة قصائد في مدح أحمد البدوي تظهر فيها آراء الصوفية في الأولياء . فمن ذلك قوله :

لله جلّ جلاله بالحق أشهد أن الإله جماله للقوم أشهد
وأنا لهم رُتب السيادة والعلّ لا سيما بدويهم ذو المجد أحمد .
سر الحقيقة والخلقة والذي مصباحه من نور خالقه توقد
من ذاته القدّس العليّ ومن له كشف الجليّ ومن له التصريف يسند .
هذا الكي فلا يطاق نزله يوم الوفيّ ، هذا المثقف والمهند .

فألبدوي كما صورته محمد البكري تتمتع بوحدة الشهود ، وفنى مع الذات الإلهية فنال أسنى المراتب . وهو سر الله ، أودع فيه العلم الباطن ، وأجرى على يديه الكرامات وخوارق العادات ، والبدوي بطل مقدم وشجاع تضرب به الأمثال . ثم استطرّد فذكر بعض الكرامات التي تنسب للبدوي .

وكان محمد البكري شافعي المذهب . وله بضعة مقطوعات في مدح الإمام الشافعي وتبجيد زيارة ضريحه على سبيل التبرك . ولكن شعره في الشافعي لا يكاد يذكر إلى جانب ما نظمته في أحمد البدوي . ولعل السر في ذلك أن الشافعي لم تروله كرامات ، ولم تنسب إليه الخوارق التي رويت لأحمد البدوي . ونسبت إليه ، انظر إلى قوله في مدح الإمام الشافعي :

هو البحر لكن فاض كثر يره على البرّ حتى ما هناك مقاييس .
هو البدر بل شمس الظهيرة أشرقت فلم يبق ما بين البرايا حنادس .
أبي الله إلا أن يسود ويعتلى فليس له في المنقبات مجانس .

فهذا من اللدح الذى يقال فى أى إنسان . وأين هذا من قوله فى البدوى
سر الحقيقة والخلقة والذى مصباحه من نور خالقه توقد
لم يحاول البكرى فى مقطوعاته التى نظمها فى الشافعى أن ينوه بمكانة هذا
الإمام كواضع لأحد المذاهب الأربعة ، وكشرع له قيمته وخطره ، لأن
المتصوفة لا يهتمون بعلم الظاهر ، وإنما يهتمون بعلم الباطن ، ولا يقدر
قيمة التشريع ، وإنما يقدرون قيمة الكرامات .

* * *

وكان له بعض حساد يطعنون فيه وينالون منه ، وينكرون عليه عيشة
الترف التى كان يعيشها . وقد شكوا من هؤلاء الحساد وتوعدهم بالويل والثبور
وعظائم الأمور . فمن ذلك قوله :

يا نفوسا تود يوما ترائى نازحا عن منزلى ومسكنى
مُدْرَجًا بعد عزى وبهائى وجميع البرود فى أكفانى
إن تموتوا غيظا فوتوا سريعا حسبي الله فيكمو وكفانى
احسدوا ما استطعتم رشتكم بنبال الوبال قوس الزمان
هذه لحيتى وضعت عليها يدُ موف لها بحق الضمان
عن قريب يُدعى بياغارة الا ه فتغدو بهلككم شُجَعانى

ففى هذه الأبيات صور محمد البكرى ما انطوت عليه نفوس حاسديه من
حقده ونقمة بلغت بهم أن تمنوا له الموت . ثم قال لهم : افعلوا ما شئتم ، واحسدوا
كيفما أردتم فلن يفيدكم هذا ، بل ستموتون بغیظكم . ثم أمسك لحيته مهددا
متموعدا بحرب يشنها عليهم يكون فيها هلاكهم .

* * *

وله شعر قليل عرض فيه بعلماء عصره ، فمن ذلك قوله :
أغفل الناس علوما قدّست أحكمت عزّها أيدى الحكم

يا زمانا ضيعوه باطلا في رسوم ما بها الحق رسم
خلطوا الحق بهزل منهمو فلماذا ما استقاموا في أُمم
يطلبون العلم للدينا فهل بعدهذا الوصف في الأوصاف ذم؟
شغلهم قالوا وقلنا ولهم صبوة في «صح» أم فيه «سلم»

ففي هذه الأبيات ينمى على معاصريه اشتغالهم بالعلوم الدنيوية ،
وإنفاقهم أعمارهم في استظهار مختلف الآراء في النحو والفقه وغيرها .
ويعيب عليهم أنهم يطلبون العلم لينتفعوا به في الدنيا ، وينصحهم بترك هذه
العلوم التي لا فائدة فيها والإقبال على علوم المتصوفة لأنها هي التي تقربهم من
الذات الإلهية .

ولحمد البكرى مقطوعات قليلة في أغراض مختلفة ، بعضها في الألغاز ،
وبعضها في الإخوانيات ، وبعضها في وصف الرياض ، وأخرى في الدعوة إلى
شراب التهوية . وكلها من الشعر الجيد الذي يجري فيه على سجيته .

* * *

ولا شك في أن محمد البكرى يعتبر أعظم شاعر مصري ظهر في القرن
العاشر . فله نتاج أدبي امتاز بالغرارة والجودة . انظر إلى قوله :

هل المجد إلا عزمة قرشية تَطَامَن رَضَوَى دُونَهَا وَثِيرُ ؟
وصولة فتاك عزيز تطاولت له رثبٌ عنها السماء قصيرُ
إذا استل ما بين البواسل سيفه ترى الهام فوق الهام منه تطير
حليف المعالي رُبُّهَا وَإِمَامُهَا خَلِيقُهَا وَالْمَدْعُونُ كَثِيرُ

قد يقال إنه لم يأت بمعنى جديد في مثل هذا الفخر ، ولكن من
ادعى أن الشعراء كلهم كانوا مجددين مبتكرين في كل ما أتوا به من المعاني ؟
حسبه أنه تمثل هذه المعاني وصاغها في عبارات قوية جميلة وتراكيب عربية
مبينة تعيد إلى أذهاننا شعر القرن الرابع .

وانظر إلى قوله :

كيف النفور من الصور ؟ والحق فيها قد ظهر
حقاً ولو حققته لم تلق فيه من أثر
فاقرأ معى كتب الهوى واخفظ معى هذى السور
كى لا تحف قول الفقيه ولا يدانيك الحذر
ما كُفَّ غيرى والفقيه هـُـ وَجُودُهُ بعض السُّرِّ
إن شئت صيرت الفقيه هـُـ مُعْرِباً بين البشر
سكران لا يدري بمن عنه تَغَيَّبَ أو حضر
حيران ولهاثاً ولا فِكْرُهُ لديه ولا نظر
نسى الحرام مع الحلال ل ومن تحجب أو نظر

هذا من غير شك شعر لطيف يفيض رقة وعذوبة ، ويدل على روح
صافية ، وموهبة سامية . ولن تجد فيه أثراً للتكلف ولا إسفافاً ولا ابتدالاً .
نلس فيه سخرية لطيفة بالفقهاء . وانظر إلى قوله :

إن مُنْشِئَ الصُّورِ قد حباك يا قري
بالعيون زِينَهَا بالسواد والخور
والجبين جَمَلَهُ بالضياء والطُّرر
بالذى اصطفاك بما حَزَتْهُ على البشر
صل فتى لواحظه قد بكتك بالمطر
فى هواك طاب له ما براه من سهر

والقصيدة كلها على هذا النحو الموسيقى الجميل . وله قصائد كثيرة
تجرى هذا الجرى ، فهى من الشعر الغنائى الذى تتقبله النفس قبولاً حسناً ،
وتعرب لسماعه الآذان . وهو كلف باختيار البحور القصيرة لمثل هذا الغزل

الرقيق . وأحياناً يمزج الغزل بالحماسة ويستخدم أسلوب الحوار . وألفاظه كلها سهلة لا يحتاج في فهم معانيها إلى الرجوع إلى كتب اللغة ما عدا القليل . وله موشحات في التصوف والحب الإلهي . وله مزدوجات في الغرضين المتقدمين . وله قصائد لم يلتزم فيها نظام القافية الواحدة .

ولم يكن محمد البكري في شعره متكلفاً وإنما كان شاعراً مطبوعاً ، ذا موهبة ممتازة ، وصاحب أفكار معينة يدعو لها بين الناس . وهو شاعر ينخر شعره بالعواطف الدينية الحارة ، وأعنى بها عاطفة الحب الإلهي وعاطفة الحب البكري . وهو صاحب ذوق بياني وملكة فنية تظهر في جودة أساليبه ، وحسن صياغته للعبارات واختياره للألفاظ والبحور الموسيقية . فلا شك أن عناصر الشاعر الممتاز قد توفرت عنده .

وإذا كانت آراؤه في التصوف قد سبق إليها فيكفيه أنه صاغ هذه الآراء في أساليب جديدة ، وقربها من الأذهان ، وأذاعها بين الناس في قصائد وموشحات ومزدوجات لا غموض فيها ولا تعقيد ، بل من السهل علينا أن نفهمها فهماً جيداً . وكذلك أذاع التعاليم والآراء التي تتعلق بأبي بكر والحقيقة البكرية . وهو كشاعر يعتبر بحق مؤسس المدرسة البكرية التي امتدت من ذلك الوقت حتى العصر الحديث .

* * *

وأما أثر البيئة المصرية في شعره فيتجلى في رفضه للآراء المتطرفة كالقول بالحوال والاتحاد ووحدة الوجود . وذلك لأن البيئة المصرية تكبره التطرف .

ومن أثر البيئة المصرية في شعره استخدامه لبعض الكلمات والعبارات التي تجرى على ألسنة العامة في مصر . مثال ذلك قوله :

دنا بحبك متيم ما على من حد

فكلمة «دنا» هامية . وكذلك عبارة «ماعلى من حد» مصرية هامية .
وقوله :

ما السبب ما السبب حتى تجنيت وأسيت
فعبارة «ما السبب ما السبب؟» مصرية هامية . ولقطة «أسيت» مما
يدور على ألسنة العامة ، وهى بالفصحى : قسوت . وتكثر مثل هذه الألفاظ
فى موشحاته .

الآن قد فرغنا من دراستنا لمحمد البكرى . وبهذا تنتقل بالمدرسة
البكرية إلى القرن الحادى عشر .

توفى محمد البكرى سنة ٩٩٤ وترك أبناءهم :

١ - أبو السرور المتوفى سنة ١٠٠٧ هـ .

٢ - زين العابدين المتوفى سنة ١٠١٣ هـ .

٣ - أبو المواهب المتوفى سنة ١٠٢٧ هـ .

فأبو السرور توفى سنة ١٠٠٧ هـ وفيه يقول صاحب^(١) خلاصة الأثر
« وكان له الذوق الصحيح فى معارف الصوفية والبلاغة الكاملة فى التقرير .
وكان له اتساع فى الدنيا ومخالطة الحكام ، ومداخلة فى أمور كثيرة . ودرّس
بالخشابية . وكان ينظم الشعر ، وشعره لطيف » ولكننا لم نعثر على
شئ مما نظم .

وزين العابدين المتوفى سنة ١٠١٣ هـ وفيه يقول^(٢) صاحب خلاصة الأثر
« قام مقام أبيه من بعده ، ودرّس وأفتى . وكان فى مصر مالك أزمّة الوجهة ،
وسالك رتبة البراعة والبراعة . وكان أخوه أبو السرور المقدم ذكره من العلماء

إلا أنه لم يبلغ درجة زين العابدين في التصوف والتكلم بلسان المعرفة . وكان عالما بارعا في العربية والتفسير وعلوم البلاغة . وله شعر لطيف سائغ »

« وبلغ صاحب الترجمة في آخر أمره من الجلالة ونفوذ الكلمة مبلغا ليس لأحد وراءه مطمع حتى خشيه حكام مصر وكانوا يدارونه ويتوقعون رضاه . فلما كان ثالث شهر ربيع الأول سنة ١٠١٣ طلع إلى إبراهيم باشا بعد العصر على عادته . فأحضر السباط ثم القهوة . فلما أكلوا وشربوا خر زين العابدين مغشيا عليه ، وحمل إلى بيته فمات . هذا هو المستفيض على ألسنة المؤرخين . وروى بعضهم أن موته كان خنقا أو غيره . وأنه طرح على باب قلعة الجبل . واشتهر ذلك في دمشق فبنى عبد الحق بن محمد الحجازي الدمشقي قوله في رثائه عليه . وأبياته هي هذه :

لم يهدموا أركان مصر وإنما هدموا بقتلك قبة الإسلام
وتناوشتك يد الكلاب وطالما خضعت لعزك صولة الضرغام
فستى ثراك سجادة قدسية تهيمى عليك برجمة وسلام
ولم يبق إبراهيم باشا بعده إلا أياما قليلة حتى وقع بينه وبين عساكر مصر
فقتلوه وحملوا رأسه على رمح وطوفوا به مصر . وعوقب بذلك على الجراءة
على قتله صاحب الترجمة « وله شعر في التصوف والحب الإلهي . ومن قوله في القهوة :

إن تشرب القوة في حانها فاللطف قد حف بندمانها
حان حكي الجنة في بسطها برقة العيش وإخوانها
بمائها نفسل أكدارنا ونحرق الهم بنيرانها
لامم يبقى ولاغم إذ قابلك الساقى بفنجانها
يقول من أبصر كانونها أف على الحر وأدانها
شراب أهل الله فيها الشفا جواب من يسأل عن شأنها
كان المتصوفة في ذلك الوقت ينظمون الشعر في الدعاية لشراب القهوة
(م ٨ الأدب المصري)

معارضة لبعض الفقهاء الذين قالوا بتحريمها . وكان البكريون يقدمون في سهراتهم هذا الشراب لضيوفهم . فأخذ الشعراء والأدباء يتنافسون في نظم أمثال هذه المقطوعة ويتسابقون في ابتكار المعاني اللطيفة والصور الجميلة ويبدو أن الصوفية وجدوا في القهوة شرابا ماديا محسوسا يقابل الحمرة الإلهية التي هي من الأمور المعنوية . ولا شك في أن إفراطهم في الحديث عن الحمرة الإلهية والساقى والحنان قد ترك عندهم فراغا نفسيا هائلا ، فرأوا أن يسدوا هذا الفراغ بالإقبال على شرب القهوة في الطقوس التي تتخذ لشرب الخمر ، وقلدوا شعراء الخمر في وصفهم لها وتغنيمهم بحساسنها ومزاياها ، وما تتركه في نفوس شاربها من إبعاد الهموم والأحزان . كما ذكروا الحنان والساقى والندمان ، واستعاضوا عن الكأس بالفنجان . أضف إلى ما تقدم إطلاقهم كلمة « القهوة » على هذا الشراب وهي من أسماء الخمر ، فكانوا يقولون « قهوة البن » ومعناها حمرة البن . ويتخذونها أحيانا من قشر البن ، وأحيانا من لبه وبمرور الزمن أصبحت كلمة « قهوة » تدل على هذا الشراب المكون من الماء المعلى والبن ، ونسى المعنى الأصلي للكلمة . ولم يفت زين العابدين أن يتحدثنا عن الكانون الذي تصنع عليه القهوة ، فيقول إنها وهي فوق الكانون تنبعث منها رائحة طيبة تجعل الحمرة بجانبها شيئا محققا تعافه النفس .

وأبو المواهب البكري المتوفى سنة ١٠٣٧ هـ ، ذكره صاحب خلاصة الأثر^(١) فقال : « كان في بداية أمره مائلا إلى الخلاعة ، وكانت مجالسه مشحونة بأنواع الطرب من المسمعين وصنوف الملاهي » إلا أنه اضطر إلى ترك هذا بعد وفاة أخويه وتصدره لمشيخة السجادة البكرية . وكان بينه وبين الدين الحلي ، الأديب المؤرخ صاحب السيرة الحلبية ، مودة

أكيدة ، وهو الذى شجعه على تأليف هذه السيرة « إنسان العيون فى سيرة الأيمن المأمون » وقد أشار إلى ذلك فى المقدمة^(١) فقال « ... ولا زلت فى ذلك أقدم رجلا وأؤخر أخرى ، لكونى لست من أهل هذا الشأن ، ولا ممن يسابق فى ميدانه على خيل الرهان ، حتى أشار على بذلك وبسوك تلك المسالك من إشارته واجبة الاتباع ، ومخالفة أمره لا تستطاع ، ذو البديهة المطاوعة ، والفضائل البارعة ، والفواضل الكثيرة النافعة . من إذ سئل عن أى معضلة أشكلت على ذوى المعرفة والوقوف ، لا تراه يتوقف ولا يخرج عن صواب ولا يتعسف . وهو الأستاذ الأعظم مولانا أبو عبد الله وأبو المواهب مجمل ، فخر الإسلام البكرى الصديق » .

ولأبى المواهب ديوان اسمه « ترجمان العوارف » منه شريط بمكتبة الجامعة العربية تحت رقم ٨٣٢ - أدب ، منقول عن نسخة خطية بمكتبة جامعة استنبول . ومعظم شعره فى التصوف والحب الإلهى ، والدعاية للتعالم البكرية . وله مقطوعات فى وصف القهوة والتغزل فيها ، وفى الدعوة إلى تعاضى التبغ . فمن ذلك قوله :

يا يوم بولاق وأنسى به حكاك من شوال يومُ الهلال
وأقبل النيل جنوبا وما من عارض إلا نسيمُ الشمال
يا عارضا أوجب للنيل ما سلسله وهو طليق المجال
وقهوة تنضج مسكولا بدع فى الفنجان شكل الغزال
حبابها من فوقها مانع نفاه فهو شباك الآلى
تديرها هيفاء ممشوقة خود تثنت فى برود الدلال
كاد حجبى من أقبات نحسوه يذهب من رنات تلك الحجال
تقول للشمس وقد أقبلت تلتشى ما أنت إلا خيالى
قال الشهاب الخفاجى^(٢) « وبيت الغزال من السحر الحلال ، وهو بيت
النصيب » وكان الفنجان يحمل صورة غزال

(١) ص ٣ طبع مصطفى الحابى بالقاهرة سنة ١٢٠٨ هـ

(٢) ريجانة الألبا ص ٣١٦ .

تقدم أن أبا للمواهب كان في شبابه يميل إلى اللهو والخلاعة . يخرج مع
أصدقائه من الأدباء والشعراء إلى الحدائق والمزارع للتمتع بالهواء الطلق .
وللناظر الطبيعية الجميلة . وكان حتى بولاق في ذلك الوقت كما كان منذ عصر
للمليك من الأمكنة التي تقصد للتريض واللهو . ففي الأبيات السالفة يذكر
أبو المواهب يوما من تلك الأيام الطيبة التي قضاها على شاطئ النيل بناحية
بولاق . وإذا كان الشعراء فيما مضى ذكروا الحُر في هذه المناسبات - أعني
مناسبات اللهو والرياضة - فإن بعض شعراء هذا العصر ذكروا القهوة ووصفوها ،
وهي في الفناجين تنبعث منها رائحة جميلة يعاوها حباب لطيف . ثم أخذ
أبو المواهب يتنزل في الساقية التي قدمت له ولأصحابه شراب القهوة

وكان للبكرين حدائق ومزارع يخرجون كثيرا للتريض فيها . ولذلك غلب .
في بيئتهم هذا النوع من الشعر الذي يصفون فيه أوقات اللهو والسرور ،
حيث الرياض النظرة ذات الأشجار الباسقة ، والجداول الرائقة ، والقواكه
المختلفة . ولأبي المواهب رسالة بعث بها إلى أحد أصدقائه من الأدباء يدعوه
للرياضة معها جاء فيها « إن ^(١) مدينة بولاق هي مجتمع البحور ، ومدار فلك السرور
بفلك الجبور . طفحت بالنيل لاجزر عن جزره المديد ، واستلت سيف النهر لقطع
حروف الجروف من أقصى الصعيد » وقد أفسد أسلوبها بما استخدم فيها
من ضروب الصناعة اللفظية .

ومن قوله وربما كان في مدح والده :

أيها البكرى يا من فضله فاق كل الناس عجباً وعرباً
لى جدد يا سيدى يا مصطفى يا إماما قد حوى كل الرتب
لا رعى الرحمن من عاداكو فهو فى همّ وغمّ ونصب
وعليه الخزى فى طول الحيا ثم عند الموت يُلقى للتعب

باء بالرفض إليكم مبغض وعليه من إلهنا الغضب
في هذه الأبيات نجد التعاليم البكرية واضحة كل الوضوح . فشيخ
السجادة البكرية هو الإمام المصطفى الذي اختاره الله وخصه بكل منقبة
وفضيلة . ومن عاداه فهو رافضى استحق غضب الله في الدنيا والآخرة ولحق
الذل والتعب في حياته وبعد مماته .

ومن قوله ولعلمها في مدح والده أيضا :

ألا أيها البكرى إنك مفردٌ وفوقك أعلام المسرة تفرد
وذكرك بالمعروف شاع بلا خننا ومدحك في الأعناق درُ منضدٌ
وكل امرئ عاداك أو قصدا لأذى عليه من الرحمن خزي مؤبدٌ
ومن صدني عن مدح ذاتك سيدي فذاك أبو جهل وأنت محمد

فانظر إلى البيت الأخير وما فيه من قوة . فالمنكر لمدح والده كافر
يشبه أبا جهل في كفره وجحوده . وقد شبه والده بالنبي محمد ﷺ . وله
في مدح والده أيضا :

لدار محمد البكرى زوروا وخلّوا عنكمو ذكر السواء
محمد عقد عين الدين حقا فن عاداه في شكل الهواء
وقال :

عصابة الصديق قالوا محمد لا يضاها
له الخلافة حقا رب العباد قضاها

وقال :

عابد الرحمن أضحي قطب مصر بتحقيق
حاز فخرا وعلموا وهو فرع لعتيق

فمن هذه الأمثلة وغيرها نعلم أن أبا المواهب اتخذ من شعره وسيلة
للمعاجة الناس إلى الالتفاف حول البيت البكرى ، والتفاني في حب أفراد ،

والإخلاص لهم ، والابتعاد عن سواهم . والتحذير من معاداة هذا البيت لما
فى ذلك من الكفر الذى يؤدى بصاحبه إلى النار .

ومن قوله :

عبد الإله البكرى مواهبى الأزمان
سبط النبي الهادى المصطفى العدنان
صلى عليه ربي والآل والإخوان
مع السلام الزائد له من الديان

وله غير هذا كثير نجده منبثا فى ديوانه . وشعره سهل لطيف لا أثر
للتكلف فيه .

* * *

ومن الشعراء البكرين الذين ظهوروا فى القرن الحادى عشر : أحمد بن
عبد الرحمن الوارثى المصرى الصديق الإمام الكبير المفسر المحدث المتوفى
سنة ١٠٤٥ هـ (١) كان من الأدب فى سنامه وكاهله ، تحوم الآراء حول موارده
فتتوى من مناهله . وله نظم ونثر كما انتظمت الأزهار بعد ما انتشرت إعليناها ،
درارى الأمطار « فن نظمه قوله يمدح أحد وزراء مصر :

يا أيها المولى الوزير ومن له
من شاكر عنى يديك فإتنى
منن تحف على يديك وإنما
منن حللن من الزمان وثاقى
من عظم ما أوليت ضائق نطاقى
ثقلت مواهبها على الأعناق .
وقال :

وكم لله من نعم نعم الكون ما طرها
تذكرنا أوائلها بما تولى أواخرها

ولكن ديوان شعره لم يصل إلينا ، ولا نعرف من نظمه سوى مقطعات قليلة وردت في خلاصة الأثر .

وأحمد البكري المتوفى ١٠٤٨ هـ وهو ابن زين العابدين ^(١) كانت له انيد الطولى في تفسير القرآن ، وإليه النهاية في علوم الطريق ومزيد الإقتان ، مع كرم ينجل المزن الهاطل ، وشيم يتحلى بها جيد الزمان العاقل . وجاه عريض وتمكين ، ومكان عند الناس مكين . يستلمون أركانه كما تستلم أركان البيت العتيق . ومن مؤلفاته كتاب جعله على أسلوب « لوعة الشاكي ودمعة الباكي » سماه « روضة المشتاق وبهجة العشاق » وله شعر يدل على علو محله . وقصده الشعراء من كل ناحية ومدحوه .

ومن هؤلاء الشعراء فتح الله النحاس المتوفى سنة ١٠٥٢ هـ حيث يقول ^(٢) :

يا بنى الصديق لى	فى حبكم شأن عجيب
كل يوم منه فى لى	وفى عظمى ديب
حبكم آل أبى بك	ر به تحسى الذنوب
حبكم دينى ومن	يبغضكمو طاع مريب
غضب الله عليه	فهو بالحق كذوب
لكم الرفعة والس	طوة والخال المهيب
ذكركم عند ملوك الأر	ض تعويد وطيب
كل عصر حضرة القد	س لها منكم خطيب
ابن زين العاب	ين السيد البر الوهب
ابن من يصدع بال	حق ويعفو ويثيب
ابن من كان به القو	ث مع الغيث يصب
شاهد الحضرة واخ	تص وناجته الغيوب

(١) الخلاصة ٢٠١/١ (٢) العقود الدرية فى الدواوين الحلبية ٩/٢

واستمر الفيض لك أستاذ والفتحُ القريب
بلبل الحق لسان الـ غيب هطّال سكوب

والتعاليم البكرية واضحة في هذه القصيدة كل الوضوح . فالشاعر يقول إنه يجب آل أبي بكر حبا امتزج بلحمه ودمه . ويرى أن جهنم سبب لغفران الذنوب ، ودينه الذي يدين به . ومبغضهم كافر حق عليه غضب الله . ويقول إن الملوكة يتعوذون بذكرهم ، أي يتخذون ذكرهم تعاويذ وتأمّن يتقون بها الشرور والمصائب . وإن الله يصطفى منهم في كل عصر إماما بحيث لا يخلو عصر من وجود صديق بكرى . ثم أشاد بمناقب أحمد البكرى صديق زمانه الذي ورث الصديقية عن آبائه .

وقال: (١)

وأنت ابن صديق خير النّبِيّين خير الأواخر خير الأوّال
أأنت ابن من فضله قد آتَى على ألسن الوحى من ذى الجلال؟
أأخفى سنائك وأنت الشها ب على الرافضة أهل الضلال؟
فمن ذا يساميك أو من يدا نيك أو من يقاويك يوم النضال؟
لك الحال والقول في نحر شانيك من ذا مواض ومن ذا عوّال
فياويل أعداك إن مجلت أو قُذت الله أكبر يوم النزال

فالنحاس يقول إن أحمد البكرى منجدر من ذرية أبي بكر صديق النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، أفضل الأولين والآخرين . وأن القرآن قد شهد بفضل أبي بكر . ثم عجب من الرافضة أهل الضلال الذين ينكرون مكانة البكرين . ويجب أن نلاحظ أن الشاعر لم يذكر « الرافضة أهل الضلال » عبثا ، وإنما جاء تعريضه بهذه الطائفة لوجود قوم يتعصبون لآل على ويرون أنهم أحق بالتقديم من البكرين ، وينكرون التعاليم البكرية . والأبيات التالية تعريض شديد جهّلاء الخصوم ، وإشادة بمناقب الممدوح وفوة بأسمه

وعظيم فتكه بأعدائه . وقد يتبادر إلى الذهن من قول الشاعر « يوم الزوال »
أن حروبا نشبت بين البكرين وخصومهم ، ولكن الواقع غير ذلك . وقال :

أبى الله إلا أن يكون لك البقا وشايبك إلا أن يكون له الرغم
وعلمك إلا أن يكون مجسدا فأنت لسان العلم ما نطق العلم
وما الويل كل الويل إلا لحاسد عرايين مجسد كلها في العلاشم
ذوى صاحب الغار الذى أنت منهمو

ذوى الصديق إن قالوا ، ذوى العزم إن هموا
عصاة ترب المصطفى أنجم الهدى عليكم سلام الله ما نجم النجم
دعوا خصمكم يكفيه في يوم بعثه فإن إله العالمين له خصم

في هذه الأبيات تعريض بخصوم الممدوح الذين كفروا بالله بسبب عدم
إيمانهم بالتعاليم البكرية التى تجعل حب آل أبى بكر أساسا لصحة إسلام
المسلم . وحسب هؤلاء المنكرين أن الله سيكون خصما لهم يوم القيامة ،
وأن مصيرهم سيكون فى نار جهنم . وأشاد بفضائل البكرين بنجوم الهدى
وأئمة الدين .

* * *

أما ديوان أحمد البكرى فلم يصل إلينا، وإعما وصلت إلينا بعض مقطوعات
من شعره ، نذكر منها على سبيل المثال قوله يمدح السلطان مرادا

آل	عثمان	هم	دولة	إلى	المعاد ^(١)
عمر	الله	بهم	كل	أقطار	البلاد
وحباهم		سطوة	دائما	بين	العباد
ومحبا	الله	بهم	كل	أرباب	العناد

(١) التهمة الزهية ورقه ٥٠ مخطوط ٢٢٦٦ تاريخ .

كم أزالوا ضيغها عن سبيل الحق حاد
وأبادوا عسكر الرفض عن حسن اعتقاد
خلف عن سلف سلكوا طرق الرشاد
ما تولى ماجد منهمو إلا وساد

نظم أحمد البكري هذه القصيدة عقب انتصار السلطان مراد على دولة إيران
الشيعية . وكان من الطبيعي أن يطرب الشاعر البكري لهذا الانتصار الذي
قضى على الرفضية . ونوه بعقيدة أهل السنة التي يدين بها العثمانيون .

وربما كانت هناك دوافع نفسية هيأت الشاعر لنظم هذه القصيدة وغيرها
مما عسى أن يكون قد نظمها في هذا المقام . فقد مر بنا في مدائح النحاس له
تعريض بخصومه من الرفضية أهل الضلال . فأراد الشاعر أن يروي غليله من
هؤلاء الخصوم ، فمدح السلطان مراد ، وأظهر الشجاعة بهزيمة الرفضية . ولن
يستطيع خصومه بالطبع أن يردوا عليه في تلك المناسبة .

ومن شعره :

أحن إذا جُنَّ الظلام تشوقاً إلى زمن بالقرب زاد تألقا
وأقطع ليلى ساهرا متفكرا لعل زمان الأنس يسعف باللقا

وقد أولع بنظم الألغاز ، وكان له فيها الباع الطويل ، فمن ذلك قوله

غزالة في بردها رافله تقتنص الأسد من القافله
في حرم الأمن وقد خلتها قاعة بالفرض وبالنافله
قلت لها رقي فقالت لمن كأنها عن مطلبى غافله
ثم انثنت تلغز لي باسمها لغزا به أفكارنا كافله
ما اسم خماسي وتصنيفه شبه بدور لم تكن آفله
في سنة المختار خير الوري بيانه وهي له شاملة

في سنة نبه - مستيقظا وإن تشا في سنة كامله
وهذه المقطوعة تمتاز بالسهولة والوضوح والبعد عن الصنعة اللفظية .

ومحمد زين العابدين البكري المتوفى سنة ١٠٨٧ هـ وفيه يقول صاحب
خلاصة الأثر^(١) « كان فصيح العبارة، طلق اللسان، كثير الفوائد، جم النواذر
وكانت الولاية ظاهرة عليه مع الدين المتين، والعقل الكامل، والتظاهر بالنعمة
في الملبس والمأكل والخدمة . وكان من أحسن الناس خلقاً وخلقاء، مبعجلاً عند
الكبراء والوزراء، ذاجاه عريض، معتقدا عند عامة الناس وخاصتهم، مسموع
الكلمة، مقبول الشفاعة، يرجع إليه في مشكلات الأمور . اشتغل بطلب
العلوم وأتقنها، وبرع في كثير من الفنون سيما علم التفسير والحديث . وكان
له في علوم القوم وأصول التصوف قدم راسخ . وأقبل على التدريس إلى أن
صار رئيس البيت البكري . فكان يدرس على عادة أسلافه في الجامع الأزهر
في الليالي المشهورة بكليلة المولد والمعراج والنصف من شعبان . ثم لما كبر ترك
ذلك كله واستقل بالإفادة في بيتهم المعمور . »

وقد نزل في ضيافته كثيرون من الأدباء والعلماء الوافدين على مصر، نذكر
منهم المحبى والد صاحب خلاصة الأثر، وقد ألف كتاباً عن رحلته إلى مصر
وكان المحبى متمصباً للبكرين فسكتب عن محمد زين العابدين فصلاً جاء فيه « فرع
غصن الدوحة البكرية، وفن الشجرة الطاهرة الصديقية التي لم تزل من البركة
والسمو في النماء، أصلها ثابت وفرعها في السماء . رونق الليالى والأيام، وتاج
رأس العلماء الأعلام . بهجة الجميع ورواء حسنها البديع . من أضحت له في العلوم
الحقيقية الرتبة الشامخة، وفي المعارف الإلهية القدم الراسخة . ولولم يكن له من
عموم الشرف إلا خصوص هذه النسبة لكفاه ذلك في الفخر وعلو الرتبة .
وناهيك فخراً . بأنه من ذرية من اختاره الرسول للصحبة والمصاهرة، واصطفاه

للخلافة على ملته وشريعته الطاهرة . فيحق لأهل السنة والجماعة أن يطوفوا
ويسعوا إلى هذا البيت في كل وقت وساعة .
كما ذكره إبراهيم بن عبد الرحمن الخياري المدني في رحلته إلى مصر
بمثل ما تقدم .

وقد ترك محمد زين العابدين ديواناً اشتمل - كما يقول صاحب خلاصة الأثر
على نفائس القصائد والموشحات ، والمقاطيع والألغاز . ولكن ديوانه لم يصل
إلينا ، بل وصلت إلينا مجموعة من شعره في كتاب ألفه أحد أتباعه : المسمى
بدر الدين ، وهو كتاب « المجاز في رحلة محمد زين العابدين إلى الحجاز » فن
هذه المجموعة قصائد في التصوف والحب الإلهي . ومنها قصائد في الدماية لآل
أبي بكر . مثال ذلك قوله :

ونحن حماسة الحى والحال شاهد	بمشهدنا الأعلى عن الحق بالحق
إذا جردت أسيافنا بمجالها	يشب لظاها في دجى النقع كالبرق
وأسهلنا قتالة فهى لا تذر	عدوا يعاديننا بجهل ولا تبق
عتيق العتيق الجد أفضل صاحب	خليفة طه المصطفى أشرف الخلق
فسلم لنا تسلم ولا تلك منسكرا	فيوقعك الإنكار في المحو والخرق
وإن غرلك الشيطان يوما فلا تتقف	بموقفنا نرريك في أضيق الطرق
نصحتك فاسمع إن أردت نصيحة	ودع غمك طيش النفس والكبر بالحق
وخالف هوى النفس الذميمة واتبع	هوانا ولا تنس هوانا مع الصدق
وكن عبد حق مخلصا في ودادنا	تنال الذى تهوى وتظفر بالعتق

فالأبيات الأولى في الحماسة وتهديد الخصم بالقتل والإفناء ثم تليها
بقية القصيدة عن جده عتيق ، وما خصت به ذريته ، ووجوب الاتقياء
لآل الصديق ، والإيمان بالتعاليم البكرية التى تدعو إلى حب البكرين ،
والإلتفاف حولهم ، وعدم التصدى لهم بالخصومة التى تؤدى بها إلى
نار جهنم . ومن قوله :

فنحن بنى صديق أشرف مرسل
مشاهدنا جلت فجّلت بنورها
جَاهِد تشاهد من سناها أشعة
تدلّت بنور الفضل من قدس البقا
همورفتى فى حضرة العز والتقى
أُتِمّت بهم فى مركز الجمع مفردا
أنا وارث الأسلاف لى بسلافهم
وأكرم من أسدى الأمان خائف
مرايا مزاياها لكل مكاشف
تخير فى أوصافها كل واصف
إلى عين أعيان حماة خلائف
وندمان حانى من دهور سواف
أهز بسكر الشكر فيهم معاطف
مقام تعالى فوق أعلى الرفارف

ومنها :

فن نور شمس الأصل وصلى محقق
فطف شرق أقطار البلاد وغربها
لنسمع ما تنبى بصدق هوائى
وقد نشرت بالمكرمات صحائفى
فى الأبيات الأولى يحدثنا عن الحقيقة البكرية التى ورثها عن آبائه الذين
كانوا مأمّن الخائفين . ويذكر أن وراثته للحقيقة البكرية جعلت له مقاما
ممتازاً عند الله وعند الناس . وفى الأبيات الأخيرة ينوه بقوته وبأسه وهيبته
التي خصه الله بها حتى غدا كالسلطان الجالس على عرشه يسمع له ويطيع أمره .
وقد ردّد هذه الآراء فى معظم شعره . فانظر إليه حين يقول :

إنى محمد زين العابدين أبى وثانى اثنين جدى صاحب الهادى
وحين يقول :

نحن قوم من آل صديق طه
خلفاء عنه بحال وقال
مجدنا قد علا على فرق فرق
فتمسك بنا تعز وتسعد
وحين يقول :

وأنا ابن زين العابدين محمد
جدى عتيق والعتيقة مشربى
قد طبّت فى روض المعارف مغرسا
من كأسها خمر الحقائق تحتسى

وحين يقول :

واسجد بحراب الشهود واقترّب لنا بنا ولا تخف من مكرب
واسلم وعد مسلما بمزّة وادخل الحان بكرنا يا بكرى
وارو الحديث عن عتيق راحنا لجذك العتيق على القدر
أنا الفتى وابن الفتى بلا مرا جدى أبو بكر صديق الطهر

وهكذا اتخذ شعره وسيلة للدعاية للبيت البكرى كما فعل غيره من
لدعاة والصديقيين. وله قصائد في الشكوى من أهل العناد والضلال. مثال
ذلك قوله :

ضلت عقول أهل العناد عن سبيل أهل مودتك
سلكوا طريقا في الفساد تبعدهم عن حضرتك

ركبو جواد غرورهم
وتطاولوا بفجورهم
وتفصبوا في زورهم

وبغوا على أهل الرشاد الصادقين بخدمتك

كل يقول أنا أنا
بالجاه قد نلت المنى
وأظنهم نالوا العنا

بالزيف عن طرق الفساد ووقعهم في شدة

فأميرهم ومشيرهم
وكبيرهم وصغيرهم
وجليلهم وحقيهم

ظل وللظل النفاذ ولاك البقاء بقدرتك

... الخ .

وهذا من الشعر العذب الرقيق .

* * *

ننتقل بعد ذلك إلى القرن الثاني عشر لنتابع الدراسة لشعر البكرين .
كان يعيش في أول القرن من شيوخ البكرين : زين العابدين . وقد
نزل عبد الغني النابلسي الذي زار مصر سنة ١١٠٥ هـ في ضيافته ، وتحدث
عنه كثيرا في كتابه الذي ألفه عن رحلته واسمه « الحقيقة والمجاز في الرحلة
من الشام إلى مصر والمجاز » فقال ^(١) « . . . ثم لم نزل سائرين إلى أن وصلنا
إلى منزل الهمام ، بركة الأنام . الشيخ زين العابدين البكري الصديقي فتلقانا
بصدره الرحيب ، وجلسنا عند حضرته حصرة من الزمان في مجلسه المظلل
على بركة الأزبكية ذات الروشح والريحان ، التي فيها نفحة من نفحات الجنان .
وتذاكرنا معه في بعض المسائل العادية ، والمطارحات الأدبية ، والقصائد
الشعرية . واجتمعنا هناك عنده بقرينينا وزينا الفاضل السكامل محمد أمين ^(٢)
الحبي الشامي . وبصديقتنا الفاضلة الأديبة الشيخ شادين بن فتح الله وقد
أنزلنا الشيخ في دار لصيق داره ، بحيث لم نخرج عن ظله وجواره » .

وقال في موضع آخر ^(٣) . « . . . وكان الشيخ زين العابدين قد
دعانا في ذلك اليوم إلى ضيافته ، وكان المجلس حافلا بأفاضل العلماء وأعيان
الكبراء . وحضر السماع وتحركت الآلات ، وسكنت النفوس والأصوات .
ولم نزل في ابتهاج وسرور ، ومثالة وحضور حتى مدت الموائد وجرت
العوائد . وكان ذلك في المجلس المظلل على بركة الأزبكية . ثم بعد صلاة
المغرب بالجماعة فتح باب هاتيك القاعة . فدخلنا من دهليز مفروش بأنواع
الأحجار ، وقد أوقدت الشموع حتى كان ذلك الليل كأنه النهار . فوصلنا

(١) ورقه ٩١ مخطوط ٣٣٤ جنيدية .

(٢) هو صاحب خلاصة الأثر .

(٣) ورقة ١٠٢ .

إلى ميدان مفروش بالرخام والمرمر في ألوان كأنه قلائد العقيان . وهناك
أيوان يقابله آخر أوسع من صدر الكرام ، وأجل من صفحات الوجوه ،
وأعطر من الزهر في الأحكام . ورأينا الثريات من القناديل المشعولة ما تبقى
بهبجته النفوس والعيون مشغولة . وانطلقت مباخر العود ، وقامت مواسم
الشهود . ونادى لسان الحال حين خاطب وقال :

يا صاحب العودين لا تهملهما حرّكْ لنا عوداً وحرّقْ عودا
إلى أن قطعنا حصّة من مسافة الليل ، وتقلص ضوء الثريا فشمّر للغيب
الذيل ، فقدمت المآكل السكريات ، والحلاوات الشهيات . ثم قدم العود
والعنبر المشهور ، وانهلّ ماء الورد من تحت غمام البخور . وقد تفرق الجمع
ووقف نور اللمع .

وقال في موضع ثالث (١) « . . . نزلنا إلى مجلس الشيخ زين العابدين
حتى صلينا الظهر ، ثم ركبنا وسرنا معه إلى دارهم الأولى التي كان يسكنها
السادة البكرية سابقاً بالقرب من قناطر السباع ، ذات قصور عالية ، أرخصت
غيرها وهي غالية . ورياض أنيقة ، وكيفما التفت وجدت حديقة . وفيها
مجلس مطل على بركة الفيل ، كل كثير من البلاغة في وصفه قليل . لطيف
الأرجاء ، هو لنور السكّال معتمد وملجأ . يحيط به شبكات من الخشب
المدهور ، مطلة على حوض من الرخام الملون بفنون . وعلى حافة ذلك الحوض
شكل رقعة الشطرنج من الحجر السماقي والرخام . »

« ثم دخلنا في تلك الدار إلى بيت الولي العارف بالله تعالى الشيخ
جلال الدين البكري الصديقي — رضى الله عنه — وهو الذي كان يسكنه
في أيام حياته . وتبركنا به وبآثاره القديمة ، ومعاهده العظيمة . ودخلنا
إلى قاعته التي هناك المسماة بقاعة التجلي . فإن الشيخ جلال الدين المذكور .

فتح عليه فيها لما كان ملازماً للخلوة والعبادة والعزلة بها ، وهي مقفلة لا يدخلها أحد إلا القليل . ففتحت لنا ودخلنا إليها مع الشيخ زين العابدين ، فرأيناها قاعة صغيرة جداً بإيوانين متقابلين ، وهي لطيفة البناء ، طريقة الفناء ، بها النور الساطع ، والسر اللامع القاطع .

ولا شك في أن عبد الغنى النابلسي قد أعطانا فكرة واضحة عن بيئة البكرين في القرن الثاني عشر ، وحدثنا عن الندوات العلمية والأدبية التي كانت تعقد في قصورهم ، وتضم عدداً من رجال العلم والأدب . وفي رحلته قصائد كثيرة من نظمه ونظم غيره من الشعراء في مدح زين العابدين وأخيه محمد أبي المواهب . وكثير من هذه المدايح تبدأ بوصف بركة الأزبكية وما يحيط بها من الحدائق والقصور . ثم يتخلص أصحابها من ذلك إلى المدح . انظر إلى قول مجل أمين الحجي :

يا حبذا خُضر الحما ثل في رياض الأزبكية
وخفوق أردية النسيم سرى ببقعتها النديه
أرض تكنفها الحدائق والرياض الأريضية

واستمر في هذا الوصف إلى أن قال :

فاختر هنالك مربعا تكنى به كل الأذية
وتقيم موفور المنى وتحفك المنى الخفية
في ظل زين العابدين من الشهم أستاذ البرية
مولى أناخ المجد في أعتابه البيض النقيه

فالمدرسة البكرية امتازت بهذا الشعر الكثير الذي نظم في وصف الحدائق والبساتين ، والقصور والبرك ، والنسيم العليل وما يتركه في النفس من أثر . ولعبد الغنى النابلسي قصائد من هذا القبيل نذكر منها :

رعى الله من مصر على القرب مورداً به النيل وافي مأوه يُذهب الصدا
(م ٩ الأدب المصري)

يسمونه بالأزبكية بركة مباركة كل المياه لها فدا
تظل بها الأمواج ترسم نقشها كوجه عروس لاح في الحسن مفردا
واستطرد من هذا الوصف إلى ذكر قصور البكرين ثم انتقل إلى
المدح فقال :

وفيها شبابيك عليها مطلة وعيدانها صيغت لجينا وعسجدا
بها قطبنا البكرى يبدو برؤس له ثم مملوء من العز والهدى

وهذا الشعر كله من وحي البيئة ، وهو خير من الغزل المتكلف الذي
كانت تبدأ به المدائح . وخير من ذكر الأماكن الحجازية التي اعتاد الشعراء
أن يرددوها في قصائدهم . ويبدو من رحلة النابلسي وغيرها من كتب
الرحلات والتاريخ أن القاهرة كانت تتمتع في ذلك العصر بكثير من البساتين ،
وبعض البرك . وكان الأمراء والأعيان يشيدون قصورهم حول تلك البرك .
وهؤلاء الأعيان — ومنهم البكريون — لا يكتفون بما حول هذه البرك
من البساتين ، بل يخرجون للنزهة في جهات بولاق وقصر العيني والروضة
ومصر العتيقة . ويتبارى أدباؤهم وشعراؤهم في وصف تلك الجهات ، وما فيها
من زروع وطيور ودواليب . قال عبد الغنى النابلسي وقد خرج للنزهة في
صحبة زين العابدين « . . . ثم مررنا هناك على الروضة وهي جزيرة مصر
ذات الحسن المشهور ، المشتملة على الخضرة وألوان الزهور الخ . . »

وقال في موضع آخر « . . . وتوجهنا إلى الجهة المشهورة بقصر العيني ،
فدخلنا إلى منتزه لطيف الأوصاف ، متسق الأكناف . فيه أنواع الفواكه
والثمار ، ومحفوف بفقنون الرياحين والأزهار . وفيه دولا ب لإخراج المياه
بالدواب . وهناك بركة من الماء وسواقى جارية رقيقة الهواء . فجلسنا تحت
تلك العرائش من العنب وحولنا هاتيك الغصون المائلة ميل العرائس عذبة
الشنب ، إلى أن حضرت المائدة ، وحصلت من الاجتماع الفائدة . . . ثم عدنا

من ذلك المزار في أخريات النهار وقد امتلأنا سروراً ، وقلدنا بعقود
اللطائف الأدبية أعناقاً ونحوراً ، ثم أورد له شعراً نظمته في وصف هذا
البستان وما فيه من الدوايب .

وقد زار عبد الغنى النابلسى مدافن العائلة البكرية ، ونظم قصيدة نوه
فيها بشأن أقطاب البكريين ، وبما خصوا به من المناقب والفضائل ، ووراثتهم
للحقيقة البكرية . كما نظم قصيدة حينما دخل قاعة التجلى المتقدم ذكرها ،
جاء فيها :

لما دخلتُ قاعة التجلى قلوبنا مالت من التَّمَلَّى
وكيف وهى من جلال الدين فى جلالها وهيبه التجلى
أعنى به البكرى نسل الصادق العتيق كوكب الهدى الأجل
صاحب طه الخليفة الذى عنه نشأ فى أشرف المحل

ومنها :

لا زال منهم واحد فواحد فى كل عصر بالمقام الإلّى
ومصر لا زالت بهم محفوظة وأهلها لشمسهم كالظل

فالنابلسى كما يبدو من هذه الأبيات مؤمن إيماناً عميقاً بما يقول به
البكريون من وجود صديق بكري على الدوام بحيث لا يخلو عصر منهم .
وقد أورد فى رحلته بعض قصائد من شعر زين العابدين ، نذكر منها :

أنا نجل الصديق غيرُ مدافع لى فى نسبتي وغيرُ ممانع
أنا أصبحت للمفاخر جامع أنا زين العباد فانهب وسارع
لى فإنى لكل خير مَظَنَّةُ

ولنترك عبد الغنى النابلسى لتلقى نظرة على مصطفى بن كمال الدين البكرى
المتوفى بالقاهرة سنة ١١٦٢ هـ وهو ليس من البيت البكرى ، وإنما أصله
من الشام ثم جاء إلى مصر واستوطنها . وله مؤلفات كثيرة موجودة

بدار انسكتب المصرية . وربما لقب بالبكرى لانتائه إلى الطريقة البكرية
أو لانتسابه إلى بكريّة الشام . وقد نظم في شيوخ البكرين بعض المدائح
نذكر منها :

أهل المسكنة والأمانة والتقى من مدحهم في سورة الأحقاف
أهل الصديق مقرهم حال به إذ تتبع الأبناء للأسلاف
ومنها في مدح أبي بكر :

يا أول الخلفاء ثانی اثنين في غار الوفا يا وافر الإسعاف
يا منقذ الإسلام يوم سقيفة رجعت به الأرواح خوف طواف
فسكت تاموداً له وقتلت مصر تدأ فعاد الأمر للإيلاف

وفي قوله « من مدحهم في سورة الأحقاف » إشارة إلى قوله تعالى
« رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي » إلى قوله « وأصلح لي في
ذريتي » . وقد مر بنا ما يزعمه البكريون بخصوص هذه الآية .

* * *

وقد بقيت المدرسة البكرية حاملة لواء الدعاية للبكرين على النمط المتقدم
حتى العصر الحديث . فهذا محمد البكرى الذى عين شيخاً للسجادة البكرية
عام ١٢٧٧ هـ كان قبله أنظار الأدباء والشعراء . وقد مدحه شهاب الدين
المصرى بقصيدة جاء فيها :

وإذا خفت صولة الدهر فاقصد آل صديق أحمد المختار
هم مقر الآمان مجلى الأمانى مظهر الخير موضع الأسرار
حبيهم منزل الرضا وجماهم حيث تُمحى كبائر الأوزار
هم نجوم الهدى ولا سيات من لاح فيهم كالبدر بين الدار
وهو شيخ الشيوخ مولى الموالى صفوة الصفوة خيرة الأخيار

وفي سنة ١٨٩٢ م تولى مشيخة السجادة السيد توفيق البكري . وقد أقيمت بهذه المناسبة حفلة رسمية في قصر عابدين حضرها جم غفير من علماء الأزهر ورجال الطرق الصوفية . وبعد أن شرب الحاضرون القهوة نهض الخديو عباس وقلد الشيخ تاج الشرف . ثم نزل السيد توفيق ومعه مشايخ الطرق الصوفية وكبار العلماء وسار في موكب ضخم حتى وصل إلى قصره ياخر نفس . وهناك أقبل عليه الشعراء مهنتين مادحين . ومن هؤلاء الشيخ حمزة فتح الله الذي يقول من قصيدة طويلة :

إنا نهنئ المكرمات وأهلها بحليفها من بعد حسن عزاء
توفيقها البكري فرع أرومة الصدق زهرة دوحة الزهراء
العالم التحرير والعلم الذي أحيا رسوم المجد والعلواء
ومنها :

يا ابن النبي إليك أوفد مخلص أمدوحة تمشي على استحياء
فإليكها جهد المقل لأنكم في غنية عن مدحة وثناء
وفي أول مارس سنة ١٩٠٣ صدر أمر خديوي بتعيينه نقيباً للأشراف ، ثم مدحه بعض الشعراء ، منهم أحمد نسيم الذي يقول :

بشراك توفيق أنت اليوم راعيها فهل نهنئك نظماً أم نهنئها ؟
خذ النقابة والعلواء تحملها إلى رحابك والرحن يحمها
غابت زماناً وبانت بعد أن حجبت كأنها الشمس تمثيلاً وتشبيها
فانهض بها يا ابن آل البيت ما طلعت شمس الضحى نهضة لله تبغيها
حتى يقول أبو بكر لصاحبه بشراك عباس أعطى القوس باريها
.. . . الخ

والآن قد فرغنا من دراستنا لشعر البكرين . وأهم خاصية لهذه المدرسة هي كما مر بنا تقديس ذرية أبي بكر ؛ ودعوة الناس إلى الإيمان بالآلهة البكرية التي تقدم ذكرها . ومن خصائصها كذلك تلك الروح الصوفية . للتأثر بابن الفارض وابن عربي . والميل إلى وصف الحقائق والبساتين ، والجداول والبرك ، والأشجار والطيور والدوايب ، وغير ذلك من مظاهر الطبيعة . وهي بذلك قد أضافت إلى الأدب المصري في العصر الذي ندرسه ثروة طائلة من النثر والشعر والموشحات والأزجال .

الفصل الثالث

المدرسة العلوية^(١)

سندرس في هذا الفصل الشعر الذي قيل في آل البيت . وأول شاعر نصادفه هو بهاء الدين العاملي الذي وفد إلى مصر سنة ٩٩٢ وأقام بها مدة من الزمن ، وألف بها كتابه « الكشكول » وفيه قصيدة^(٢) من نظمه تحت عنوان « وسيلة الفوز والأمان في مدح صاحب الزمان » وهي :

خليفة رب العالمين فظله	على ساكن الغبراء من كل ديار
هو العروة الوثقى الذي من بذيله	تمسك لا يخشى عظام أوزار
إمام هدى لآل الزمان بظله	وألقى عليه الدهر مقود خوار
علوم الورى في جنب أبحر علمه	كغرفة كف أو كخمسة منقار
إمام الورى طود انتهى منبع الهدى	وصاحب سر الله في هذه الدار
به العالم السفلى يسمو ويعتلى	على العالم العلوى من دون انكار
ومنه العقول العشر تبغى كمالها	وليس عليها في التعلم من عار
أيّا حجة الله الذي ليس جاريا	بغير الذي رضاه سابق أقدار
ويا من مقاليد الزمان بكفه	وناهيك من مجد به خصه البارى

(١) كانت سياسة الدولة العثمانية في ذلك الوقت تقضى بإيجاد فرق تتنافس فيما بينها على النفوذ ، وهى تقف بعيداً مطمئنة إلى سلطانها ، فشجعت قيام حزبين كبيرين من المماليك هما : الفاسمية والفقارية . ولم يكن عندهما ما يمنع من قيام فرقة تناظر البكرين ، وهذا فهم السر في ظهور النزعة العلوية إلى جانب النزعة البكرية . على أن النزعة العلوية بدأت بمدح أسجابه الأضرحة من آل البيت ، ثم أخذت تشتد يوماً بعد يوم نتيجة لاضمحلال النفوذ العثماني وظهور المماليك كحكام حقيقيين للبلاد .

أُغِثَ حَوْزَةُ الْإِيمَانِ وَأَعْمِرَ رُبُوعَهُ
وَأُنْقِذْ كِتَابَ اللَّهِ مِنْ يَدِ عَصَبَةٍ
يُحِيدُونَ عَنْ آيَاتِهِ لِرَوَايَةِ
وَفِي الدِّينِ قَدْ قَاسُوا وَعَاثُوا وَخَبَطُوا
وَأَنْعَشَ قُلُوبًا فِي أَنْتِظَارِكَ قُرْحَتِ
وَخَلَّصَ عِبَادَ اللَّهِ مِنْ كُلِّ غَاشِمٍ
وَعَجَّلَ فِدَاكَ الْعَالَمُونَ بِأَسْرِهِمْ
تَجِدُ مِنْ جُنُودِ اللَّهِ خَيْرَ كِتَابٍ
بِهِمْ مِنْ بَنِي هَمْدَانَ أَخْلَصُ فِتْيَةٍ
بِكُلِّ شَدِيدِ الْبَأْسِ عِبِلَ شَمْرُ كُلِّ
تَحَاذِرُهُ الْأَبْطَالُ فِي كُلِّ مَوْقِفٍ
أَيَا صَفْوَةَ الرَّحْمَنِ دُونَكَ مِدْحَةٍ

فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا غَيْرُ دَارِسِ آثَارِ
عَصَوُوا وَتَمَادَوْا فِي عُتُوٍّ وَإِصْرَارِ
رَوَاهَا أَبُو شَعْمِيونَ عَنْ كَعْبِ الْأَحْبَارِ
بِأَرْأَمِهِمْ تَخْبِيضَ عَشَوَاءَ مَعْتَارِ
وَأَضْجَرَهَا الْأَعْدَاءُ أَيْتَةً لِضَجَارِ
وَطَهَّرَ بِلَادَ اللَّهِ مِنْ كُلِّ كَفَّارِ
وَبَادَرَ عَلَى اسْمِ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ إِنْظَارِ
وَأَكْرَمَ أَعْوَانَ وَأَشْرَفَ أَنْصَارِ
يُخَوِّضُونَ أَغْمَارَ الْوُغَى غَيْرَ فُكَّارِ
إِلَى الْخُتْفِ مَقْدَامَ عَلَى الْهَوْلِ مَصْبَارِ
وَتَرْهَبُهُ الْفَرَسَانُ فِي كُلِّ مَضَارِ
كَدُرٌ عَقُودَ فِي تَرَائِبِ أَبْكَارِ

وقد أثبتنا هذه القصيدة كلها نظراً لأهميتها . فهي تسجل الآراء
الشيوعية التي نشرها العالمي في مصر في ذلك الوقت . فصاحب الزمان هو
خليفة الله الذي مد ظله على العالم . وهو العروة الوثقى ، ومن تمسك به نجا .
وهو الإمام الهادي الذي حاز جميع المعارف والعلوم . وهو منبع الهدى ،
وصاحب الأسرار الإلهية في الدنيا . ومنه تستمد العقول العشر كلها . وهو
حجة الله الذي تجرى الأقدار بإرادته ، ويمضي الزمان بمشيئته . ثم أخذ
الشاعر يخاطب صاحب الزمان طالباً منه أن ينقذ الإيمان ويعيد إليه رونقه
وبهائه وجدته ، لأن ربوعه قد تهدمت وزالت ، ولم يبق منها سوى أطلال
بالية . والقرآن أصبح في يد قوم عتاة عصاة ، أهملوا ما جاء فيه واتبعوا
ما روى عن كعب الأحبار وغيره . ثم إنهم اتخذوا القياس في أحكام الدين ،
واجتهدوا بأرائهم ، وضلوا سواء السبيل .

وبعد أن وصف الشاعر ما وصل إليه العالم من فساد وانحلال ، التمس من

صاحب الزمان أن يظهر فإن القلوب متعطشة لرؤيته . وأن ينقذ العالم من الظلم والطغيان ، ويظهر البلاد من الكفار . وسيجد في انتظاره جيشاً من جنود الله من بنى همدان المعروفين بالإخلاص له ، وللمشهورين بالشجاعة والإقدام . وخصص بنى همدان لأن المتعارف عند فريق من الشيعة ومنهم الإثنا عشرية أن الإمام المنتظر سيظهر في بنى همدان . ومن العجيب^(١) أن رجال الدين في مصر لم ينكروا على بهاء الدين هذه الآراء مع ما فيها من تعريض بأهل السنة ، وما جروا عليه في الأحكام من القياس والاجتهاد . ومع قوله إن كتاب الله أصبح في يد عصبة من الكفار . وله قصيدة أخرى ردد فيها المعاني السابقة نذكر منها :

صاحب العصر الإمام المنتظر	من بما ياباه لا يجرى القدر
حجة الله على كل البشر	خير أهل الأرض في كل الخصال
من إليه الكون قد ألقى القياد	عجراً أحكامه فيما أراد
إن تزل عن طوعه السبع الشداد	خرّ منها كل ساعى السمك عال
شمس أوج المجد مصباح الظلام	صفوة الرحمن من بين الأنام
الإمام ابن الإمام ابن الإمام	قطب أفلاك المعالي والكمال
يا أمين الله يا شمس الهدى	يا إمام الخلق يا بحر الندى
عجّان عجل فقد طال المدى	واضمحل الدين واستولى الضلال

ثم إنه خصص في كتابه « الكشكول » فصلاً طويلاً عن السيدة فاطمة ، ذكر فيه كثيراً من مناقبها وفضائلها . وأورد أخباراً متفرقة عن الحسين ابن علي وبعض كبار آل البيت .

وفي تلك الفترة جاء داود الأنطاكي إلى مصر ، وكان كما نقل المحبي^(٢) « شيعياً مخالفاً لعقيدة الأشعرية ، وموافقاً لعقيدة الشيعة وهم الذين بايعوا علياً وقالوا بإمامته نصّاً ووصية . والحق أحق أن يتبع في بيان معتقد

(١) كان من مصلحة الدولة العثمانية أن ينقسم المصريون إلى فرق يأخذ بعضها بمخالف بعض ،

(٢) الخلاصة ١٤٤/٢

وهي تقف موقف المتفرج .

الإنسان . وصاحب الترجمة من هذا القبيل ، فكم له من اعتقادات فاسدة ، وأقاويل كاذبة باطلة ، وقد ذكر داود في مقدمة تذكرته ما نصه « ... صلاة تزيد على حركات المحيط على من اخترت من النفوس القدسية لقوام الأدوار في كل زمان ، والإرشاد إلى منهاج الحق وقانون الصدق » والنفوس القدسية يراد بها الإثمة . والدور عند الإسماعيلية هو الفترة بين نبي وآخر . والأقوال متضاربة في أمر داود ، فمن الناس من قال إنه كان ملحداً ، ومنهم من قال إنه كان شيعياً . وظاهر مما ورد في مقدمة تذكرته أنه كان يدين بمذهب الشيعة الإسماعيلية .

وعلى كل حال فإن الأفكار الشيعية الفلسفية لم تجد رواجاً في مصر لوجود البكرين الذين كانوا ينشرون تعاليمهم بين الناس ، ويثرون على كثير من الشعراء والأدباء بالعطاء الجزيل . ولوجود حكام يدينون بمذهب أهل السنة . وكانت الدولة العثمانية كما سبق أن ذكرنا تشجع العلماء على تأليف الكتب ضد الأفكار الشيعية .

وقد حدثتنا كتب التراجم عن شعراء مصريين كانوا ينظمون القصائد في مدح أشراف مكة أملاً في نوال عطائهم ، ولكن لم يصل إلينا شيء من هذه المدائح .

ويجب أن نذكر أن عواطف المصريين كانت ولا تزال مع أهل البيت بالرغم من عدم رواج الفلسفة الشيعية بينهم .

* * *

وفي هذا العصر جددت أضرحة آل البيت في مصر ، وانهماك الناس في إقامة الموالد لأصحاب هذه الأضرحة . وأخذ الشعراء ينظمون القصائد في مدح آل البيت ، وبخاصة الحسين . مثال ذلك قول عبد الله الشبراوي المتوفى سنة ١١٧٢ هـ :

آل طه ومن يقل آل طه مستجيراً بجاهكم لا يُردُ
حكم مذهبي وعقدُ يقيني ليس لي مذهب سواه وعقدُ

يبتكم مهبط الوحى ومنكم نور النبوة يبدو
ولكم فى العلا مقام رفيع مالكم فيه آل ياسين نِدْ
يا ابن بنت الرسول من ذا يُضاهى هيك افتخاراً وأنت للفخر عِقدُ
كل من رام حصر فضلك رُغْراً فضل آل النبى ليس يُمدُ

فخصائص الشعر العلوى ظاهرة فى هذه الأبيات . فالشاعر يذكر آل طه ،
ويقول إن حبه دينه الذى يدين به ، وقد انعقد إيمانه على هذا الحب .
وبيتهم نزلت فيه الرسالة والوحى . ويذكر نور النبوة وآل ياسين ، وابن
بنت رسول الله . وكل هذا وغيره من مميزات الشعر العلوى .

وله من قصيدة أخرى :

لست أخشى ريب الزمان وأنتم صمدتى فى الخطوب يا آل أحمد
من يضاهى نفاركم آل طه وعليكم سرادق العز ممتد
كل فضل لغيركم فاليسكم يا بنى الطهر بالأصالة يُسند
أى بيت كبيتكم آل طه طهر الله ساكنيه ومجده
ولكم فى الكتاب ذكر جميل يهتدى منه كل قارى ويسعد
وعليكم أثنى الكتاب وهل بعد دثناء الكتاب مجد وسودد

فى هذه الأبيات إشارة إلى قوله تعالى « إنما يريد الله ليذهب عنكم
الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » والشيعة يذكرون أن النبى صلى الله
عليه وسلم دعا علياً والحسن والحسين وفاطمة ، وألقى عليهم عباءته وكان هو
معهم تحت العباءة ، وحينئذ نزلت الآية المتقدمة .

وقال :

لئن كان رفضاً حبكم يا آل أحمد فقد لذ لى فى حبكم ذلك الرفض
عرضت عليكم آل ياسين قصتى ويحسن من مثلى على مثلكم عرض
وعاداتكم إكرام من زار حبيكم وحاشا لتلك العادة الخلف والنقض

على حبكم أفنيت عمري وهل لمن
نوها أنا يا آل النبي وحق من
حُب أتاكم آل طه يزوركم
بِحُبِّكمو بُعِدْتُ من الله أو بُغِضُ
تذلل لعلياه السموات والأرض
وقد صح في التاريخ حبكمو فرض

والبيت الأول مأخوذ من البيت المشهور المنسوب للإمام الشافعي وهـ
إن كان رفضا حب آل محمد فليشهد الثقلان أنني رافضى
ولن نجد عند التشبراوى فى مدائحهم لآل البيت أكثر من المعانى المتقدمة
فلنتركه ولننظر فى شعر الإدكاوى المتوفى سنة ١١٨٢هـ قال يمدح فاطمة الزهراء

أما هي من طه للمكرم بضعة
أما هي من قد حرّم الله جسمها
أما هي من قد أحصنت فرجها فلا
وخير نساء العالمين بلا مرا
وكان رسول الله يقبضه الذى
وقال لها صلى عليه إلهه
وفى الحشر يأتى المصطفى وهو را
على الناقة القصوى فتدخل تلوه
وفى خبر يغدو المنادى مناديا
ألا نكسوا روسا وغضوا نواظرا
وفى مدحها جاءت أحاديث حجة
وخصت من المولى بأشياء تميزت
فلا حيض يأتها ولا فى نفاسها
ولا جوع تشكوق من أجل دعوة
وسر أبيها قد غدت كنية لها
وكان لها دوما يقوم إذا أتت
على حبها من مات كانت له البشري
على النار تحقيقا وأحبها جبرا
تداني لها نار وأولادها طرا
ومن شك فى هذا عليه بالاستقرا
يكون لها قبضا ويسط بالآخرى
لأجل رضاك الله يرضى فيا بشرى
كب البراق وتأتى خلفه بنته الغرا
إلى جنة المأوى التى حسنت ذكرا
لدى ذلك الجمع الذى عز أن يدري
لثلا يروا شخصا لمن ظهرت مرا
تقوت على من رام تعدادها حصرا
بها عن نساء العالمين حات نشرها
يرى دما من أجل ذا لقبت زهرا
دعاها لها طه ولو مكثت شهرا
فيا حسنها من كنية قد زكت نشرها
إليه ويحبوها بمجلسه جبرا

وما بين عينها يقبل مثلما
وقد ضمها تحت الكسا وعليها
وقال إله العرش إني أحبهم
وأحب إلهي كل من قد أحبهم
لقد ولدتها من تسامت خديجة
فقد كرمت أما بما شرفت أبا
ها كوكبا فضل وبدرا سيادة
شهيدان مسعودان بران سيدا
مصائبها لم ينسه خاطري وما
مصائبها أبكى العيون وأوقع الذ
ألا لعن الرحمن من قد سعى بما
هو آل بيت الطهر طه الذين قد
وفي سورة الشورى العجائب فاتها
بها وبنجليها الكريمين والرضا
توسلت يارب العباد بهم عسى

يمصى لسانا قد حلا وزكا طهرا
ونجليها ضما به زادهم فخرا
فطهرهم من كل ما يوجب الإصرا
ونوله ما يرجوه وارفع له ذكرا
حليمة خير المرسلين علا قدرا
وقد أنجبت شبليين سادا المالا الزهرا
وريحانة المختار من فاز بالإسرا
شباب جنان من عبيد ومن أحرار^(١)
أتاه العدا من سوء بغى غدا أمرا
نفوس بكرب مثلما للحشا فرا
أباح دماء بالنفاس لا تشرى
نفي الرجس عنهم ربنا فاقر الذكرا
تدل ما تشا بل تغنم الفوز والأجرا
على والمختار ذى الآية الكبرى
أنال بحبيهم مرادى والنصرا

فإذا تأملنا في هذه القصيدة وجدنا الإدكاوى قد حشد فيها كثيرا من
الأحاديث التي رويت في السيدة فاطمة . وبالرجوع^(٢) إلى صحيح البخارى
ومسلم وجدت حديثين هما « فاطمة سيدة نساء المؤمنين ، أو سيدة نساء هذه
الامة » في رواية مسلم . وفي رواية البخارى « فاطمة سيدة نساء أهل الجنة » .
وحديث « إنما فاطمة بضعة مني يؤذني ما آذاها » في رواية مسلم .

(١) من حرا : من حرار . (٢) إرشاد السارى إلى صحيح البخارى ١٤٤/٦ .
وصحيح مسلم ٣/١ المطبعة المصرية

وعند البخارى « فاطمة بضعة منى فمن أغضبها أغضبني » وفي رواية عنده
« ويؤذني ما آذاها »

وقول الإدكاوي « وسر أبيها كان يودعه لها » فيه إشارة إلى حديث
ورد في البخارى ومسلم ومعناه أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا فاطمة وأخبرها
أنه سينقل إلى الرفيق الأعلى فبكت . ثم أخبرها أنها ستكون أول من يلحق
به فضحكت . وقد كتبت هذا الخبر فلم تسج به إلا بعد وفاة الرسول .

أما الأخبار التي أوردتها الشاعر عن فاطمة وهي أنها لا تحيض ، ولا يخرج
منها دم عقب الولادة ، وأن النبي دعا لها بدماء يقيها شر الجوع ، وأنها تركب
ناقة يوم القيامة وتدخل بها إلى الجنة على أثر الرسول ، وأن مناديا ينادي
الناس ليغضوا أبصارهم حتى تمر بناقتها ، إلى غير ذلك ، فإن هذه الأخبار لم
ترد في الكتب الصحيحة ، وهي من غير شك من مخترعات الشيعة . ومع ذلك
فالمسلمون أجمعون يشتركون في حب فاطمة ، ويرتاضون إلى كل ما يقال
ويروى من أخبارها . ولا عجب في ذلك فهي بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي قول الإدكاوي « وفي سورة الشورى العجائب فاتها » إشارة إلى
قوله تعالى « قل لأسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » فإن الشيعة
فسروا القربى بأنها آل على ، وبذلك وجهوا الآية توجيهاً يخدم أغراضهم ،
في حين أن خصومهم قالوا إن قرابة النبي لا تقتصر على آل على ، بل تشمل كل
من يمت إلى النبي بصلة القرابة من ناحية الآباء والأمهات ، والمصاهرة والنسب .
ومن هنا نرى أن شعراء العلويين في مصر اتفقوا مع الشيعة في تفسير
هذه الآية .

وفي قوله « وقد ضمها تحت الكسا وعليها » إشارة إلى القصة التي
رويت حول نزول آية التطهير من الرجز . وقد رجعت إلى الطبرى وهو
الشهير بالتفسير بالأثر فوجدت كل ما أورده من أقوال في هذا الصدد يتفق

مع ماذهب اليه الشيعة ، اللهم إلا رواية واحدة تنص على أن^(١) الآية نزلت في نساء النبي . وخصوص الشيعة يأخذون بهذه الرواية . وأما شعراء العلويين في مصر فإنهم وقفوا إلى جانب الشيعة ، ولم تخل قصيدة من قصائدهم من الإشارة إليها .

وقد بكى الإدكاوى على ما أصاب الحسن والحسين ، ونوّه بشأنهما ، ولعن معاوية وابنه يزيد الذين قتلا هذين الشهيدين . والشيعة يذكرون أن معاوية دس السم للحسن ، وقد تابعتهم الادكاوى وغيره من الشعراء العلويين بمصر في هذا الزعم . أما غير الشيعة فإنهم برأوا معاوية من هذه التهمة ، ونظروا إليه على أنه كان أحد الصحابة . وعندى أن الذى يولى ابنه يزيد إمارة المؤمنين مع علمه بفسقه وخجوره لا يبعد عليه أن يسم الحسن .

وختم الادكاوى قصيدته بالتضرع إلى الله أن يميته على حب آل البيت لأنّ حبهم من الإيمان ، ولا يدخل الجنة إلا من مات على حبهم . كما أن بغضهم كفر يؤدى إلى النار . وقد اشترك جميع الشعراء العلويين في هذا القول ، كما اشتركوا في التوسل إلى الله بآل البيت ، والاستغاثة بهم في الشدائد والملمات .

وقد التف شعراء العلويين حول شيوخ السادات الوفاية ، ومدحهم بقصائد تعيد إلى الأذهان ما كان يقال في الخلفاء الفاطميين .

ومؤسس^(٢) بيت السادات في مصر هو : محمد وفا ؛ الذى ينحدر من ذرية الإمام على . وقد جاء إلى مصر من شمال إفريقيا في أول القرن الثامن الهجرى ونزل بالاسكندرية وأقام بها مدة من الزمن . ثم انتقل إلى القاهرة وسكن

(١) ج ٢٢ ص ٧٢٦ المطبعة الميمنية بالقاهرة .
(٢) رفع ثقاب الحفا عن ائمتى إلى وفاء الوفا - تأليف مرتضى الزبيدى .

بجزيرة الروضة . وقد قيل في سبب تلقيبه بـ « وفا » أن النيل توقف في إحدى السنين ، فتوجه العلماء والصلحاء إلى المقياس ودعوا الله لارتفاع مياه النيل كالمعتاد ، ولكن الله لم يجب دعاءهم . وبقي النيل على حاله من النقص . وقد أخبر السلطان بوجود « مجد النجم » وصلاحه وتقواه . فأرسل إليه أن يتوجه إلى المقياس ويدعو الله ، ففعل . فلم يلبث أن ارتفع الماء وظهر الوفاء ، وصار الناس يقولون « وفا ، وفا » وخوذب حينئذ بذلك وصار علما عليه .

وليس من المهم أن نقف عند هذه القصة لنحكم لها أو عليها ، فالخرافات موجودة في كل زمان ومكان .

واشتهرت ذريته باسم « السادات » . وقد توفي مجد وفا سنة ٧٦٥ هـ . وكان كما ذكر منفردا في التصوف . وله ديوان شعر موجود ، ولكننا سنغفل الكلام على شعره لأنه لا يدخل في عصرنا الذي ندرسه .

ثم انتقلت عائلة السادات من الروضة وسكنت مصر القديمة . وفي القرن الحادى عشر كان لها مساكن بناحيتى الخرقة وبركة الفيل . وقد ذكرهم عبد الغنى النابلسى الذى جاء إلى مصر سنة ١١٠٥ هـ فقال ^(١) « ... ثم ركبنا وتوجهنا مع الإخوان إلى جهة بيت السادة الوفاية المشهورين بالمعارف الإلهية والحقائق الربانية . أهل النظم والنثر من التصانيف الفاخرة ، والدواوين الزاهرة . وكان منهم البدر الكامل ، والسر الشامل الشيخ يوسف ابن متعة البصر والسمع ، ونور الفرق والجمع ، الشيخ أبى التخصيص الوفاى ، رفع لهم الله فى الآفاق رايات المجد ، ولا زال ذكرهم بالكلمات الإنسانية بين مراتب الغور ونجد » .

« فدخلنا إلى دارهم المعمورة التى هى بأنواع الهيبة والاحتشام مغمورة . فتلقانا الشيخ يوسف المذكور بكمال البشاشة والسرور . وجاسنا عنده حصرة

(١) ورقة ١٢٣ من كتاب الحقيقة والحجاز .

من الزمان حتى جىء لنا بماء الورد والبخور ، وحصل كمال اللطف والإذعان «
وذكرهم الشهاب الخفاجي المتوفى^(١) سنة ١٠٦٩ فقال « ومن البيوت
العامرة بمصر بيت السادة الوفائية . سادات السادات ، لهم أنفس قدسية قد
أفيضت عليها العلوم اللدنية . ما منهم إلا صاحب ديوان نافذ في سبيل
البلاغة بسطان » .

* * *

ومن أعلام هذا البيت : عبد الخالق بن وفا . وقد ذكره^(٢) الجبرتي فقال
« قطب زمانه ، وفريد أوانه . كان على قد أسلافه وفيه فضيلة وميل للشعر .
وامتدحه الشعراء وأجازهم الجوائز السنية . وكان يحب سماع الآلات » .
ومما قيل في مدحه :

دع عنك حاتم طي وابن زائدة وأترك حديث بنى العباس والخلفاء
وانظر بعينيك هل أبصرت من رجل في الجود يشبه عبد الخالق بن وفا

توفي سنة ١١٦١ هـ وتولى بعده في خلافتهم : محمد أبو الإشراق بن وفا .
واشتهر منهم أحمد بن إسماعيل أبو الإمداد ، سبط بنى الوفا . وترجم له
الجبرتي بقوله « الجناب الأحمدي ، والملاذ الأوحدي . علم المجد وناشره ،
وجالب متاع الفضل وتاجره ، تولى نقابة الأشراف سنة ١١٦٨ هـ وسار فيهم
سيرة مرضية . وقد مدحه عبد الله الإدكاوي بقوله :

قالوا نقابة مصر أودى كفؤها وتسربت بحدادها واستخفت
فأجبت كلا ، بل لها الكفاء الذي رتب العلا بفخاره قد حفت
لما دعاها أذعنت واستبشرت وأتته طائعة ولم تغت
وتبرجت فلذلك قلنا أرخوا أدبا لأحمدنا النقابة رُفت

(١) الريانة ص ٣١١ طبع بولاق سنة ١٢٧٤ هـ .

(٢) ج ١ حوادث سنة ١١٦١ هـ .

ثم تولى مشيخة السجادة الوفاية سنة ١١٧٦ فمدحه الإدكاوى بقوله :
 قيل لى هل مدحت آل عليٍّ من بهم يكتسى الأديب الشرافه
 آل بيت الوفاء من خُصَّصوا بالـ مجد والفخر والتقى والإنافه
 قلت ما قدر مدحتى لكرام بهم تأمن الأنام المخافه
 غير أنى لفرعهم أحمد المجـ د سأجلو بمنطقى أوصافه
 هو بيت الأفضال شمس المعالى أوحـد الفضل جامعُ أَلطافه
 منه أضحى دست الخلافة من صد ر خليفا وما دروا إسماعفه
 قال أعلى الجدود فى الحال هاتوا نجلنا أحمد الزكى العرافه
 قدّموه فقلت فى الحال أرخ جده قد أولاه ركن الخلافة
 توفى سنة ١١٨٢ هـ .

* * *

ولعل أشهر أفراد هذا البيت هو : شمس الدين محمد أبو الأنوار . وقد
 ترجم له الجبرتي^(١) ترجمة مطولة نلخصها فيما يلى :
 « نادرة عصره ، ووحيد دهره ؛ الشيخ شمس الدين محمد أبو الأنوار ،
 ابن عبد الرحمن المعروف بابن عارفين ؛ سبط بنى الوفاء ، وخليفة السادات
 الحنفاء ، وشيخ سجادتها ، ومحط رحال سيادتها . وشهرته غنية عن مزيد
 الإفصاح ، ومناقبه أظهر من البيان والإيضاح » .
 « تولى خلافة بيتهم سنة ١١٨٢ » .

« ودرس على شيوخ عصره . وكان له اشتغال فى بعض الأحيان بالمطالعة
 ولذا كره فى للسائل الدينية والأدبية . ومعاشره الفضلاء ومجالستهم ،
 والمناقشة معهم فى النكات واقتناء الكتب من كل فن . كل ذلك مع الجد
 والتحصيل للأسباب الدنيوية ، وما يتوصل به إلى كثرة الإيراد بحسن

(١) ج ٤ ص ١٨٥ - ١٩٧ .

تداخل ، وجميل طريقة مبعدة عما يخل بالمقدار ، بحيث يقضى مرامه من العظيم وجميل الفضل له . ويراسل ويكتب ويشاحح على أدنى شيء ، ويحاسب مولاه يدفع لأرباب الأقلام عوائدهم المقررة في الدفاتر ، بل يرون أن أخذها منه من الكبائر . وكذلك دواوين المكوس المبني على الإجحاف . فكلهما نسب له فيها هو معافي . وكلما طال الأمل زاد المدد ، وخصوصاً إذا تقلبت الدول وارتفعت السفل كان الأسبق القديم في أعينهم هو الجليل العظيم . موهم لديه صغار ، لا ينظر إليهم إلا بعين الاحتقار . ولما انقرضت بقايا الشيوخ الذين كان يهابهم ويخضع لهم ويتأدب معهم ، وكانوا على طرائق الأقدمين في العفة والانجماع عن كل عمل يخل بتعظيم العلم وأهله ، والتباعد عن بني الدنيا إلا بقدر الضرورة . وخلف بعدهم من هم على خلاف ذلك ، موهم أعظم مدرسي الوقت فأحدقوا به ، وأكثروا من الترداد عليه وعلى موائده ، وبالغوا في تعظيمه وتقديره ، ومدحوه بالقصائد البليغة طمعاً في صلاته وجوائز القليلة ، وحصول الشهرة لهم ، وزوال الخمول ، والتعارف . بمن يتردد إلى داره من الأمراء والأكابر . وزاد هو أيضاً وجهاً ووجاهة بمجالستهم ، ولا يريهم فضلاً بسعيهم إليه ، ويزداد كبراً وتبهاً . وبلغ به أنه لا يقوم لأكثرهم إذا دخل عليه . ومنهم من يدخل بغاية الأدب فيلم ثيابه . ويقول عند مشاهدته « يا مولاي يا واحد » فيجيبه هو بقوله « يا مولاي يا دائم ، يا على يا حكيم » . فإذا حصل بالقرب منه بنحو ذراعين جبا على ركبتيه ، ومد يمينه لتقبيل يده أو طرف ثوبه . وأما الأدون فلا يقبل إلا طرف ثوبه . وكذلك أتباعه وخدمه الخواص . وإذا كان من أهل الذمة أو كبار المباشرين وقبلوا يده وخطبهم في أشغاله وهم قيام وانصرفوا ، طلب الطست والإبريق وغسل يده بالصابون لإزالة أثر أفواههم . ولا يجيب في رد التحية إلا بقوله « خير ، خير » .

« ولا يقطع غالب أوقاته مع مجالسيه وخاصة مسامريه إلا بانتقاد أهل مصره ، وغيبة غالب أهل عصره . وتنبسط نفسه إلى ذلك ، وإليه يصني » .

« وفي سنة ١١٩٠ ورد إلى مصر عبد الرازق أفندي رئيس الكتاب ومن أكبر أهل الدولة . فمنحته الدولة بواسطته مائة كيس لإصلاح زاوية أسلافه . وكان معينه في ذلك الوقت أيضاً الشيخ محمد مرتضى الزبيدي . »

« ثم أرسل وزيره وكتبخده الشيخ إبراهيم السندوبي إلى دار السلطنة بمكاتبات يلتمس فيها رفع ما على قرية زفتى وغيرها مما في حوزته من الالتزام من الضرائب التي تدفع إلى الديوان كل سنة . وكان إبراهيم المذكور غاية في الدهاء والحيل الساسانية ، والتصنعات الشيطانية ، والتخليطات الوهمية ، وتقلبات الملامتية . فتم مرامه بما ابتدعه من الخرقه والإيهامات الملفقة . ولم يدفع ما جرت به العادة من العوائد ، بل اجتنب خلاف ذلك فوائد . »

« ولما حضر حسن باشا الجزائرلى سنة ١٢٠٠ هـ وخرج الأمراء المصريون إلى الجهة القبلية ، واستباح أموالهم ، وقبض على نسائهم وأولادهم وأمر بإنزالهم سوق المزاد وبيعهم ، زاعماً أنهم أرقاء لبیت المال وفعل ذلك . فاجتمع الأشياخ وذهبوا إليه فكان المخاطب له المترجم قائلاً له : أنت أتيت إلى هذه البلدة وأرسلت السلطان لإقامة العدل ، ورفع الظلم كما تقول ، أم لبيع الأحرار وأمهاة الأولاد وهتك الحريم ؟ فقال : هؤلاء أرقاء لبیت المال . فقال له : هذا لا يجوز ، ولم يقل به أحد . فاغتاظ غيظاً شديداً . »

« وكان إبراهيم بك الكبير قد أودع عند المترجم وديعة . وكذلك مراد بك أودع عند محمد البكرى وديعة . وعلم حسن باشا فأرسل عسكرياً إلى السيد البكرى فلم تسعه المخالفة وسلم ما عنده . وأرسل كذلك يطلب من المترجم وديعة إبراهيم بك فامتنع من دفعها قائلاً « إن صاحبها لم يمت » وقد كتبت على نفسى وثيقة ، فلا أسلم ذلك مادام صاحبها على قيد الحياة . فاشتد غيظ الباشا منه ، وقصد البطش به ، فخماه الله منه ببركة انتصاراته »

للحق . فكان يقول - يعنى حسن باشا - : لم أر فى جميع الممالك التى ولجتها من اجترأ على مخالفتى مثل هذا الرجل ، فإنه أحرق قلبى .

« ولما رحل حسن باشا الجزائرلى عن مصر وعاد الأمر إلى المماليك زادت عندهم مكانته . وآل إليه نظر المشهد الحسينى ، ومشهد السيدة نفيسة والسيدة زينب وباقى الأضرحة الكثيرة الإيراد . وأخذ يتشدد مع القائمين على هذه الأضرحة فى تحصيل أموالها ، ويسبهم ويهينهم ، ويضربهم بالجرید المحمى على أرجلهم »

« وكانت مساكنه مظلة على بركة القيل . وبها قاعة كبرى تسمى « أم الأفراح » مزخرفة بالنقوش الذهب والقيشانى الصينى بجميع حيطانها ، والرخام الملون . وبها فسقية والسبيل والقمریات الملونة . فكشف حائطها وأدخل فسحتها فى رحبة الحوش ، وعمل بها فسقية بالرخام ، وسماها الأنوارية ، نسبة إلى كنيسته . وأمامها فسحة عظيمة . وأنشأ بجوار بيته مسجداً يصلى فيه بذلك لبعدها المساجد الجامعة عن داره . وتعاضله عن السعى الكثير والاختلاط بالعامّة . وأنشأ بستاناً كبيراً ، وغرس به الأشجار والرياحين والثمار . وأفنى غالب عمره فى تحصيل الدنيا ، وتنظيم المعاش والرفاهية ، واقتناء كل مرغوب للنفس ، وشراء الجوارى والمماليك والعبيد والحبوش والخصيان ، والتأنق فى المآكل والمشارب والملابس . واستخراج الأدهان والعطريات ، والمركبات المفرحة والمنعشة للقوة »

« وتعاضل فى نفسه ، وتعالى على أبناء جنسه حتى إنه ترفع عن لبس التاج والحضور بالأزهر ليلة المعراج وكذا الحضور فى مجلس وردهم الذى هو محل عزهم . وصار يلبس قاووقاً بعمامة خضراء تشبهاً بكبرايا الأمراء ، وبعداً عن التشبه بالمعممين والفقهاء والمقرئين »

« ولما طالت أيامه ، وماتت أقرانه ، والذين كان يستحى منهم ويهابهم

وتقلبت عليه الأحوال ، واندرجت أكابر الأمراء ، وتأمر أتباعهم ومماليكهم الذين كانوا يقومون على أقدامهم بين يدي مخاديمهم ، وأسيادهم جلوس بالأدب مع المترجم ، لا جرم كانت هيئته في قلوبهم أعظم من أسلافهم ، واستصغاره هو لهم كذلك . فكان يصدعهم بالكلام ، وينفذ أمره فيهم ، ويدكر الأمير الكبير بقوله « ولدنا الأمير فلان » وحوادثهم عند مقضية ، وكلامه مسموع ، وشفاعته مقبولة ، وأوامره نافذة فيهم وفي حواشيهم وحريماتهم . « واتفق أن بعض أعظم المباشرين من الأقباط توقف معه في أمر ، فأحضره ولعنه وكشف رأسه وضربه على دماغه بزخمة من الجلد . ولم يراع حرمة أميره . وهو إذ ذاك أمير البلد . ولما شكوا إلى مخدومه ما فعل به ، قال للحاضرين : « وماذا تريدون أن أصنع بشيخ عظيم ضرب نصرانيا ١٩ فرحم الله عظامهم » « واتفق أن جماعة من أولاد البلد ووجهائها اجتمعوا ليلة بمنزل بعض أصحابهم ، وتبسطوا فأخذ بعضهم يسخر ويقلد بعض أصحاب المظاهر ، فوشى المترجم ونقل له أنهم أدرجوه في سخريتهم . فأحضرهم واحدا بعد واحد وعزّهم بالضرب والإهانة »

« فكان من حين إلى حين يقع في بيته الضرب والإهانة لأفراد من الناس . وكذلك فلاحو الحصص التي حازها والتزم بها ، فإنه زاد في خراجهم عن شركائهم ، وفرض عليهم زيادات كان يحبسهم عليها شهورا ، ويضربهم بالكرابيج . وبالجملة فقد قلب الموضوع ، وغير الرسم المطبوع ، بعد أن كان منزلهم محل سلوك ورشاد ، وولاية واعتقاد ، صار كبيت حاكم الشرطة يخافه من غلط أدنى غلطة ، ويتحاماها الناس من جميع الأجناس . وجلساء ومرافقوه لا يعارضونه في شيء ، بل يوافقونه ولا يتكلمون معه إلا بميزان وملاحظة الأركان . ويتأدبون معه في رد الجواب ، وحذف كاف الخطاب ، ونقل الضمائر عن ومنعها في غالب الألفاظ ، بل حتى في الآثار المروية ، والأحاديث النبوية . وغير ذلك من المبالغات وتحسين العبارات ، والوصف بالمناقب الجليلة ، والأوصاف الجميلة ، حتى إن السيد حسين المنزلاوى الخطيب كان ينشئ خطبا يخاطب بها :

يوم الجمعة التي يكون المترجم حاضرا فيها بالمشهد الحسيني ، وبزاويتهم أيام المولد ، ويدرج فيها الإطراء العظيم في المترجم ، والتوسل به في كشف المهمات وتفريج الكرب ، وغفران الذنوب ، حتى إلى سمعت قائلا يقول بعد الصلاة : « لم يبق على الخطيب إلا أن يقول ^(١) اركعوا واسجدوا واعبدوا شيخ السادات !! »

* * *

ولما دخل الفرنسيون مصر كانت له ترجم بعض المواقف المشرفة التي تحمل بسببها كثيرا من الأذى . فقد حدث أن قبض بونابرتة على ابن القاضي التركي وحبسه في القلعة . فتشفع المشايخ عند بونابرتة ليطلق سراحه . وكان السادات حاضرا فضم صوته إلى صوت العلماء وأضاف ^(٢) قائلا : « إنكم تقولون دائما إن الفرنسيات أخباب العثمانية . وهذا ابن القاضي من طرف العثماني . فهذا الفعل مما يسمى الظن بالفرنساوية ، ويكذب قولهم وخصوصا عند العامة » فغضب بونابرتة من كلام السادات واستدعاه إلى مجلسه وعاتبه ولأمره . وحجزه مدة من الليل ، وأخيراً أطلق سراحه وأمره بالانصراف إلى منزله .

ولما نشبت المعارك بين الفرنسيين والجيش العثماني ، ودخل العثمانيون القاهرة وشرعوا في الاعتداء على أموال الناس وأرواحهم ؛ كتب السادات إلى عثمان كتحذرا الدولة الرسالة الآتية :

‘ حسبنا الله ونعم الوكيل ، نعم المولى ونعم النصير . وما هي من الظالمين ببعيد .

(١) الجبرق ٤ / ١٩٢

(٢) الجبرق ٣ / ١٠٣

ظننتُ أنك مُعدّتي أسطوبها ويدي إذا اشتد الزمان وساعدي
فرُميت منك بغير ما أملتسه والمرء يشرق بالزلزال البارد
أما بعد ، فقد نقضت عهدي ، وتركت مودة آل جدني . وأطعت الظلمة
السفلة ، وامتلئت أمر المارقين النفلة ، فأعنتهم على البغي والجور ، وسارعت
في تنجيز مرامهم الفاسد على الفور ؛ من إلزامكم الكبير والصغير ، والغنى
والفقير إطعام عسكريكم الذي أوقع بالمومنين الدل والمضرات ، وبلغ في النهب
والفساد غاية الغايات . فكان جهادهم في أماكن الموبقات والملاهي حتى نزل
بالمسلمين أعظم المصائب والدواهي . فاستحكم الدمار والخراب ، ومنعت الأقوات
وانقطعت الأسباب . فلذلك كان عسكريكم مخذولا ، وبهم عم الحريق كل بيت
كان بالخير مشمولا .

« كيف لا ، وأكابرهم أضرعت السوء للمرتزقة في تضيق معاشهم وأخذ
مرتباتهم ، وإتلاف مآبأيديهم من أرزاقهم وتعلقاتهم . وقد أخفتم البلد بعد
أمنها ، وأشعلتم نار الفتنة بعد طفتها . ثم فررتم فرار القيران من السنور ،
وتركتكم الضعفاء متوقعين أشنع الأمور . فواغوثاه ! واغوثاه ! أغشنا يا غياث
المستغيثين ، واحكم بعدلك يا أحكم الحاكمين ، وانصرنا وانتصر لنا ، فإننا
عبيدك الضعفاء المظلومون ، يا أرحم الراحمين . »

هذه الرسالة كتبت عقب انهزام المصريين في الوقائع التي جرت بينهم وبين
الفرنسيين في مدينة القاهرة ، والتي خرب بسببها معظم أحياء المدينة . وقد
أرغم الأهالي شيخ السادات على أن ينفق على جانب كبير من المجاهدين . فلما
انتصر الفرنسيون فرضوا غرامات على سكان القاهرة ، وفرضوا على شيوخ
السادات ٥٣٥ ألف فرنك .

فذهب إلى داره وصحبه بعض الجنود الفرنسيين لحراسته حتى لا يهرب ،
ثم اعتقلوه في القلعة وكان في نيتهم قتله ، فشفع فيه عثمان بك البرديسي .
واعتقلوا فراشه ومقدمه . وحبسوه في حجرة مظلمة فكان ينام على التراب ،

ويتوسد حجرا . وضربوه ضرباً مبرحاً يومين متتابعين . ثم أنزلوه إلى داره في حراسة شديدة . وكان لديه عشرة آلاف ريال فدفعها للفرنسيين . ثم باع بعض أمتعته ولكن هذا لم يف بالمطلوب . فرجعوا به إلى معتقل القلعة ماشياً وصاروا يضربونه خمسة عشر عصا في الصباح ، ومثلها في الليل . وطلبوا زوجته وابنه فلم يجدوها . فأحضروا مجمل السندوبي تابعه وعذبوه حتى ماين الموت ، فعرفهم بمكانها ، فجاءوا بها وحبسوها معه ، وكانوا يضربونه في وجودها وهي تبكي وتصرخ . ثم تشفع المشايخ في نقلها من عنده ، فنقلوها وبقي الشيخ على حاله . وأخذوا مقدمه وفراشه وحبسوها ، وتغيب أكثر أتباعه واختفوا .

ولما قتل كليبر وخلفه مينو سنة ١٢١٥ هـ أفرج عن شيخ السادات فرجع إلى بيته بعد أن دفع ماسبق أن تقرر عليه ، واستولى الفرنسيون على ضياعه وأوقفه التي كان متنظراً عليها ، وحرموه من مرتباته ، وأمروه بعدم الاجتماع بالناس . وألا يخرج من بيته دون إذن منهم ، كما أمروه بالاعتقاد في أموره ومعاشه ، وأن يقلل من أتباعه .

* * *

وكان السادات^(١) الوفاية يتشبهون بالملوك فيخلعون على أتباعهم الكنى والألقاب مثل أبى الفوز ، وأبى التدانى ، وأبى الإقبال ، وأبى العزم . وكانت لهم مواسم خاصة يحتفلون بها وهي :

(١) الميعاد (٢) مولد المحرم (٣) مولد الحسين (٤) ٢٧ رمضان ، وفيه يمنح شيخ السادات أتباعه ومريديه الكنى .

والطريقة الوفاية التي تنسب إلى مؤسس هذا البيت هي شعبة من الطريقة

(١) انظر ببب السادات الوفاية تأليف توفيق البكرى ص ٥٧ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٩٤ ،

الشاذلية ولهذه الطريقة حزب مشهور هو حزب القتح ، يقرأ في بيت الشيخ كل أسبوع . ولها خرقة صوفية خاصة . ولشيخ السجادة تاج خاص يلبسه في المواسم والأعياد .
أما الزوايا التي تتبعهم فهي :

١ - زاوية الرباط وهي بناحية الخرنفش . وكانت العادة قديما أن من يتولى مشيخة السجادة الوفاية يتوجه إليها ويمضي بعض الوقت في قاعة خاصة . تسمى « قاعة التجلى » حيث تحل فيه الأسرار الإلهية ، كما يزعمون ، ثم يخرج في موكب حافل إلى مسجد الحسين .

٢ - الزاوية الكبرى وهي شرقي الإمام الشافعي ، وقد هدمت في عهد الوالي العثماني عزت محمد باشا سنة ١١٩١ وبني في موضعها مسجد ضخم فخم بأمر السلطان عبد الحميد الأول

* * *

وقد سبق أن ذكرنا أن الناس كانوا إذا دخلوا على شيخ السادات قالوا « يامولاي ، ياواحد » فيرد عليهم بقوله « يامولاي يادائم ، يا على يا حكيم » والآن نريد أن نعرف السر في اختيار هذه العبارات دون سواها ، وقدوفر علينا مشقة البحث أحد شعراء السادات حيث قال :

جعلت مدحك يامولاي أورادا	ياواحد العصر يا من بالتقى سادا
قل يا على تجده ناصرا أبدا	يا دائم السر آباء وأجدادا
وإن يقل قائل ما أصل خيرتها	من دون الأسماء للأستاذ أورادا
فكل لفظ آتى قطب الوفاء به	يدريه محترزا من كان نقادا
إذ كل من ذكر اسمها في تضرعه	لله يطلب معنى ما به نادى
فاختار أسماء مولى ما بها طلب	لأنه فاق أنجبا وزهادا
لاخوف نار ولا في جنة طمعا	بل يرتجى قربه لم يبع إبعادا

أعلى المقامات في التعبيد عندهم
 وشيخنا القطب فوز الأولياء له
 ورب عبد غدارقا لطائفة
 لا جزء في غير الله يملكه
 وأنه كرر المولى للذته
 فيه دليل على إثبات رتبته
 أو واحدا كان لكن لا دوام له
 ودائم لا زوال وهو قابله
 ومن تكن هذه الأوصاف فيه فقل
 أمر الحكيم مطاع لا خلاف له
 وكل شيء ففيه حكمة بلغت
 يافوز من كان للرحمن عبدا
 أعلى المراتب تسليكا وإرشادا
 فقال بل واحد مارمت إلخادا
 وفيه رد على من رام تعدادا
 بكونه لمقام العبد قد عادا
 قطبا إلى أن وفي للجور ميعادا
 فقال بل دائم جودا وإمدادا
 فقال لا ، بل على والسوى بادا
 هو الحكيم وقد وفيت إيرادا
 سلم تجد منه إيجادا وإيجادا
 فضلا وعدلا وإعداما وإيجادا

فالشاعر يقول إن الناس إذا ذكروا الله ذكروه بأسماء وصفات تعبر
 عما تنطوى عليه نفوسهم من رغبة أو رهبة . أما شيخ السادات فإنه
 اختار اسما لا يدل على رغبة في شيء من الأشياء لأنه زاهد إلى أبعد حدود
 الزهد ، ولا يدل على خوف من النار أو طمع في الجنة . وكل ما يحول بخاطره
 هو أن يتقرب إلى الله ، وهذه أعلى مقامات العبادة . وقول شيخ السادات
 « يا واحد » تأكيد منه لوحداية الله ، وأنه لا يشرك به أحدا ، وإقرار منه
 بالعبودية . ولكن قد يفهم من الواحد أنه لا دوام له ، فلذلك أكد دوام
 الله بقوله « يادائم » ثم رفع من شأن الله بقوله (يا على) ومن كانت هذه
 صفاته فهو حكيم ، والحكمة ظاهرة في كل ما يصدر عن الله وهو مطاع يجب
 أن نسلم إليه أمورا

هذه هي الأفكار التي من أجلها اتخذ شيخ السادات شعاره السالف
 الذكر في تحية الناس له ، وفي رده عليهم

وقد ردد شعراء السادات هذه العبارات في شعرهم . مثال ذلك قول أحدهم .

قمت في حضرته مبتهلاً فعمسى أبلغ من قصدي للراما
قلت يا مولاي يا واحد في وصفه يا دائم الفضل دواما
يا على الشأن عن درك السوى يا حكيما أحكم الأمر احتكاما

* * *

وقد مر بنا أن شعراء مصر اجتمعوا حول شيخ السادات محمد
أبي الأنوار ومدحوه بقصائد كثيرة . وقد جمع الحسن البدرى العوضى
جانباً كبيراً من هذه القصائد في كتاب اسمه « اللوائح الأنوارية » والآن نريد
أن نلقى نظرة طويلة على هذه المجموعة من الشعر لنرى ما فيها من الأفكار
التي يمكن أن تضاف إلى خصائص المدرسة العلوية .

فهذا شاعر يقول من قصيدة في مدح أبي الأنوار :

الجوهر الفرد الذى بوجوده أنس الزمان وبهجة الأقطار
عجى رباح الفضل بعد تهتم مروي رياض المجد بعد بوار
قطب الوجود إمام كل موحد سعد السعود نتيجة الأعصار
ملك تدين له الملوك وسيد ورث العلاء عن سادة أطهار
الله توجه بتاج جلالة وكساه حلة هيبة ووقار
فانزل بواديه المقدس إنه يحلى السرور ومنبع الأسرار

فالشاعر يقول إن شيخ السادات هو الجوهر الفرد . والشيعنة يطلقون
الجوهر الفرد على الحقيقة المحمدية .

وشيوخ السادات أحياء رباح الفضل بعدما درست معالمها ، وغفت آثارها .
وهو الذى أعاد للمجد رونقه وبهاءه .

وهو قطب الوجود ، وإمام كل موحد . وهنا تظهر النظرية الشيعية في

الإمامة والإمام . فشيخ السادات الذى هو رئيس البيت العلوى فى مصر ،
هو إمام المسلمين وهو الذى يجب أن يسمع له المسلمون ويطيعوا .

وإنك لتجد هذه الفكرة - أى فكرة الإمامة - أو على وجه أدق
إمامة شيخ السادات واردة فى كل ما مدح به من الشعر . مثال ذلك
قول أحدهم :

وعش زينة للدهر إنك روحه	فأدمت لا يفنى الزمان ولا يمحى
وإنك للدين القويم ابتهاجه	وإنك منهاج الحنيفية السحبا
وإنك للإسلام أعظم ناصر	فواليتيه ودًا وأوليتيه نصحا
وإنك كهف المسلمين وركنهم	وملجأهم فى كل نائبة قبجا
جعلت بهذا العصر للخلق رحمة	أزلت لهم عن كل مشكلة جنحا

فشيخ السادات هو روح الدهر ، وقرة عين الدين الذى أدخل عليه
البهجة والسرور . وهو منهاج الحنيفية ، وحارس الإسلام والمسلمين . وقد
جعله الله رحمة للعالمين .

وقال آخر :

وعلى بنى العصر اصطفاك لرتبة	تركت قلوب عداك فيها النار
السيد السند الهمام المجتبي	صدر الصدور المنتقى المختار
الجوهر الفرد الذى لم تشتمل	أبدأ على أمثاله الأعصار
العروة الوثقى لمعتصم به	الآية الكبرى لمن يجتار
كنّاه مولاه أبا الأنوار إذ	من نوره تتولد الأنوار
ولاه مولاه خلافة آله	فما به شرف لها وفخار
بعلاه آمنّا فن يؤمن ينل	عَدَدنا ونار لظى لها الكفار
يا صفوة الرحمن من أقرانه	يا من له نعم على غزار

فالله اختار شيخ السادات لرتبة الإمامة . فهو الإمام المصطفى الذي
اجتباها ربه . وهو الحقيقة المحمدية ، لا نظيره ولا شبيهه . وهو العروة
الوثقى والآية الكبرى ، والسراج المنير الذي يهدي الناس بضيائه . وهو
مشرق الأنوار ، من آمن به فقد فاز بجنت عدن ، ومن كفر فجهنم
مقره ومثواه .

وقال آخر :

أنعم بها من روضة مأنوسة مخوفة بطوالع الأنوار
أحيا مآثرها الإمام المرتضى صدر الصدور ومطمع الأنظار

وقال آخر :

وأتى أبو الأنوار وارث مجدهم عز البرية فخرها وإمامها

وقال آخر :

يا ابن الأماجد يا إمام المؤمنين فتي وكهلا

فشيخ السادات هو الإمام المرتضى الذي ارتضاه الله واختاره . وهو
إمام المؤمنين فتي وكهلا ، لأنه ورث الإمامة عن آبائه .

وانظر إلى قول أحدهم :

الغياث الغياث يا ابن النبي من عدو وحاسد وغبي
قعدوي يحرف القول عمداً وهو خصمي وليس بالمرضى
وحسود الكذب لاشك مغري من خبيث من فتية الأموى

ومنها :

هو نجل السادات آل وفاء كرم الله وجههم بعلى
آل بيت مبرأون من الرج س بنص في الحكم العربي
ملجأ اللاذنين غوث البرايا مأمن الخائفين من كل شئ
يا إمام التحقيق في كل فن يا مفيد العلوم يا ابن الوصى

أنت حقا باب المدينة للعلم بمحكم الوراثة الشرعي
فالآراء الشيعية ظاهرة في هذه القصيدة ظهورا لاخفاء معه . ففي الأبيات
الأولى نجد تعريضا بالذين قعدوا عن نصره الإمام علي ، وتعريضا بالأمويين .
وفي الأبيات الأخيرة نجد مدحا لآل السادات الذين هم من ذرية الإمام علي .
وقد طهرهم الله من كل رجس كما نص على ذلك القرآن الكريم . وهم ملجأ
اللائذين ، ومأمن الخائفين . وشيخهم الإمام ابن الوصي ، وهو باب المدينة
للعلم ، وهذا إشارة إلى الحديث الذي يرويه الشيعة وهو « أنا مدينة العلم
وعلي بابها » والشاعر يقول إن شيخ السادات ورث العلم عن علي ، أي أن
العلم انتقل في ذريته إلى أن تسلمه شيخ السادات الإمام المرتضى . والوصية
التي ذكرها الشاعر هي الأساس الذي قامت عليه التعاليم الشيعية .
وقال الخشاب :

لو يستطيع لجوده أغنى الوري والعالم العلوي من آلائه
خلف النبي محمد ووصيه نور السراة الغر من أبنائه
لو كان في عهد النبي وجوده أمسى مع السبطين تحت عبائه
شهم عليه الله في تنزيله أثنى فأعيا اللسن حسن ثنائه

فالشاب يقول في البيت الأخير إن الله مدح شيخ السادات في القرآن
الكريم . وهكذا يقول الشيعة في الأئمة . انظر إلى قول ابن هانيء الأندلسي
في للعز لدين الله الفاطمي :

شهدت بمفخر ك السموات العلا وتنزل القرآن فيك مديحا
فالقرآن الكريم مدح أهل البيت حين وصفهم بالطهر والبراءة من الرجس .
والخشاب يؤمن بنظرية الشيعة في الوصية ، ويقول إن أبا الأنوار هو الوصي
ولو أنه كان موجودا في عصر النبي عليه السلام لأدخله مع الحسن والحسين
تحت عبائه . وقد سبقت الإشارة إلى قصة العبادة .

وانظر إلى قول محمد بن شبانة :

لبنى الوفا فى السكون أعلى رتبة
ورثوا السيادة عن على جدهم
هذا هو النسب الذى يعلو على
كالشمس فى أفق السماء ونورها
من مثلهم والعلم ميراث لهم
فهو الخيار بنو الخيار وجدهم
من جاءهم يرجو الأمان بجاههم
بعد النبي وصحبه الأبرار
باب المدينة قاتل الكفار
كيوان والبدر المنير السارى
نفع الأنام وبهجة الأعصار
كالجد حيدرة الرضا الكرار
نخر العلاء وأصل كل نثار
سلمت عقيدته من الأوزار

ففى هذه الأبيات نجد محمد بن شبانة يردد الأفكار التى مرت بنا من القول بوراة آل السادات للإمام على ، والإشارة إلى حديث « أنا مدينة العلم وعلى بابها » وغير ذلك من المميزات التى انفردوا بها ، وأن من أحبهم سلمت عقيدته وصح إيمانه .

* * *

وشيوخ السادات هو المهدي المنتظر الذى يملأ الأرض عدلاً بعد أنفة .
ملئت جوراً . قال أحد الشعراء :

إذا لم يك المهدي هذا تيقنوا ببطلان ماقد يزعمون فلا مهدي
فإن لم يكن أبو الأنوار هو المهدي الذى ينتظره الناس فلا مهدي إذن .
على الإطلاق .

وانظر إلى قول عبد الرحمن الصفاقسى :

وقد بلغت آمالكم سورة الضحى وأوصافكم فى سورة الفيل تذكر
إذا جاء نصر الله ثبت يد العدى وقابلها الخذلان من حيث تنصر
وتبقى لهذا الدين كهفاً وملجأ ورداً به الإسلام يعلو ويظهر

وتبتهج الأيام بالعدل والهدى
ويصبح داعى النصر فى كل موطن
هناك يعلو ديننا بمحمد
سلالة خير الخلق من آل هاشم
فقم يا أبا الأنوار لله حسبة
وكن وانقما بالله معتصما به
فإنك داعى الحق والحق دامغ
وإنك مهدى الزمان فلا تدع
فلا زلت بالمعروف والخير أمرا
وتصبح أهل الفضل بالفضل تفخر
ينادى على الكفار الله أكبر
على دين إبراهيم بالنسخ يظهر
ومن هو السر الوفاى مظهر
فإنك فى كل الأمور المظفر
على ثقة بالفوز والله ينصر
لباطلهم وهو الزهوق المتبر
بمصرك شيئا ماله الشرع ينكر
وتنهى عن الفعل القبيح وتزجر

ففى هذه القصيدة ترى فكرة مهدوية محمد أبى الأنوار واضحة وضوحاً تاماً . وقد أشار الشاعر إلى ماورد فى سورة الضحى من خطاب الله للنبي عليه السلام بأنه ماودعه وما قلاه . وأنه سيعطيه عطاء يرضى معه . وقال إن موقف محمد أبى الأنوار يشبه موقف النبي محمد فى هذه السورة ، أى أن الله سيعطيه ما يرضيه كل الرضا ، فى حين أن خصومه ومنكرى مهديته سيهلكهم الله كما أهلك أصحاب القيل ، وسينصره نصراً عزيزاً مؤزراً ، فيعلو به الدين ، ويملا الدنيا عدلاً وهداية . ثم التفت الشاعر إلى شيخ السادات وأخذ يجرسه على القيام للجهاد فى سبيل الدين ، فهو داعى الحق ، ومهدى الزمان ، الأمر بالمعروف الناهى عن الفحشاء والمنكر .

وهذا شاعر آخر يقول إن شيخ السادات هو الإمام المعصوم :

الإمام الهمام ذو المجد والقدر الرفيع ذو الآيات
وعصمة الأئمة من النظريات الشيعية المشهورة .

ومن زار شيخ السادات فكأنما زار النبي صلى الله عليه وسلم . قال
أحد الشعراء :

(م ١١ - الأدب المصرية)

- ١٦٢ -

لازم أبا الأنوار تحس بعيشة منه هنيئة

ابن النبي فكل من وافاه قد وافى نبيته

وشيخ السادات هو روح الله . قال أحدهم :

شمس الشمس وسر مرآة السنا روح الإله المنتقى من وهبه

جمعت له متفرق الفضل الذي للأولياء عناية من ربه

وقال مرتضى الزبيدي :

هو روح الإله في كل مجلى هو تاج الجلال والعلية

وكثيرا ما شبهوا شيخ السادات بالنبي محمد عليه السلام . من ذلك

قول أحدهم :

رقيت سمي المصطفى وابن سبطه مراتب عز قد غدا فضلها جما

تباوت منها رغم شانيك منصبا مكان رسول الله في هاشم قدما

أويذكرون اسمه كما يذكر اسم النبي محمد . مثال ذلك قول أحدهم :

سريره كسيرته وأسنى فيا حسناه إذ يعنى ويقصد

هذاك السيد السند المفدى أبو الأنوار سيدنا محمد

وقول الآخر :

ألا إن حزب الله حزب محمد ومن ذا لحزب الله في الخلق يغلب

وتظهر في هذا الشعر روح التعصب لآل علي وتفضيلهم على من سواهم ،

من ذلك قول الشاعر :

من قال من خير الورى من آخر وأول

أجبتة مؤرخا خير الورى آل على

وقول الآخر :

أقول لمن ضاهى وسيع رحابهم رحاب على لا يضاهيه مرحب

وشيوخ السادات يعلم الغيب . قال الخشاب :

له قلم بعلم الغيب يجرى وبالأرزاق والقدر المتاح
وزيارة شيخ السادات فريضة كالحج بل أكثر . قال أحد الشعراء :
فلبيته سعى الأفاضل عندهم فرض كفرض الحج في عرفات
والحج مفروض علينا مرة وليبتهم عدد من السكرات
والعلوية ظاهرة ظهورا تاما في قول الشاعر :

أبنا على والجدير بمدحهم في محكم التنزيل دل كلامه
هم صفوة الله التي في نوعنا زهر بنفح الطيب ساد ثمامه
ونتيجة السادات درة عقدتهم ومحمد بدء له وختامه

وفي الشعر العلوي نجد كثيرا من الصور الدينية كالحج والطواف والسعي
والوقوف بعرفات وغير ذلك . قال أحد الشعراء :

ياخير من حجت إليه ركائب الـ فضلا تقبل ركنه المحروسا
وتراهمو يسعون في مرواته وصفاه لا يلقون منه عبوسا
يقفون في عرفات واسع فضله متأزرين من الخشوع لبوسا
بجهاك حط مفتت الأكباد من شط الديار وقد أناخ العيسا
ت هنا بعيد الفطر جاءك زائرا فقريته التسبيح والتقديسا
أرضيت ربك في قنوتك ليله وأغظت في أيامه إبليسا
وقال محمد بن شبانه :

مولي إذا حضر الأفاضل عنده نزلوا نزول الحج في عرفات
يرجون غفران الذنوب جميعها من أكبر الآثام والتبعات

وهنا نجد وجه شبه كبير بين هذه اللدائح وبين اللدائح التي كان ينظمها

الشعراء في الخلفاء والأئمة ، وبخاصة أنها كانت تقال في عيد الفطر أو عيد الأضحى كما كانت الحال مع الخلفاء .

وتكثر في الشعر العلوي الإشارة إلى الآيات القرآنية والاقتباس منها ، مثال ذلك قول القائل :

هذا أبو الأنوار من أنواره أضحت لأسرار الحقيقة ترشد
ضرب الإله بها المثال لنوره في الذكر من زيتونة تتوقد
وقول الآخر :

له في العالمين لسان صدق وحسن لقائه والله يحمده
له قدم صدوق في المعالي ومن مثل ابن خير الخلق مسعد
ومن يرجوه أو يأوى إليه فقد آوى إلى ركن مشيد
وقال آخر :

فصل له شكرا وقم وانحر الفدا وكبر على الأعدا فشانيك أبتـر
وقدزلوا بالعاديات وأهلكوا بقارعة فيها مع الصرصر
وألهامو بالعصر ويل لخسرهم وأحوالهم في سورة الفيل تذكر
والأمثلة على ذلك كثيرة .

وكان الشعراء في مدائحهم لشيخ السادة ينظرون إلى ما نظم في الخلفاء والأئمة ، ويأتون بما سبقوا إليه من المعاني والصور في هذا الباب .

مثال ذلك قول أحدهم :

وأنى الخلافة بل أتت وما لها عنه مفر
وهذا من المعاني القديمة . وانظر إلى قول السفاسى :

هل تفكون أسيرا من قياد أو تجيرون صديقا من معادى ؟
أوتوالون محبا صادقا وده في كل يوم في ازدياد ؟

أو تراعون حقوقاً أوجبت أن تراعى حقها أهل الوداد ؟
يا بني السادات قوموا سرعة وانفضوا عن مضجعي شوك القتاد
يا كرام الحى فاحموا حوزتي وامسحوا عن ناظري كحل السهاد
أنتمو القوم الأولى عاداتهم نصرة العاني وإسداء الأيادي
مبتغى العافين في يوم النداء ملجأ العاصين في يوم المعاد
يا أبا الأنوار من أنواره أشرفت في كل أرجاء بهادي
ياسمى المصطفى خير الوري ياسليل السادة الشم الجياد
يا ولي العهد من بعدهم ياعهاد الخير من قبل العهد
إن هذا الشاعر قلد ابن هانيء الأندلسي في قصيدته التي مطلعها :

امسحوا عن ناظري كحل السهاد وانفضوا عن مضجعي شوك القتاد
بل إنه سطا على كثير من ألفاظه وعباراته ومعانيه . والأمثلة على ذلك كثيرة .

وقد سلكوا مسلك القدماء في الغلو في المدح . مثال ذلك قول أحدهم
سادوا الأنام فلقبوا ساداتها من قبل ما ذر الإله نفوسا
وقول الآخر :

فالناس بالتحميد شرف قدرها والله باسمك شرف التمجيدا
وقول غيره :

جلت مواهبه وحات رت في مناقبه الفكر

* * *

وشيوخ السادات هو الأمين على سر الرسول . قال أحدهم :
وهو الأمين على سر الرسول ومن سواه من سره زهر المنى اقتطفنا

ثنى عليه بقاع الأرض أجمعها وكل حى صفى ذكره ألقا
وحب آل السادات هو الإسلام، وهو الدين الصحيح، والمعتقد الحق.
الذى يؤدى إلى الجنة . وسواه باطل يذهب بصاحبه إلى النار . قال أحدهم :
فهو أهو دينى وعقد ولائى لست عنه أحول دنيا وأخرى
وقال آخر :

آل طه ذخيرتى للمدح فيكم وأرى حبكم هو الإسلام .
مذأتانا إلا للمودة تتلى فهو فينا بفضلكم إعظام .
وقال آخر :

من الذين إله العرش طهرهم ومن أحبهمو لن يدخل النار
وآل السادات أمان الخائفين . قال أحدهم :
هو الأمان إذا جار الزمان وإن حار الأنام فهو السادات آل وفا

* * *

وامتازت مدائح الشعراء لشيخ السادات بالإشادة بكرمه المفرط الذى .
أزرى بكرم حاتم وغيره . قال أحدهم :

أغنى عن الإكسير جابر فضله وكفى ذويه الحل والتكليس
هذا هو الإكسير لو يلتقى على زحل الفقير أعاده برجيس
أحيا بغيث نواله أرض العطا فربت وأصبح روضها مأنوسا
وقال آخر :

يهب الجزيل إلى النزيل ويحتفى بجواره العافى من الأضرار
غيث وغوث لا يضام نزيله كفل للملا بمعامد الآثار .
وقال غيره :

أغنى ذوى الفاقات من كف لها التقبيل عاده .
وسقامهم من راحة سلمت ودامت فى الزيادة .
فيها العطاء سجية ولحاتم منها استفاده .

وقال آخر :

بحر إذا ذكرت مآثر جوده لاحاتم يبقى ولا همماها
وقال غيره :

وبوجود راحتك الشريفة أخصبت للعالمين منازل وديار

* * *

وامتازت هذه المدائح كذلك بالإفراط في الإشادة بعظمة شيخ السادات
وقوة بأسه وهيبته . مثال ذلك قول أحدهم :

خرت لسؤدده الأذقان ساجدة وطاع عن علاه اللين والشرس
وقال آخر :

لولا انحصار الملك فيكم لم تكن في بابكم كل الملوك عبدا
وقال آخر :

تطوف الملوك بأعبائه وتسعى لحرمة إجلاله
وقال غيره :

إذا قابلته ملوك الورى تنجر لهيبته ساجده

* * *

وظهرت في بعض هذه المدائح آثار البيئمة المصرية . مثال ذلك قول القائل :
علت على غيرها أقطار مصر به نخرأ وإشراقها بابن النبي جلى
وقال غيره :

إذا شهبوا في مصر فضلك بالسوى لقد جهلوا والله عزة مقدارك
وقال غيره :

لوجودهم في مصر أوفى نعمة عمت على البلدان والأمصار

سور على مصر رفيع مانع خدمت علاه موانع الأسوار

وقال غيره :

أنارت به مصر السعيدة وازدهت وأصبح فيها للعفاة مقيل

وقال غيره :

وهم روح مصر وقطب رحابها وبهم تم فخرها والنظام

وقال آخر :

عج بالمطى إلى حى حرم لهم من حله ما مسه إضرار
عرج على سفح المقطم نحوهم تر مشهداً سطعت به الأنوار
هو مشهد قد شوهدت أسرارهِ وتعطرت بعبيره الأقطار
هو كعبة طافت بها أهل النهى وسعت إليها بالنصفا الزوار

وقال غيره :

والنيل فى طاقاته مهما نهى مهما أمر

وقال غيره :

أرى عدماً جارا لهم وأظنه بأقطابهم قالوا عليه المقطَّب
تطاول أعلاه ليبلغ شأوهم فقال السها قُصِّرْ لَأَنى أَقرب
المقطب أى المقطم

* * *

وقد بقيت للمدرسة العلوية وستبقى ما بقى حب الناس لآل البيت . حقيقة
إن مدائح الشعراء لآل السادات قد اختفت منذ أمد بعيد لأن هذا البيت
قد فقد مركزه الأدبى ، ولكن الشعراء ما زالوا ينظمون القصائد فى بعض
أصحاب الأضرحة من آل البيت .

ويمتاز شعر هذه المدرسة بصدق العاطفة ، وهو عنصر أساسى من عناصر الإجادة . كما يمتاز بكثرة الإشارة إلى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، والاقتباس منهما وبنوع خاص الآيات والأحاديث التى تمجد آل على وتقدسهم وترفع شأنهم ، وثبتت حقهم فى الإمامة . كما تمتاز المدرسة العلوية بكثرة نتاجها وجودته وبعده عن الصنعة اللفظية . وكان هدفها أولاً التوسل بأصحاب الأضرحة من آل البيت والانتفاع بكراماتهم فى تحقيق الآمال ، والفوز ببركاتهم ، والتقرب إلى النبى صلى الله عليه وسلم بمسح آل بيته . وهذا الهدف ما زال قائماً إلى يومنا هذا .

وأما الهدف الثانى وهو نشر التعاليم الشيعية التى تحصر الإمامة فى أبناء على فلم يظهر بوضوح إلا فى زمن الشيخ محمد أبى الأنوار . وذلك لأنه كان على جانب كبير من الثروة والجاه والنفوذ . وربما كانت له مطامع سياسية كان يحلم بتحقيقها . فقد رأينا بعض الشعراء يخجلون عليه لقب « المهدي المنتظر » الذى سيملا الدنيا عدلاً ورحمة بعد أن ملئت جوراً وقسوة . ويبدو أن الرجل كان على شئ من الاستعداد للقيام بدور سياسى . فقد وقف مواقف مشرفة من حسن باشا الجزائرلى فى موضوع أموال إبراهيم بك . ومن بونابرت فى موضوع ابن القاضى التركى . وفى الرسالة الشديدة اللهجة التى بعث بها إلى عثمان كتيخدا الدولة . وفى انضمامه إلى الشعب فى ثورته ضد الفرنسيين ، وفى إنفاقه الأموال الكثيرة على المجاهدين .

وربما كان حرصه على جمع الأموال والإكثار من العبيد والمماليك يخفى وراءه غرضاً بعيداً ، وهو الرغبة فى الاستيلاء على مقاليد الحكم . وقد سخر الشعراء والأدباء ، ومنهم مرتضى الزبيدى ذو الكلمة المسموعة ؛ للنشر الدعوة لحكومة علوية ، وتمهيد الأذهان لقبول تلك الحكومة وتأييدها ، وتعريف الناس بحقوق آل على فى الإمامة ، وعلى ضوء هذا

نستطيع أن نفهم قول الجبرتي « . . . وصار يلبس قاووقاً بعمامة خضراء تشبهاً بأكابرة الأمراء ، وبعداً عن التشبه بالمعممين والفقهاء والمقرئين » ، وقد كانت أحوال الدولة العثمانية في ذلك الوقت مضطربة كل الاضطراب ، والثورات تعصف بها ، والحركة الوهابية على أشدها . أضف إلى ما تقدم أن نفوذها في مصر كان قد تلاشى تماماً في تلك الفترة . وكان أمراء الماليك يهابونه ويخضعون لأوامره خضوعاً تاماً . ولكن قدوم الحملة الفرنسية وما تلاها من الحوادث التي انتهت بتولى محمد علي حكم مصر قد قطع عليه أحلامه ، وسد كل طريق أمامه .

* * *

وامتازت مدائح السادات خاصة بوجود شبه بينها وبين ما كان يقال في الخلفاء والأئمة . ولا شك في أن بيت السادات قد وجه الشعر في فترة معينة وجهة خاصة من شأنها أن ترفع من مقام العلويين ، وتعيد إلى الأذهان ما كان ينظم في زعمائهم وأقطابهم .

وينبغي أن نلاحظ أن المدرسة البكرية لم يكن لها نظير في جميع أنحاء العالم الإسلامي . في حين أن المدرسة العلوية كان لها أمثال في بقاع كثيرة حينما وجد أشراف ينتمون إلى آل البيت . وبعبارة أدق إن شيخ البكرين لم يكن له منافس في حين أن شيخ السادات كان له منافسون أقوياء في كل مكان تقريباً . ولذلك فزعامة كانت محلية . وينبغي أن نعلم أن مجمل أبا الأنوار ظهر في وقت كان فيه شيوخ البكرين قد وصلوا إلى حالة شديدة من الضعف والتخاذل ، فلم تكن لهم تلك الهيبة التي تتمتع بها أجدادهم منذ أوائل الفتح العثماني إلى نهاية القرن الحادي عشر .

وقد توفي الشيخ محمد أبو الأنوار في أوائل حكم محمد علي . وكانت الدولة العثمانية قد عوضته عن خسائره الكثيرة التي لحقته خلال الاحتلال الفرنسي ، فاستعاد ثروته في مدة وجيزة : ولما مات وضع محمد علي يده على تلك الثروة ، ولم يترك شيئاً لورثته ، لا من الأموال الطائلة ، ولا من الأطنان . وإلى هنا ينتهي الكلام على المدرسة العلوية .

الفصل الرابع

المدرسة الأميرية

سندرس في هذا الفصل الشعر الذى قيل فى السلاطين والأمراء ، والولاة والحكام وأصحاب النفوذ والجاه من مدح أو هجاء أو رثاء ؛ محاولين أن نتبين مدى العلاقة بين هذا الشعر وبين المصلحة الشعبية ، وموقف الشعراء من هذه الناحية .

والملاحظ أن الشعراء المصريين كانوا قبيل الفتح العثمانى ينطقون بلسان الشعب إلى حد كبير . فقد عرضوا بالسلطان الغورى لظلمه وعسفه . مثال ذلك قول ابن إياس :

من دولة الغورى ومن جوره لقد حملنا فوق مالا نطبق
وقد كفى من فعله ما جرى من قلة الأمن وقطع الطريق
وقوله :

سلطاننا الغورى قد جار والصبر منا قد أعيا
وصار فى ذا الجور عمال حتى خرب نصف الدنيا (١)
وقوله :

سلطاننا الغورى غارت عينه لما اشتري ظلم العباد بدينه
لازال ينظر أخذ أرزاق الورى حتى أصيب بأفة فى عينه
ومع أن الشعراء قد عرضوا بالغورى هذا التعريض العنيف ؛ إلا أنهم

(١) إشارة إلى قاعة ثمة اسمها « نصف الدنيا » هدمها الغورى واستولى على ما بها من الرخام سنة ٩١٠ هـ

جميعاً وقفوا في صفه حين خرج لقتال العثمانيين لأن المصلحة الوطنية كانت تقضى عليهم بذلك . فمدحوه بالقصائد الجيدة ، وتمنوا له النصر على أعدائه .
مثال ذلك قول ابن إياس :

قل لابن عثمان إذا قابلته اقبل نصيحة ناصح ودع الطيش
واحذر تعارض شامنا بجهالة يخشى عليك الدغ من ابن الحنش^(١)
وقال :

ياسليم شاه كُفّ عن أخذ مصر بلد شرفت بخير إمام
فهو ششافعى قطب ولى نجل إدريس عمدة الإسلام
هى تدعى كنانة من غزاها قصم الله ظهره بالحسام
فابن إياس يناشد السلطان سليم أن يكف عن غزو مصر ، ويحذره تارة من ابن الحنش ، وأخرى من الإمام الشافعى . ولما تم الغزو العثمانى وسقطت الدولة المصرية ناح الشمرء وبكوا . مثال ذلك قول محمد بن قانصوة :

كان فى مصر ملوك أظهروا فيها العجائب
ذهبوا عنها وصارت دورهم فيها خرائب
وهى أضحت بعد عز قرية فى حكم نائب
وقال بدر الدين محمد الزيتونى من قصيدة زجلية طويلة :

نسأل الله أن يحسن العقابه ويعيد الراجح هو الخاسر
يكشف العار عنا بأخذ التار ويرد الكسره على الكافر
اشتبهى التار لقتلة الغورى ولعللى أبلغ الأوطار
والتهانى ذاك النهار عندى ويغنو على وتر أوطار
بعد هذا ما أخشى غراب البين إن زعق فى ديارنا أوطار

(١) ابن الحنش . هو ناصر الدين ، من أمراء الشام ، وكان قد أوقع بالعثمانيين هزيمة كبرى بالقرب من دمشق .

وقال ابن إياس :

نوحوا على مصر لأمر قد جرى ومصابة عمت بليتها الورى
زالت عساكرها من الأتراك فى غمض العيون كأنها سنة الكرى
وأتى إليها عسكر سيماهمو خلق الذقون ولبس طرورى
لا يعرف الأستاذ من غلمانه وأميرهم بين الأنام تحقرا
جل الإله مصدقا عما حكي فى سورة الروم العظيمة أخبرا
قد أوعد الرحمن وعدا صادقا أن ابن عثمان يلى وكذا جرى

فابن إياس يسكى على سقوط مصر فى أيدي العثمانيين ، وعلى اندحار
الجيش المصرى . وقوله من الأتراك أى من للمماليك الأتراك . ثم يعرض بعساكر
العثمانيين الذين امتازوا بحلق لحام . ويشير إلى ما جاء فى سورة الروم من قوله
تعالى « ألم غلبت الروم فى أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى
بضع سنين ، لله الأمر من قبل ومن بعد » وكان يطلق على العثمانيين اسم
« الروم » لأنهم سكنوا بلاد الروم . ويقول إن الله أخبر فى هذه الآية أن
الروم ، أى العثمانيين ، سيدخلون مصر ويحكمونها . وهذا تفسير لم يقل به
أحد من قبل .

أما محمد بن قنصوة فإنه أعرب عن ألمه وحزنه لأن مصر فقدت سيادتها
واستقلالها ، وأصبحت ولاية عثمانية يحكمها والى ينوب عن السلطان العثمانى .
والزيتونى يتعنى أن يثار للغورى من قاتليه ، ويرى أن عار الهزيمة
لا يحى إلا بذلك . فإن تحقق له هذا فإنه يستحق التهنئة ويقيم الأفراح
والليالى للملاح .

هذا هو موقف الشعراء من الغزو العثمانى . فالى أى حد عبروا عن آلام
الشعب وأحزانه ؟

لقد ارتكب العثمانيون من القذائف ما لم تر له مصر نظيرا من قبل .
قتلوا وأسرفوا فى القتل . وخرّبوا وأمعنوا فى التخريب ، ودمروا وأفرطوا فى

التدمير . هدموا القصور حتى زالت أحياء كاملة . واعتقلوا عددا كبيرا من الأعيان والعلماء والتجار ونفوهم إلى الأستانة ، ولم يرحموا في ذلك الشيوخ الكبار الذين أنهكتهم الشيخوخة وأضناهم المرض . ثم نقلوا عددا كبيرا من الصناع . ونهبوا مقادير عظيمة من التحف والنفائس . فلا عجب إذا تألم الشعب وحزن حزناً عميقاً لهذه الأحداث الجسام التي نزلت به . ولا شك في أن الشعراء كانوا مصبورين لنفسية الشعب إلى حد بعيد .

* * *

ولما مات السلطان سليم فرح المصريون ورأوا في ذلك انتقاماً إلهياً .
انظر إلى ابن إياس حين يقول من قصيدة :

وأراد الخلود من ملك مصر قلت هيهات رمت هذا محالا
طردته عنا سهام الدياجي بدعاء فيها يفوق النبلا
بعد ما جار في الأنام بقتل من جيوش تدك منه الجبالا
فاستجاب الدعاء ومن علينا بانفراج الهموم جبل تعالى
وألتنا أخباره بزوال صيرت رشده حقيقاً ضلالا
زال عنا بموته بجمرة دون حرب وكفى الله المؤمنين القتالا

فابن إياس يعبر عن فرح المصريين بموت السلطان سليم ، ويقول إن سهام الدياجي - أي دعاء المظلومين - هي التي أهلكت سليماً بعد أن طغى وبغى ، وظلم وأفترط في الظلم . فاستجاب الله دعاء المظلومين وأصيب سليم بجمرة أي ورم خبيث قضى عليه . ولكن هل انقضى حكم العثمانيين بوفاة السلطان سليم ؟ كلا ، فنظرة الشعراء كانت محدودة بشخص الساطن المتوفى .

وكذلك نجد المصريين قد فرحوا لموت خير بك أول من ولى حكم مصر من قبل العثمانيين . وذلك نظراً لما سار عاياه في حكمه من الظلم الشنيع

وعبر ابن إياس عن فرح الشعب بقوله :

اعجبوا من نائب في مصرنا خانه الدهر وجازاه العمل
زال عنه الملك والمال معاً وأتاه الموت يسعى بالعجل
وقال على لسانه :

أصبحت بقعر حفرة مرتها لا أملك من دنيای إلا كفننا
يا من وسعت عباده رحمته من بعض عبيدك المسيئين أنا
ولكن بعض الشعراء تجاهلوا المصلحة الوطنية وقبلوا أن يكونوا دعاة
لظالمين فسخروا شعرهم في مدح هذا الوالى . وربما فعلوا ذلك لمنفعتهم الذاتية .
أو دفعاً للشر . وهم على كل حال لم يعبروا عن رأى الشعب .

* * *

ولما آل ملك العثمانيين إلى السلطان سليمان ؛ مدحه الشعراء المصريون .
وكان سليمان قد اشتبك مع المسيحيين في عدة حروب وانتصر عليهم ، وأخضع
بعض البلدان لحكمه . فرأى المصريون في ذلك انتصاراً للإسلام على أعدائه
لذلك فرحوا بانتصار سليمان الذى أعمل سيفه في رقاب المشركين ، وأدخل
بلادهم في حوزة الإسلام . قال محمد بن قانصوة من قصيدة :

أفدى سليمان من مليك ليس له في الورى مقاييس
أنكبرسا داسها وهدت من دوسه وهو خير داييس
ومنه صارت خير دين مدارساً أبحت الكنائس
وبعد في رودس ستبدو وتمحق أهلها النجائيس
وهو بسيف الله نصر في عنق المشركين مايس

لقد نسى المصريون استقلالهم ، وأضحوا ينظرون إلى مصيرهم ،
لا من الناحية الوطنية ، بل من الناحية الدينية . ولما كان السلطان العثمانى
هو القائم بالجهاد ضد المسيحيين ، وهو وحده القادر على حماية المسلمين ؛

لذلك كان احترامه واجباً مقدساً على كل مصري . والخروج عليه كفراً
وبغيّاً . نرى ذلك واضحاً حينما حاول أحمد باشا الملقب^(١) بالخائن الاستقلال
بمصر سنة ٩٣٠ هـ فقد خرج عليه الأمير جانم الحزاوي ونصب علماً سلطانياً
ونادى : من أطاع الله ورسوله والسلطان فليقف تحت هذا العلم . فلبى نداءه
خلق كثير ، وبذلك استطاع أن يقضى على أحمد باشا ويعيد مصر إلى
نفوذ السلطان .

وكان تقديس المصريين واحترامهم للسلطان العثماني يزداد على مر الأيام .
انظر إلى قول أحد الشعراء حين قتل السلطان عثمان وهو :

قتلتمو عثمانكم وخنتمو إمامكم
ألم تخافوا فتنة تاريخها ظلامكم

ونجد الإسحق يصف محدثي الفتنة في عهد الوالي محمد باشا سنة ١٠١٦ هـ
بالخوارج ، فيقول^(٢) : « فما وجدت الخوارج للحرب طاقة » ، وقد وصف
الشعراء هؤلاء الثوار بالبغاة والخوارج . قال أحدهم :

بشرى لمولانا الوزير محمد فهو الذي بذوى المفاسد يفتك
وعلى البغاة له انتصار دائم تاريخه جمع الخوارج أهل كوا
وقال آخر :

إن البغاة المارقين قد رمى رب العباد كيدهم في نحرهم
وقد راعى بونا برت حين جاء إلى مصر هذه الناحية وقدرها حق
قدرها . فتراه يذكر في منشوراته السلطان العثماني مقروناً بعبارات الإجلال

(١ ، ٢) الإسحقى ص ٢١٧ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ المطبعة الشرفية سنة ١٣٠٠ هـ
(م ١١ الأدب المصري)

والتعظيم . من ذلك ما جاء في منشوره الأول : « ومع ^(١) ذلك الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني . وأعداء أعدائه ، أدام الله ملكه » ، « ومع ذلك إن للمماليك امتنعوا من إطاعة السلطان غير ممثلين لأمره » إلى أن قال « والمصريون بأجمعهم ينبغي أن يشكروا الله قائلين بصوت عال : أدام الله إجلال السلطان العثماني » .

ولكن الشعر الذي قيل في السلاطين العثمانيين قليل جداً لا يكاد يذكر . وذلك لبعده المسافة بين شعراء مصر وهؤلاء السلاطين . ومن المؤكد أن شعراء مصر لم يمدحوا أحداً من السلاطين كما يمدحوا السلاطين عبد الحميد الثاني .

* * *

أما العلاقة بين الشعراء والولاة فكانت تختلف تبعاً للظروف . فإذا اشتهر الوالي بالعدل والنزاهة والاستقامة لهجت الألسن بمدحه والثناء عليه وإذا سار على غير ذلك تعرض للهجاء . مثال ذلك أويس ناشا الذي ولى مصر سنة ٩٩٥ هـ ففي زمنه « حصلت ^(٢) الفتن ، وتحركت العساكر ، وقتل من قتل ، وهرب من هرب . وحدثت المطالب وكثرت المناهب من وجوه شتى » فلما مات هجاء بعضهم بقوله :

أهلك الله أويساً إنه جار في الحكم ولم ينش الوعيد
 مذ أتى مصر تجبر واعتدى وبه الظلم تبدى في مزيد
 أهلك الحرث وكم من فتنة أمها بالجهل فيما لا يفيد
 مذ دهاه الموت ما أفلته لا ولا كان له عنه محيد
 خاب سعيًا بوفاة أرخسو ها وخاب كل جبار عنيد

(١) الجبرتي ٣/ ٥ طبع بولاق

(٢) الإسحاق ص ٢٢٢

وكان كثير من هؤلاء الولاة يجيدون فهم اللغة العربية والأدب العربي .
تذكر منهم عبد الله باشا الكبير الذي ولي مصر سنة ١١٤٢ هـ فقد قال
فيه الجبرتي « وكان من أرباب الفضائل ، وله ديوان شعر جيد على حروف
المعجم . ومدحه شعراء مصر لفضله وميله إلى الأدب . وكان إنساناً
خيراً صالحاً ، منقاداً إلى الشريعة . أبطل المنكرات والخطاير ومواقف
الخطايط والبوظ » وقدم مدحه عبد الله الشبراوي بقصيدة نذكر منها :

أقام العدل في مصر وأحيا معالمة بها بعد الدثور
وساس الملك دهرآ فاستقامت بقوة عزمه كل الثغور
ويقضى في البرية لا بظلم يعاب به القضاء ولا يحور
تجمعت المحاسن فيه حتى لعمر أبيك فاق على كثير
سجيته إقالة مستقيل وهمة إجارة مستجير
وإن حادثته في العلم تلقى بحوراً موجهة دُرّ النحور
وإن ساومته شعراً فحدث عن ابن ربيعة أو عن جرير
أدام الله دولته بمصر ومتعنا به دهر الدهور

في هذه الأبيات تأييد لما قاله الجبرتي عن هذا الوالي . فالشبراوي
يشيد بعدل الممدوح وكرمه ، وتمكنه من الشعر ، وإقباله على العلم . قال
الجبرتي « وله ديوان وتحقيقات . وكان له معرفة بالفنون والأدبيات
والقراءات . وللشيخ عبد الله الشبراوي في مدحه قصائد طنانة » وقد
رجعنا إلى ديوان الشبراوي فلم نجد به سوى قصيدة واحدة . فلعل باقي
القصائد قد سقط من الديوان . ثم قال الجبرتي « وأخذ المترجم عن العلامة
الشيخ أحمد العماوي الكتب الستة ، والمواهب ، وألفية المصطلح رواية
ودراية وإجازة » .

ومن هؤلاء الولاة محمد باشا راغب الذى ولى مصر سنة ١١٥٩ ،
ينظم الشعر بالعربية . وألف رسالة فى العروض . وله كتاب « سفينة
ودفينة الطالب » ومنتخبات الوزير محمد راغب . وقد مدحه
الإدكاوى بقصيدة منها :

الوزير المـاجـد المـفـضال وهـبـا الرغائب
والذى من بحر كـفـيـن هـ سحاب الجود صائب
والذى للعلم منـ هـ والندى لم يخل طالب
والذى قد جُمِّعت فى ذاته أسنى المناقب

وقد وصفه الجبرتى بقوله « وكان إنساناً عظيماً عالماً محققاً » .
كان محسناً إلى الأدباء والشعراء ، فلذلك مدحوه . أما مدة حكمه
كلها فتن وقلاقل . وكان هو المحرض على هذه الفتن ، إذ شجى
المماليك ضد بعضهم الآخر ، فنشبت بينهم معارك دامية . وقد
الشعراء ذلك لأن هذه الفتن كانت وبالاً على المماليك وحدهم فقد أضر
وهذا يتفق مع مصلحة الشعب . وهذه الفتن والمعارك سببها التنازع
السلطان ، والطمع فى التملك ، ورغبة طائفة معينة فى الاستئثار
بالبلاط .

ومن لهجت الألسن بمدحهم على باشا الحكيم الذى ولى مصر
الاولى سنة ١١٥٢ هـ والثانية سنة ١١٦٩ هـ وفيه يقول الجبرتى :
أيامه أمناً وأماناً . والفتن ساكنة والأحوال مطمئنة « وقال « وسـ
للعهودة ، وسلك طريقته المشكورة المحمود . فأحيا مكارم الأ
وأدّر على رعيته الأرزاق بحلم وبشر رُبى عليهما فكانا له
وصدر رحيب لا يضيق بنازله ذرعاً » وقد مدحه الإدكاوى بـ
نذكر منها :

ألا أيها الوزير ياسمى القسـد ر ومن أيد الإله فخاره
 والجليل الكبير والفاضل . النجـريـد ر عين الملا وصدر الوزاره
 والمشير المشـار فى دولة المجـد د إليه حقاً بكل إشاره
 والكريم المهيمـن فى ذات مولا ه إلى كل بأس ديناره
 والذى جـل الإله به الدهـر ر فأضحى فريده مختاره
 والسنى الأخلاق والطاهر الآء راق لله ما أعزّ نجاره
 والوفى الحفى قولاً وفعلـاً كم طريد لجأ إليه أجاره
 والمشير الحروب فى نصر دين الله ه بالسمر والظبي البتاره
 والمجلى الكروب إن أدهش الـ أبطال وقع العسالة الخطاره
 كم له من وقائع فى أعادى الله ه ذاقوا منه ردى وخساره
 فسل الفرقة الروافض تنبـيـك ك ببأس له يقـد الحجاره
 من سطاها بالسنة اعتصموا منـ ه فأولاهم الأمان بشاره
 وسل المشركين كم شن فيهم وعليهم من غارة بعد غاره
 كم صياص قد هدها ونواص مدها كالتيوس وقت الجزاره
 فجـزاه الإله عن نصره الدين جزاء ينى بربح التجاره

..... الخ

وقد كان على باشا الحكيم قائداً مقداماً ، حارب فى إيران وأوربا
 وظفر بالنصر تلو النصر . لذلك رأينا الادكاوى يتغنى فى شعره بهذه
 الانتصارات .

فما تقدم نرى أن شعراء مصر فى ذلك الوقت لم يكونوا مجرد مادحين
 مأجورين ينظمون القصائد فى مدح الظالمين . بل كانوا معبرين عن رأى
 الشعب فمدحوا من استحق المدح ، وهجوا من استحق الهجاء .

نتقل بعد ذلك إلى العنصر الثالث الموجه لهذه المدرسة ، وهو عنصر المماليك . وكان هؤلاء القوم في شغل شاغل عن الأدب وأهله بالحروب والفن والدسائس التي لم تخمد بينهم قط . وكانت الدولة العثمانية تعمل على تمزيق شمل المماليك وإضعافهم بإثارة هذه الفتن فيما بينهم .

وكان الشعب المصري يصاب من جراء هذه المعارك بخسائر فادحة متلاحقة في الأنفس والأموال فمن لم يمت قتلا مات جوعاً ، ومن سلمت دأره نهبت أمواله . وقد ظهر أثر ذلك في الشعر وبخاصة عند الشاعر حسن البدرى الحجازى الذى جعل هذه المعارك وما يترتب عليها من تخريب وتدمير موضوعاً لشعره . مثال ذلك قوله فى فتنه وقعت سنة ١١٢٢ هـ وهو :

دامت عليها مدة مديدة	فى كل وقت هو لها يجدد
أيوب والإفرنج والباشا كذا	محمد الصعيد بيك الأفسد
قد فعلوا مناكرا شنيعة	بأهلها تفت منها الأكبد
ضرب مدافع ودور حرقت	وسادة قد قتلت وأعبد
وفى الرمايا القتل والنهب فشا	والجوع والظما ومالا يعهد
وجلة القول عن الذى جرى	لا تسألن فشرحه لا ينقد
والعلماء أهل الضلال والردى	لهم أباحوا كل مالا يحمد
وبعد ذا أيوب والصعيد مع	من صحبافروا بليل لا هدوا
ودور أيوب جميعا نهبوا	نهباً ذريعا ماعليه أزيد
ودور من ناصره حتى غدا	للجوم فيها مقعد ومرقد
وبعد الإفرنج جبراً قطعوا	وكل من شايعة قد أخذوا
والباشا المعكوس قهراً أنزلوا	من قلعة ولعنة قد زدوا
وابتهجت مصر وسر أهلها	وانشروا وانسطوا وعيدوا
تبارك الله مبيد من طغى	ومن بنى ومن نكيرا يقصد

عرض حسن البدرى الحجازى فى هذه القصيدة بالعلماء ووصفهم بأنهم
أهل الضلال . وذلك لأن كل فريق من المتخاصمين استطاع أن يأخذ من
العلماء فتوى بجوار قتال الفريق الآخر تحت التهديد والوعيد . والباشا الذى
أشار إليه الشاعر هو خليل باشا الذى أوقد نيران هذه الفتنة الكبرى التى
استمرت طويلا ، وعانى الناس فيها كثيرا من البلاء .

* * *

وقد اشتهرت قلة من هؤلاء المماليك بحسن السيرة . نذكر منهم إسماعيل
بك إيواظ المتوفى سنة ١١٣٦ هـ فقيد وصفه الجبرتى بقوله « وكانت أيامه
سعيدة ، وأفعاله حميدة ، والأقاليم فى أمن وأمان من قطاع البلد وأولاد
الحرام . وكان صاحب عقل وتدبير ، وسياسة فى الأحكام ، وفطنة وفراسة
فى الأمور . ورثاه الشعراء بمرث كثيرة » نذكر منها :

وكان جديراً بالرئاسة والعلا	فقد سار فينا سيرة سارها عمر
وكان له حزم ورأى ومنعة	ولكن إذا جاء القضاء على البصر
به غدر الجبار جرّكس ما كرا	فعما قليل سوف يجزى بما مكر
أسرّ له كيذا به كان حتفه	بديوان مصر بئس والله ما أسر
فقطعه إرباً وسيق الجنة	وقاتله ظلما يساق إلى سقر
فمن بعده الأذنان فوق الروس قد	علت وعلى الأشراف قد جاء محتقر
تقدمت الأنزال لما تأخرت	صناديدها هذا لعمرى من الكبر
ألا فى سبيل الله قامت قرودها	ونامت سراحين المعارك فى الحفر
فأين جبان القلب من أسد الشرى	وهيأت أم أين الدوات من الصور

وقال آخر من قصيدة :

يا عين جودى بدمع هامل ندما على الذى كان فى مصر لنا سنداً

يا أهل مصر بقاء واندبوا رجلا مهذبا مثله في العز ما وجدنا
فكم أغاث فقيراً من ظلامته وأبدل الجور عدلاً والفسوق هدى
فألان حق لكم ذوب الفؤاد أسي فقد فقدتم وحق الله كل ندى

ولما بلغ خبر وفاته أهل مكة والمدينة حزنوا حزناً شديداً ، وصلوا عليه
صلاة الغائب . ولا شك في أن هذا الشعر الذي نظم في رثاء إسماعيل إيواظ
يصور نفسية الشعب الحزين الباكي أحسن تصوير . ويعبر عن حقه على
قاتله والرغبة في الانتقام منه . وفي القصيدة الأولى يتألم الشاعر لما وصلت
إليه أحوال البلاد بعد مقتل إسماعيل إيواظ من اختلال الأمور ، فقد ارتفع
الأوغاد والسفلة ، وتصدر للحكم من لا ضمير له ولا ذمة .

* * *

واشتهر بعض المماليك بميله إلى الأدب وتشجيعه للأدباء . من هؤلاء الأمير
كتخدا رضوان الجلفي المتوفى سنة ١١٩٢ هـ وفيه يقول الجبرتي « واعتكف
المرجم - يعنى الأمير رضوان - على لذاته وفسوقه ، وخلاعاته وترهاته .
وأنشأ عدة قصور وبالغ في زخرفتها وتأنيقها ، خصوصاً داره التى أنشأها على
بركة الأزبكية . فكان ينتقل فى تلك القصور ولا سيما فى أيام النيل ويتجأهر
بالمعاصى والراح ، والوجوه الملاح . وتبرج النساء ومخاليع أولاد البسند ،
وخرجوا عن الحد فى تلك الأيام . ومنهم أصحاب الشرطة من التعرض للناس فى
أفاعيلهم . فكانت مصر فى تلك الأيام مراتم غزلان ، ومواطن حور وولدان
فكاً نما أهلها خلصوا من الحساب ، ورفع عنهم التكليف والخطاب . وقصدته
الشعراء ومدحوه بالقصائد والمقامات والتواشيح وأعطاهم الجوائز السنية .
وداعب بعضهم بعضاً فكان يغرى هذا بهذا ، ويضحك منهم ويباسطهم .
واتخذ له جلساء وندماء ، منهم الشيخ على جبريل ، والسيد حمودة السديدي ،
والشيخ مصطفى اللقيمى الدمياطى صاحب المدامة الأرجوانية فى المدائح

الرضوانية . وامتدحه العلامة الشيخ يوسف الحفنى بقصائد طنانة . وللشيخ
عمار القيروانى مقامه مدحا فى المترجم ومداعبة للسيد حمودة السيدى المحلاوى .
وأجابه بأبلغ منها مقامه وقصيدة من رويها أديب العصر الشيخ قاسم بن عطاء
الله المصرى ، والأديب الفاضل الشيخ عبد الله الإدكاوى ، والعلامة السيد
قاسم التونسى . وألف فيه الشيخ عبد الله ككتابا سماه « الفوائض^(١) الجنانية
فى المدائح الرضوانية » جمع فيه مامدح به الأمير رضوان من قصائد ولطائف
وتواشيح .

وقال الجبرتنى « وأنشأ - يعنى الأمير رضوان - قصرا فى الأزبكية له
قباب عجيبة الصنعة ، منقوشة بالذهب واللازورد ، والزجاج الملون والألوان
الزاهية ، والصنائع الدقيقة . وبنى قصراً آخر مطلا على الخليج الناصرى
وبوسطه بحيرة تمتلئ بالماء من أعلى وينصب منها إلى حوض من أسفل ،
ويجرى إلى البستان فى سقى الأشجار ، وبنى قصرا آخر بداخل البستان مطلا
على الخليج . فسكان يتنقل بين هاتيك القصور وبخاصة فى أيام النيل .

وإذا استعرضنا المدائح الرضوانية ألفيناها تزر بزكر الرياض والغياض
والنسيم العليل ، والهواء البليل ، والأزهار والأطياف ، والأنس والطرب ،
والفرح والسرور ، والخور والولدان ، والأدواح والأغصان ، والأشجار
والأوراق ، والحسن والجمال ، والروائح الزكية ، والسكاس والطاس وغير
ذلك مما أوحى به البيئة . مثال ذلك قول مصطفى أسعد اللقيمى الدمياطى
المتوفى سنة ١١٧٣هـ

بشرى الربيع الزهى وافت بشائره وعن حلاه البهى نمت سرائره
ونشر روح الصبا أهدي لنا خبرا من طيبه فاح فى الآفاق عطره

(١) منه نسخة خطية بدار الكتب تحت رقم ١٤٨٧ - أدب

ومالت القضب والأطيار قد صدحت
وجاء في حُلَّة الإبداع مبهجاً
فسر مقدمه الحالى أبا شجن
وروحه بمعاني الحسن قد علقت
وروضة لنجوم الزهر جامعة
قامت بها أمراء الدوح خاطبة
رام الخلافة كل إذ علا وسما
قالورد قام بدعواها فشوكته
والبتان وافي بتاج الملك منتصباً
والأقحوان بدا يزهو بهيجته
والنرجس الغض يرنو نحوها شزراً
قال الشقيق حويت الفخر أجمعه
والملك حق الذي تسمو مفاخره

وهكذا استمر الشاعر في سرد مناظرة بين الأزهار المختلفة ، ثم تخلص
من ذلك إلى مدح الأمير رضوان .

وله من قصيدة أخرى :

وهات لي حديث الازبكيه وما حوت أدواحها الزكيه
حسنًا زهت أرجاؤها السنيه إذ لاح في غرتها البهيه
قصور رضوان العلا والمجد

يا حبذا معاهد حسان يغنيك عن وصني لها العيان
قد حل فيها الحور والولدان حصباؤها الياقوت والمرجان
فانظر تراها جنة كالخلد

فكم بها من دوحة أنيقه وروضة أغصانها وريقه

وربوة أنهارها غديقه ومرجة أزهارها عبيقه
من نرجس وسوسن وورد
الح

والأمر الثاني في هذه المدائح هو احتواؤها على وصف القصور التي
شيدها الأمير رضوان . مثال ذلك جمودة السديدي :

بناء كأن المجد هندس شكله بروض رياض راق فيه غدير
وضاءت مبانيه على قبة السما وأضحت أيادي النصر فيه تشير
إلى اليمين والإقبال والسعد وللتي ووجه التهانى بالأمان جدير
يفوق على أعلى السماكين نوره كذا البدر من أنواره المنير
فليس يرى في مصر مثل بنائه وليس يحاكي حسن ذاك قصور
ويشرح منا الصدر رونق حسنه كأن سناه بالدواء خبير
لقد خلته دار النعيم لأنه به الخور كم زفت لهن بدور

فالشاعر يقول إن هذا القصر بلغ أقصى درجات الفخامة والإتقان .
والجمال . ولا يوجد في مصر كلها ما يضارع قصر الممدوح في العظمة والسمو
والحسن . وهذا القصر كأنه الجنة لما به من أنواع الترف وأسباب السعادة .
واللذة ، ولما به من الخور والولدان ، والجداول التي تجري من تحته ،
والحدائق التي تحيط به .

والأمر الثالث هو الإشادة بمناقب الممدوح وخاصة ما عرف عنه من
كرم . مثال ذلك قول يوسف الحفناوى للتوفى سنة ١١٨٧ هـ :

مولاي بل مولى الأنام وملجئ رَضوانَ ذى الجاه العلى الأرفع
غوث العناة وغوث كل مؤمل وآفى الرحاب بذلة وتخصُّع
عند العطاء يريك بذل يمينه سمحاً سحاب جوده لم تقلع
بطل إذا لمعت بوارق سيفه غربت صوارم كل شهم أشجع

تغنيه شدة بأسه وسطاد عن حمل الظُّبِّي بل ذاك أعظم موقع
مولى إذا شاهدته وسمعتة أغناك عن مرأى سواء ومسمع
أنست به الأيام ما قد أسلفت من كل قرم أو جواد مسرع
من أين للأمم السوالف سيد بالبشر يلتقى الوافدين إذا دعى
لو يبذل الدنيا استقل عطاءه لرفيع همته التي لم تشفع
أو أين للجلفى قرم مشبه يردى العتاة بآسه المترفع
هيئات لم تلد النساء مثاله وسواه بالعلياء لم يتمتع
وهكذا كل ما نظم في رضوان من المدح لم يخرج عن هذه المعانى .
واشتملت هذه المدائح كذلك على الغزل ووصف الحمر . مثال ذلك
قول أحدهم :

في حب ريم من الأتراك منفرد في الحسن واللطف زان الخلق بالخلق
ما ماس من خفر يثنى معاطفه إلا اختفى منه غصن البان في الورق
ولا بدا وجهه في ليل طرته إلا أراك سناه الشمس في الغسق
إن فاه مال إليه العقل مخبطاً فها بسمع لشهى اللفظ مسترق
بدر أدار من الصهباء شمس ضحى يلوح لألأوها في الكاس كالشفق
يسعى بها وسلاف التيه يعطفه ما بين مصطبج منها ومغتبج
يلقى على كأسها من نور وجنته أشعة قد هدتنا أوضح الطرق
راح إذا مازجتها الراح من فمه تعود سكرى بذاك القرقف العبق
وهذا الشعر من وحى البيئة . فقد انتشر الغزل في فتيان الترك وفتياتهم
في ذلك العصر .

ومن أمراء المماليك الذين ظفروا بحظ وافر من مدائح الشعراء :
عبد الرحمن كتحدا المتوفى سنة ١١٩٠ هـ صاحب المبانى الكثيرة التي أشرنا
إليها حينما تكلمنا عن الحالة الاجتماعية . فمن ذلك قول الإدكاوى يمدحه
ويهنئه ببناء شيدته :

أثوس أشرقني أم نجوم أم وجوه بها تزلو الموم
وقدود تميم أم ذى غصون فى رياض أمالهن النسيم
وجنان تزهو وإلا بناء شاده للمجد الهمام الكريم
الذى عز أن يدانيه خلق فى المعالى وهل يدانى العظيم ؟
والذى مخص بالفخار ولكن بره للعقا بر عميم
هو عبد الرحمن ذو المنصب الشامخ دامت له المعالى تروم
سیدی هكذا تكون المباني فاطرح ذكر ما بنته الروم
مجلس زخرفته كف صناع أحمل الروض عقده المنظوم
مجلس طائر السرور لديه أبد الدهر ساجع لا يريم
مجلس فيه النواظر ملهى وبه الحظ والهناء مقيم
بالبناء الجديد أسعدك الله ولازلت فى نعيم يدوم

* * *

ومن شجعوا الأدب الأمير جاویش الخربوطلى . ولما زوج بنته لعلی
بك الكبير نظم الشعراء قصائد فى مدحه وتهنئته . فمن ذلك قصيدة
للادكاوى مطلعها :

وصل الحبيب وصح منه الموثق واغتاض عاذلى الجهول الأحق
ووفى بموعده لهذا لم أقل وعد الزيارة قلبه المتعلق

ثم تخلص من الغزل إلى المدح فكان مما قاله :

أعنى أمير المجد مأمول الجدا من أمه لاشك فهو موفق
ذاك الأمير على المقدار من بلواء عليها السيادة تخفق.

ذو العزة القعساء والهمم التي بذيوها راحى المنى يتعلق

.... الخ

أما بعد فليس هذا الفصل جديداً في الأدب ، وإنما هو امتداد لما نظمته
الشعراء في الخلفاء والملوك والولاة والإمراء والوزراء .

ويبدو مما مر بنا في هذا الفصل أن هذا الشعر لم يندثر في خلال العصر
العثماني كما يتوهم الناس ، بل ظل محتفظاً بمكانته التي شغلها من قبل .
وهو في معظمه جيد العبارة ، قوى الأسلوب ، بعيد عن التكلف ، يحمل
طابع البيئة المصرية .

الفصل الخامس

المدرسة الشعبية

هذه مدرسة قديمة عرفت في مصر قبل العصر العثماني . وفي مطلع هذا العصر نرى من شعرائها :

١ - ابن إياس الحنفى المتوفى سنة ٩٣٠ هـ فقد نظم شعراً كثيراً باللغة العامية في أغراض مختلفة . مثال ذلك قوله :

كان ابن عثمان مذجا مصر مثل الضيف رحل وولى علينا كل صاحب حيف
مباشرين يجوروا فى الشتا والصيف أطراف اقلامهم تفعل فعال السيف
فى هذين البيتين صور ابن إياس آلام الشعب وماعانا من ظلم الحكام
وعمال الخراج الذين لا ينقطعون عن تحصيل الأموال حتى استنزفوا دماء
المصريين وأذاقوهم الجوع والخوف . وفى قوله « أطراف اقلامهم تفعل
فعال السيف » تصوير رائع لإفراط العمال فى إيقاع المظالم بالشعب .

٢ - ومن معاصرى ابن إياس ، زجال مشهور ؛ هو بدر الدين الزيتونى
(٨٣١ - ٩٢٤ هـ) كان أحد نواب السادة الشافعية ، فاضلاً عارفاً بصناعة
القضاء والتوقيع ، ماهراً فى الخطب ، فكه المحاضرة ، كثير العشرة للناس ،
علامة فى فن الأزجال ، والموشحات ، والمواليب ، وكان وكان ، والقوما .
وله قصيدة طويلة من فن الزجل فى مائة وعشرين بيتاً ، رثى فيها السلطان
الغورى وسرد ما حدث من المعارك بين الجيش المصرى والجيش العثمانى ،
نذكر منها :

غربت شمس دولة الغورى وابن عثمان نجمو طالع ساير
وبهذا رب السما قد حكم والقلاك دار ولم يزل داير

خامس عشر من ربيع آخر تسعمائة اثنين وعشرين عام
ورخوها من هجرة الهادى شافع الخلق فى نهار القيام
كان خروج السلطان بتجريده لابن عثمان طالب بلاد الشام
والأماره فى خدمتو موكبين بالممالك والطلب تتفاخر
وخروج الجميع من القاهره كان بتقدير الواحد القاهر
فى محفه خرج معو القاضى وكاتب السر المنتخب محمود
والخليفة المتوكل ولد يعقوب هو محمد فعلاو الجميل محمود

..... الخ

وقد حرص الزيتونى على أن يسجل فى هذه القصيدة كل ما شاهده منذ
خروج الغورى إلى اللحظة التى قتل فيها . وحدثنا عن ألمه وحزنه لما حل
بالجيش المصرى من هزيمة . ثم عزى نفسه بذكر القواد والملوك الذين ماتوا
وذهب ملكهم وأصبحوا فى ذمة التاريخ من أمثال سليمان الحكيم، والفرد
وكمرى أنوشروان، والاسكندر الأكبر، ونلاحظ أن حبه للتسجيل
التاريخى قد غاب عليه .

ولما مات بدر الدين رثاه ابنه محمد بزجل نذكر منه :

يحق لى أن أرثى لموت والدى كان أفصح النظام وعقلور جيح
فى درج الاكفان للقيامه اندرج واجب على فقدو بعزى أصبح
كان والدى فى فن الأزجال تقصدو حفاظ مصر والكل بيه يعتنون
وفى جميع العلم مالو نظير فقيهه مدرس فى جميع الفنون
..... الخ

ومما هو جدير بالذكر أن استخدام الشعر الشعبى فى الرثاء قد كثر فى هذا
العصر، كما انتشرت النساء اللاتى احترفن التعديد وهو نوع من الشعر مازال
حتى أيامنا هذه ينشد فى المآتم .

وفي الزجل المتقدم يذكر محمد بن بدر الدين الزيتوني بعض مناقب والده ومفاخره . فيقول إن والده يستحق الرثاء لأنه كان شاعراً مجيداً ، ذا عقل راجح ، وفكر سديد . وكان مشهوراً بفن الزجل ، إليه تشد الرحال . وكان الناس يعنون بسماع أزجاله وحفظها . ويصف والده بأنه العالم الذي لا يشق له غبار ، والفقير البارع ، والمدرس المجيد في جميع أنواع العلوم والفنون . ويقول إن موته خسارة كبرى ، يستحق أن يلطم من أجلها ويهتك رافعاً صوته بقدر ما يستطيع .

* * *

وروى ابن إلياس في حوادث سنة ٩٠٩ هـ أن الناس خرجوا للفرجة على الاحتفال بسفر الحمل ، وكان احتفالاً مشهوداً . وصنف العوام رقصة وهم يقولون :

بيع اللحاف والطراحه حتى أرى دى الرماحه
بع لى لحافى الخمل حتى أرى شكل الحمل

فقد بلغ من روعة الاحتفال وتهافت العامة على رؤيته إلى درجة أنهم كانوا على استعداد لبيع فراشهم وغطائهم وهما أعز ما يملكون ، أو هائل ما في بيوت الفقراء من الأثاث ، وذلك ليتيسر لهم الخروج للتمتع بمشاهدة هذا الموكب الفخم . وانطلقوا يرقصون ويغنون بهذا الغناء .

وفي حوادث سنة ٩١١ هـ كثر الحريق بالقاهرة بسبب وجود الدريس في منازل المماليك ، وكانوا قد أفرطوا في خزنه . وشرع الوالى يقبض على الناس ويرغمهم على نقل الدريس بعيداً عن مواطن الحريق . فتعطلت أعمالهم ، وصنفوا رقصة وهم يقولون :

اهرب يا تعيس والا يحملوك الدريس
(م — ١٣ الأدب المصرى)

فلم يجدوا أمامهم سوى الهرب من حمل الدريس ، إذ لم يكن في قدرتهم أن يفعلوا شيئاً غير ذلك ، فن اختفى استراح ، ومن ظهر سخر في نقل أحوال الدريس . ويبدو أن العامة قد واجههم عناء شديد وبلاء عظيم في هذه الحادثة فتحركت مشاعرهم بهذا الغناء .

وفي حوادث سنة ١١٣١هـ خلع المماليك الوالي التركي عقب فتنة كبرى سالت فيها الدماء وتناثرت الأشلاء ، وخربت دور كثيرة . وكان هذا الوالي هو مدير تلك الفتنة ، فلما خلع اجتمع عليه الأولاد الصغار وأخذوا يرقصون ويغنون بصوت مرتفع قائلين :

ياباشا ، ياباشا ياعين القميلة مين قال لك تعمل دى العميلة
ياباشا ، ياباشا ياعين الصيرة من قال لك دبر دى التدبيره

* * *

ومن أنواع المواليد التي عزفت في مصر قبل العصر العثماني وانتشرت انتشاراً كبيراً في خلاله :

١ - القرقيا : وهو ما يتناول الهزل

٢ - البليق : ويستخدم في الغزل

٣ - المكفر : بكسر الفاء ، ويستخدم في الوعظ

فن المكفر قول محمد سالم الحفناوى المتوفى سنة ١١٨١هـ

يامبتغى طرق أهل الله والتسليك دع عنك أهل الهوى تسلم من التشكيك
إن أذكروني رد المعترض يكفيك فاجعل سلاف الجلالة دائماً فيك
وهذه المواليد في الوعظ والإرشاد . فهو يخاطب من يريد الوصول إلى الله وسلك طريق المتصوفة والانخراط في صفوفهم ، وينصحه بترك الاعتراض على الناس وبمداومة ذكر الله .

وقد استخدم محمد البكرى المتوفى سنة ٩٩٤هـ الموشحات في الدعوة

شرب القهوة مثال ذلك قوله :

أدر القهوة فى كأس البها
قهوة البن وناهيك بها
هى حل مانهى عنها نهى
فاسقنى يا صاح

شئف الكاسات واسمع ما أقول
إنها شرب الأجلاء الفحول
أولياء الله أرباب الوصول
لحمى الفتاح

ما علينا من عذول جاهل
مفتى زور كلام باطل
خامل الذكر وميت زائل
راح مع من راح

فى هذه الموشحات تصوير للنزاع العنيف الذى نشب بين أنصار شراب
القهوة وخصومها . وقد حاول السكزى أن يتحدى هؤلاء الخصوم ، فطلب
من الساقى أن يدير عليه القهوة فى الكؤوس الجيلة . ثم ذكر أن شراب
القهوة لذيق جدا ، وحلال عند أرباب العقول السليمة ، والقهوة شراب
الأكابر وذوى المراتب الرفيعة من أولياء الله المقربين إليه . ويقول إنه
لا يكثر بكلام الجاهل الذى يلومه على تعاطى هذا الشراب ، والذى يحرمه
مستنداً إلى أدلة فاسدة وآراء باطلة . وهذا الجاهل نكرة لا يعرفه أحد ، ولا
يسمع به إنسان ، فسكأنه فى عداد الأموات . وهذه الموشحة جيدة التركيب
قوية الأساليب ، واضحة العبارة ، مليحة الإشارة .
ومن موشحاته التصوفية قوله :

— ١٩٦ —

طلعة المحبوب كل القمر
هكذا هيمت كل البشر
كيف لا تسرى بكل الصور
وهم حالات

وحدت معنالك عيني نظرا
قال لي قلبي شهدت الأثرا
ما تراني عين سعدي ما ترى
وحدة بالذات

زال لبسي حيث نفسى أعربت
وكذا شمسى بأفتى غربت
مثما روى بروحي طربت
والهوى لذات

.... الخ

فالبكرى يقول إن الله تجلى في مخلوقاته فهو كالقمر الذى هام الناس
بجبهه والمخلوقات تحيط به إحاطة الهالة بالقمر . وهو واحد بذاته وصفاته .
ولما أدرك هذه الحقيقة زال من قلبه كل شك ، وامتلأ فرحاً وسروراً ،
ونعم بهذه اللذة الروحية التى غرق فيها .

* * *

ومن الشعر الشعبى الذى وصل إلينا من هذا العصر مجموعة أعوانها
« الروض الوضاح فى نهاية الأفراح ، المسمى بإجماع الشمل فى فن خيال الضل »
وهذا النوع من الشعر التمثيلى الذى يشترك فى إلقاءه بضعة أشخاص يمثلون
موضوعات مختلفة ، ويقفون فوق منصة مرتفعة وراء ستار ، مستخدمين

بعض آلات الطرب ، ويرقصون ويغنون ، ويقومون بحركات بهلوانية
كالتى تشاهد فى الأراجوز . ومما جاء فى هذه المجموعة :

عن خيال الفضل دايماً محتجب فانتبه يامن غفل عَنُو ونام
تلتقى هزلو وجدوشى عجب وعبارات شبه الاحلام فى المنام
والمرقص من ورا الستراحتجب والشخوص تحكى شخوص هذا الأنام
كان هناك مرقص وستائر وتمائيل دقيقة الصنعة ، وصور تشبه صور
الناس والحيوانات والمباني والحدائق وغيرها .
ومنها :

ليلة سعيدة عند ما قد رأيت أهل الأدب يحكو بدور الكمال
لما طلبتوني إليكم أتيت للعب والتفرج وفن الخيال
ياسادقى أنى بكم اقتديت يا من حويتو الفخر والامتثال
ربى يفرح قلوب الجميع بزيارة النبی الهادى ودار السلام
ياسامعين قولوا مدد يا حسين والفاطمه اقروها لبنت الإمام
فمن هنا نرى أن اللاعب قد بدأ التمثيل بتحية الناس الذين دعوه ليعرض
عليهم ألعابه . وقد ذكر أنه لى دعوتهم وحضر ليدخل على قلوبهم الفرح
والسرور ، وليطلمعهم على فن خيال الظل . وقال انه يتخذ من الحاضرين
قدوة حسنة له فى حياته . فهم أهل الفضل والأخلاق الحميدة ، ثم سأل الله أن
يوفقهم إلى زيارة النبی صلى الله عليه وسلم ، وطلب منهم أن يلتمسوا العون
من الحسين ، وأن يقرأوا الفاتحة لبنت الإمام ، أى للسيدة زينب . ومنها :

وبعد هذا انتظروا أشياء عجب فى الأدب والحظ والانشراح
أشخاص وحازوا كل معنى طرب كان السبب من مصدر الفن راح
وحى ظهر شكلو لأهل الرتب نالوا الأرب بأهل الوجوه السماح
يارب بالهادى نبينا الشفيع وبالصحابه الفائزين الكرام

تغفر ذنوبي يا كريم يامعين بفضلك وادخلنا بديار السلام
ولما فرغ من المقدمة السابقة التفت إلى الحاضرين وأخبرهم بما سيحدثون.
من عجائب فنه ، وغرائب تمثيله . وذكر أن هذا الفن كان قد اختفى من
مصر مدة من الزمن ومدح الحاضرين وأعرب عن حبه لهم . ثم دعا الله أن
يعفّر له ذنوبه وأن يدخله الجنة .

ثم ذكر بعد ذلك أسماء الممثلين وهم : (١) نرجس بن تقادير (٢) الكابس
(٣) أبو حردان (٤) أبو قراميط (٥) السكران .

ولكل من هؤلاء الأشخاص دور يقوم به ، وموشحات ينطق بها .
وقد أضرّبنا صفحا عن ذكر ما جرى على لسانهم لاحتوائه على ألفاظ مكشوفة
وعبارات السب والشتم التي تسمع في الشوارع من السفلة والأوشاب .

ويغلب على هذه التمثيلات الغزل والشكوى من فراق الحبيب ، ونداء
الليل وغير ذلك مما هو معروف الآن . كما اشتملت على مدح الأولياء والوعظ
والإرشاد ، والحث على التمسك بمكارم الأخلاق ، ففيها الهزل والخلاعة
والمجون إلى جانب الجد ، ومن التمثيليات الجديدة تمثيلية «فلاح في بطن تمساح»
وقد وقف شخص اسمه الكابس يخاطب الفلاح بقوله :

دور من الكابس للفلاح وهو في بطن التمساح :

يا أخي أعلمني على دى القصة لما بقيت في بطن تمساح كاسر
يا هل ترى غضبوا عليك إخوانك والا مرابط كان سرو حاضر
والا أبوك قلبو غضب من يمك والادعت أمك في الظلام العاكر
انهض واعلمني صحيح واصدقنى يامن رماه وعدو وأصبح نواح
قل لى على من أخرجك من بيتك لما عليك قد اغتدى دا التمساح

فالفلاح كما نرى قد وقع في شدة عظيمة ، وضيق مؤلم إذا أضحى محبوسا
في بطن تمساح . وقد طلب منه الكابس أن يحدّثه عن سبب وقوعه في هذه .

المصيبة . وهل كان سبب ذلك غضب إخوانه أم غضب أحد من الأولياء ؟
أم غضب والده أم غضب والدته ودعائها عليه في جنح الليل . وطلب منه أن
ينهض ويخبره الخبر الصحيح ، وأن يكون صادقا في قوله عن السبب الذي
أخرجته من بيته وأوقعه فريسة لهذا التماسح الجبار الذي التقمه وجبسه
في بطنه .

فيرد الفلاح قائلا (دور من الفلاح)

أبكي ودمع العين جارى على خدى
حالى صبح مسكين والى انكتب وعدى
وقعت وقعة شين وعدى ولا بيدى
لكن أقول يارب يا باعث الأرياح

فالفلاح هنا يبكي بكاء مرأ على ما وصلت إليه حاله من بؤس وشقاء ،
ولكنه مع ذلك لم ييأس من رحمة الله ، بل يطلب الفرج ويؤمل في النجاة ،
ويرجو اليسر بعد العسر .

وبعض هذه التمثيلات يبدأ بمدح النبي ثم ذكر الخلفاء الراشدين ومشهورى
الصحابة . وتنتقل بعد ذلك إلى الأغراض التى أنشئت من أجلها . وهى تصور
بوجه عام وقوع بعض الناس فى ضيق وشدة ، ثم استغاثتهم بالله والأنبياء
والأولياء ، ورضاهم بالقضاء والقدر . ثم تنتهى بحدوث الفرج بعد الشدة .

* * *

ومن الشعر الشعبى تلك القصائد التى لم يلتزم فيها أصحابها صحة اللغة والنحو
والعروض كالتقصائد التى وردت فى سيرة المظاهر بيبرس والأميرة ذات الهممة
وكقصيدة أبى شادوف التى شرحها يوسف بن محمد الشربيني المتوفى سنة ١٠٩٨هـ
فى كتابه « هن القحوف » نذكر منها :

على من جتو قصعة وهو بيحرت ويقعد يحرف للحنك تجريف
على من دعس بالعزم في المش والبصل ولو كان بالكرات كان ضريف
على من شرب مترد ملان مظنبر ومن اللبن الحامض يرف ورفيف
على من جتو أم الخلول لدارو ويعزم على أهل البلد ويضيف

وفي هذه القصيدة الطويلة وفي شرحها من ذكر المقاذر والعورات ،
والعبارات المكشوفة والألفاظ القبيحة مالا نهاية بعده . وقد تعتمد الشارح
أن يشنع على الفلاحين ويرميهم بكل موبقة ، ويصفهم بمختلف العيوب ،
وكان الشريفي من الأشراف ، وبين هؤلاء وبين الفلاحين خصومة عنيفة
مازالت حتى عصرنا هذا . انظر إلى قوله في مقدمة كتابه « وقبل الخوض في
بحر هذا الكلام نذكر ما وقع لعوام بعض أهل الريف ، ووصف طبعهم
الكثيف ، وأخلاقهم الرذيلة ، وذاتهم الهبيلة ، وأسمائهم المقلبة ، وقحوفهم
المشكلة ، وقصانهم للمشرمطة ، وأشعارهم الملخبطة ، ونسائهم المزعجات ،
وما لهم من الدواهي والبلبات ، فنقول :

«أما سوء أخلاقهم وقلة لطافتهم فن كثرة معاشرتهم للبهائم والأبقار ،
وملازمتهم لشيل الطين والنفار . وعدم اكتراثهم بأهل اللطافة ، وامتناعهم
بأهل الكثافة ، كأنهم خلقوا من طينة البهائم كما قال ذلك الناظم :

لا تصحب الفلاح لو أنه نأجة أرياحها صاعده
ثيرانهم قد أخبرت عنهم بأنهم من طينة واحده

فهم لا يخرجون عن طور القحافة لملازمتهم المحراث والجرافة . وهز
قحوفهم حول الأجران ، وطردهم من الملق والغيطان ، ودورانهم حول الزرع
ونطهم في الحصيد والقلع ، وغطوسهم في الحلة والطين . إن عاملتهم أكلوك ،
وإن نصحتهم أبغضوك ، وإن أقت لهم الشرع رفضوك ، وإن ألنت لهم
الجانب مقتوك . العالم عندهم حقير ، والظالم عندهم كبير . أمورهم معاند ،

يؤليس عندهم فوائد . عندهم قابض المال أعز من العم والخال . سود الوجوه ،
إذا رأوا معروفا أنكروه ، كما قال الشاعر :

أهل الفلاحة لا تكرمهمو أبدا فإن إكرامهم في عقبه ندم
يبدوا الصياح بلا ضرب ولا ألم سود الوجوه إذا لم يظلموا ظلموا

وعلى هذا المنوال من الرغبة في التشهير بالفلاحين ، والتشفي منهم نسج
المؤلف كتابه . ومع ذلك ففيه فوائد نذكر منها إirاده لكثير من الألفاظ
والتعابير الريفية . وإيراده لبعض الأغاني التي نسبها لأهل الريف وتصويره
لجمل الفلاحين وفقدهم ، وما كانوا يقابلون به إذا حضروا إلى القاهرة من
الازدراء والاحتقار والسخرية . كما صور أخلاق بعض المتظاهرين بالدروشة
وما صاروا إليه من فساد وانحطاط وبعد عن أحكام الدين . فها نسبه
لشعراء الريف :

والله والله العظيم القادر هو عالما بسريري وخبايطي
إن عاود القلب المشوم ذكركم لأقطعوا من مهجتي بأصابعي
وعلق على^(١) هذين البيتين بقوله « هذا الكلام من بحر الهللفة ،
والمعاني المشرطة ، وتفاعيله : متخلبطة متخلبطة متخلبطة . وعرضه بيقين
من زنجية لشربين ، وطوله باحتياط من السرو لدمياط . »

« وأما شرح معانيه المسخمة ، وحل مبانيه الملمعة ، فقله — والله
والله العظيم القادر — يريد القسم غير أنه لم يقع الموقع لأنه ذكر الصفة بالضاد
المعجمة لا بالظاء المشالة ، جريا على لغة أمثاله من أهل الريف . وقوله — هو
عالم — بنصب عالما مع أنه مرفوع ؛ ليس على قاعدة النحويين ، إلا أن لسانه
لم يساعده على ذلك ، لأن ألسنة أهل الريف تنصب المرفوع ، وترفع المنصوب
كما يقولون عبد الرحمن برفع راء الرحمن . وهذا من باب عجرفة الكلام
المناسبة لهؤلاء القوم »

وقد يكون في كلامه هذا بعض الحقائق . وعلى كل حال فإن منزلة الفلاح قد هوت إلى الحضيض في هذا العصر حتى أصبحت كلمة «فلاح» سبة وشتمة من الشتائم التي يوجهها بعض الناس إلى بعض . وغدت توحى بالخشونة والبعد عن الرقة والذوق واللفظ . وأصبحت حياة الفلاح منذ العصر العثماني إلى عهد قريب موضوعا للسخرية والتهكم من بعض الكتاب .

* * *

وقد نظم إبراهيم الشافعي سنة ١١٧٧ هـ قصيدة طويلة من فن الزجل ، مدح بها الأمير عبد الرحمن كتحدا ، عنوانها « مشارع خيرات حسان في مدح الأمير عبد الرحمن » سجل فيها كل ما شيدته الأمير المذكور من المباني ، وما أنفقه من الأموال في أوجه البر . ومما جاء فيها :

وكم عرايا قد كسا وكم غريب قد أكرمه
بأرض الجزيرة لو سبيل تجاه بولاق فافهمه
عليه سواق ديره منه الحسود قد انكده
بشارعه حوض للدواب شيد بناه . ونظمه
وعبد الرحمن أمير بفعل خير قد انفرد
وربنا صار لو معين وأقى الأعادي بالكمد

* * *

وكان بعض الشعراء يقلدون الموشحات الأندلسية ، وينسجون على منوالها . نذكر منهم إسماعيل بن خليل الملقب بالظهوري ، المتوفى سنة ١٢١١ هـ فقد نظم موشحة على وزن موشحة ابن خطيب داريا الأندلسي جاء فيها .

ليت شعري يا أخلاء الهوى هل أرى بدرى بحاني مؤنسى

— ٢٠٣ —

أُم أَقَامِي مِنْ زَمَانٍ قَدْ قَسَا وَرَمَى أَحْشَاى سَهْمَا عَنْ قَسِي

دور

يَاسِقِي . اللهُ زَمَانَا قَدْ مَضَى فِي مَغَالِي مَصْرٍ فِي عَيْشِ خَصِيْبٍ
حَيْثُ بَدْرِي قَدْ قَضَى لِي مَا قَضَى بِالتَّدَايِ إِذْ غَفَتَ عَيْنَ الرَّقِيبِ .
شَبٌّ مِنْ تَذْكَارِهَا نَارُ الْغَضَى فِي فُؤَادِي وَتَلَا فِي النَّحِيبِ
وَاعْتَرَتْنِي دَهْشَةٌ حِينَ جَرَى مِنْ دُمُوعِي سَائِلَا فِي الْفَلَسِ
وَعِنْدَا قَلْبِي كُلِّيَا مَذْ سَرَى بَارِقٌ فِي نَحْوِ ذَاكَ الْمَكْنَسِ .

دور

يَا رِيَاضَا حَسَنَهَا زَاهٍ يَشِيقُ جَادٌ فِي مَثْوَاكَ مِنْهَلِ السَّحَابِ
كَمْ مَضَى لِي فِيكَ مِنْ مَعْنَى أُنِيقُ حِينَ كَانَ اللَّهُوْ مَزْهًى الْجُنَابِ
هَلْ تَرَى عَيْنِي مَحْيَاكَ الشَّرِيقِ لَا بَسَا بَرْدَ التَّهَانِي وَالشَّهَابِ
وَأَرَى بَدْرِي يَنْسَاجِينِي عَلَى ذَلِكَ الْبَسْطِ الشَّهْهِ السَّنْدَسِ
وَأَحْبَلِي صَبْرَ دَهْرِي بِالْمَتَى مِنْ مَعَانِ زَاهِيَاتِ الْمَلْبَسِ

وهكذا يستمر الشاعر إلى آخر تلك الموشحة الطويلة في أسلوب قصصي سهل ممتع . فيذكر الحان وأيام الصبا واللهو والعبث التي أمضاها ونعم بها بين حدائق مصر وبساتينها . ويحدثنا عن اتصاله بمحبوبته بعيدا عن أعين الرقباء . ثم أخذ يتحسر على تلك الأوقات السعيدة الحلوة التي لن تعود . ووصف لنا ما تتركه في نفسه الذكريات من لوعة ، وما تذرعه عيناه من دموع وما أصاب قلبه من جروح ، ثم وقف يخاطب الرياض ، واصفا إياها بالجمال والفتنة ، ذاكرا الأيام الحلوة التي قضاها بين ربوعها ، متمنيا لو أن تلك الأيام قد عادت إليه مرة أخرى ليمتص نفسه بوصال الغيد ، والجلوس معهم على الحشائش الخضراء السندسية ، تحت ظلال الأشجار الوارفة

— ٢٠٤ —

ومن أشهر الرجالين في هذا العصر الشيخ عامر الأنبوطي المتوفى
سنة ١١٧٣هـ وأزجاله تتناول أنواع الطعام والشراب . فمن ذلك قوله :

أكلك من الضأن رطلين يزيد قلبك نفاسه
وابعد عن الكشك يازين دا الأكل منو تعاسه

وقوله :

أكل المطبق مع الفجر بالشهد والسمن السائح
الليجيبيو لو أجر في جنسة الخلد رايح

وقوله :

يا طابخ الضأن اشتد واغرف أواني وسيعه
عامر أتى لك وله يد في الأكل دايمًا سريعه

وقوله :

أوصيك لا تأكل الفول يورث قلبك قساوه
تقطع نهارك كالغول تائه وعندك غشاوه

وقوله :

خشاف مشمش وعناب الشرب منهم دوايه
من بعد ما كل كباب يارب حقق رجايه
ومن نظمه ألفية الطعام على وزن ألفية ابن مالك في النحو
تذكر منها :

يقول عامر هو الأنبوطي أحمد ربي لست بالقنوطي
وأستعين الله في ألفيه مقاصد الأكل بها محويه

فيها صنوف الأكل والمطاعم لذت لكل جائع وهائم
طعامنا الضاني لذيذ للنهم لحماً وسمناً ثم خبزاً فالتقم
فإنها نفيسة والأكل عم مطاعماً إلى سناها القلب أم
والأصل في الأخباز أن تقمرا وجوزوا التقديد إذ لا ضررا
فامنعه حين تستوى الخرفان

ومن قوله على وزن لامية العجم للطغرائي :

أناجر الضأن تريق من العلل وأصحى الرز فيها منتهى أملى
أكلى غداء وأكلى في العشاء على حدٍ سوى إذا اللحم السمين قلى
فيم الإقامة بالآرياف لا شبعي فيها ولا نزهي فيها ولا جذلي
ناء عن الأهل خالي الجوف منقبض كعمدم مات من جوع ومن فشل
فلا خليل بدفع الجوع يرحمني ولا كريم بلعجم الضأن يسمح لي
طال التلهف للمطعم واشتعلت حشاشتي بحمام البيت حين قلى
أريد أكلأ نفيساً أستعين به على العبادات والمطوب من عملي
والدهر يفرج قلبي من مطاعمه بالعدس والكشك والبيسار والبصل
ناديت هيا ولا تبطى بغرفك لي فإنه خلق الإنسان من عجل

وله على وزن لامية ابن الوردي :

اجتنب مطعوم عدس وبصل في عشاء فهو للعقل خـبـل
وعن البيسار لا تعن به تمس في صحة جسم من علل
واحتفل بالضأن إن كنت فتى زاكى العقل ودع عنك الكسل
من كباب وضلوع قد زكت أكلها يننى عن القلب الوجـل

ويبدو أن الأنبوطي كان يمثل في عصره طبقة المتهافتين على الأكل ،
المتطفلين على الموائد ، الذين لا هم لهم إلا حضور المآكب ، وإشباع نهمهم
من اللحوم والخضار والرز والفواكه وغيرها . وقد كان الناس يخشون

الأبوطى وأمثاله . فالجبرتى يقول فيه « إنه الشاعر الهجاء المفلق ، هبيب شراره محرق » ويقول إن الناس كانوا يتحامونه ، وكان الشيخ عبد الله الشبراوى يكرمه ويكسوه اتقاء للسانه .

واحتاجت للمقاهى الكثيرة التى ظهرت فى ذلك العصر إلى المغنين مما دفع أفراد تلك الطائفة إلى الإجابة والإلتقان ليحوز كل منهم قصب السبق فتنهال عليه الأرباح الوفيرة . واتصل المغنون بالشعراء يلتمسون منهم نظم للمقطوعات الغنائية المناسبة للعصر الذى يعيشون فيه . وقد لبى الشعراء هذه الدعوة ونظموا كثيراً من الأدوار الغنائية التى تسيل رقة وعذوبة . وفى تراجم معظم شعراء هذا العصر نجد مثل هذه العبارة « وله موشحات وأزجال ومقطوعات عديدة مشهورة بين أرباب الفن والأغاني ، ومن أشهر مؤلفي الأغاني فى ذلك الوقت عبد الله الشبراوى . قال :

والله مليح وجميل وكامل الاوصاف وأنا احبه ملو قلبي وأهواه
لطيف ظريف الشكل مالوش مثيل فى رفته أما كلامه ما أحلاه
وقال :

شفته على غفله قوى حبيته - أسمر ومن طبعى أحب الاسمر
ميلت ناغشته لقيت له رقه ولطف زايد والبشاشه اكثر
يا أهل الأدب والله وحق المختار ما شفت عمرى فى الجمال مثله
قر مصور ما نظرتش حسنه فى حد من بعده ولا من قبله
وقد سجل الشعر الشعبى كثيراً من الوقائع التى جرت بين المصريين

والفرنسيين إبان الحملة الفرنسية . من ذلك قول أحد الزجالين من
ملحمة طويلة :

حازوا بيوت الغز سكنوا فيها وباشهم خيم بيت الألفى
عسكرهم بالأزبكيه صاروا على البيوت ما عاد لهم بيت يكنى
وزيرهم خيم بيت البكرى والكسارى حل بيت الجلفى
قايم مقام دوى سكن ببيت هانم والجند فى الأسواق تراهم خطار
حتى الديار تشقى فكن مستبصر هذى مواعظ جت لأهل الأبصار

ومنها وفيه إشارة إلى الثورة التى نشبت ضد الفرنسيين سنة ١٧٩٨ :

نادى منادى فى البلد بالنهضة قالوا الجهاد مفروض على دى الأمة
راح الخبر فى الحال إلى بيت دوى قايم مقام فاغتاز وقام فى همه
هجم عليه زمزوم ودشوا راسه فبات وبعده اشتد كرب الزحمة
وجات عساكر مسرعة لا تحصر وقتلوا الإسلام وباعوا الأعمار
يومين قتال والحرب زايد قدره ما خلتهم إلا عفاريت عمار

وعقب إخماد الثورة شدد الجنرال برتملى على الحركة الوطنية واضطهدها
اضطهاداً عظيماً . وقد عرف عند العامة باسم فرط الرمان . وإليه يشير الزجال
المتقدم فى قوله :

من بعد هذا الأمر دار الوالى مع الأغا والكلب فرط الرمان
حاشوا خلايق فى حبوس القلعة قد أسجنوهم والمقدر كان
من كان فرغ عمره قتل فى ليله ومن خلص من عزته قد هان
وتعموا النكته بقتل الستة الى تقدم ذكرهم فى الأدوار
يا عين عليهم بالمدامع جودى واجعلى دموعك عليهم غزار

والمدرسة الشعبية ما زالت قائمة تؤدي رسالتها. وقد اتسعت دائرتها بعد ظهور المجالات الهزلية وأصبحت تتناول جميع نواحي الحياة من سياسية واجتماعية واقتصادية وعاطفية . وكثرت الأغاني كثيرة لم يسبق لها مثيل وبخاصة بعد إقامة دور الإذاعة وتنافس المغنين في إلقاء أدوار جديدة .

الباب الثالث

دراسات تكميلية في الشعر

تكلّمنا في الباب الثاني على مدارس الشعر وبيئاته . وفي هذا الباب سنتكلم على الشعر الذي نظمته الشعراء استجابة للفن الشعري وحده . فمن ذلك :

١

الوصف

كثر في هذا العصر وصف الشعراء للحدائق والبساتين ، والثمار والمياه . ونستطيع أن نؤلف مجلداً ضخماً من آثار الشعراء والكتاب في حديقة الأزبكية وحدها ، وفي بساتين بولاق . وقد امتازت هذه القصائد الوصفية بركة أساليبها وسهولتها ، وجودة معانيها وصدق عاطفة ناظميها وبراعتهم الفنية . ففيها التشبيهات اللطيفة والصور الجميلة . وفيها حيوية فياضة وشعور متدفق . مثال ذلك قول الشبراوي من قصيدة طويلة :

في كثيب من الجزيرة يختلج	ل دلالا في حلة خضراء
حيث مجرى الخليج والماء فيه	يتثنى كالحية الرقطاء
ثم عجز بي للنهر عن أيمن الـ	تقصر فني ذاك راحتي وهنائي
حيث مالت نحو الأطباء طباء	بقدود تفرى أديم الحشاء
حيث تحتال في ملابسها الغز	لأن تيهكاً بفد فد تيهاء
حيث تلقى العشاق بين صريع	أو قتييل مضرع بدماء
روضة راضها النسيم سحيرا	باعتلال صحت به واعتلاء

(م — ١٤ الأدب المصري)

وأصول الأشجار ترسب في قيد من الماء ضيق الأرجاء
ولطيف النسيم يعبث بالغصن من فيهتز هزة استهزاء
وترى الغصن تارة يتمطى في اعتدال وتاوة في انحناء
وغدير اللجين ينساب طوراً باعوجاج وتارة باستواء
قنوات كأنها الزرد المنبظوم وقت الهيجاء تحت اللواء
ياخير الخليج تفديك نفسي فلكم نلت في هواك شفائي
يا ندي جدد بذكراه وجدى واحى ذاك الغرام بالإغراء
هات حدث عن نيل مصر ودعنى من فرات ودجلة فيحاء
وأعد لي حديث لذات مصر فحديث اللذات عني نأى
أى عيش يطيب في مصر إلا بعليج متوج بالبهاء
زّه الطرف بين قدّ وخذّ وجبين وطلعة حسناء
فرعى الله أرض مصر وما ضمته من أهيف ومن هيفاء
إن مصر لأحسن الأرض عندي وعلى نيلها قصرت رجائي

فالشبراوى في هذه القصيدة يصف لنا جزيرة الروضة وما فيها من
حدائق وبساتين . ويقول إن هذه الجزيرة تحتال دلالة بما فيها من أبسطة
سندسية خضراء تأخذ بمجامع القلوب . ثم يتحدث عن مجرى الخليج
ويشبه الماء حين يجري فيه بالحية الرقطاء . والرقطة بياض يشوبه نقط
سوداء أو بالعكس . ثم أخذ يحدثنا عن جمال النساء اللاتي كن يخرجن
في تلك الجهة ، وعن اجتماع العشاق الذين أضر بهم العشق وأضناهم الغرام :
ثم عاد إلى وصف للمناظر الطبيعية بجزيرة الروضة . فالنسيم عليل ، والهواء
نقى منعش . . والأشجار على حافات الجداول فذورها راسبة في ماء ضحل .
والنسيم يداعب الأغصان فتهتز استهزاء به . والأغصان تارة تمتد معتدلة
وتارة تنحني . وجداول الماء التي تبدو كالفضة تنساب مرة معوجة ومرة
مستوية . وهى تشبه الدروع أو السيوف حينما تعد للقتال في وقت الحرب

ثم أخذ يخاطب خرير الماء المتدفق في الخليج ، ويقول إنه كثيراً ما شفى نفسه من آلام الحب وأسقام الغرام بجوار هذا الماء وفي كنفه . ثم وجه الخطاب إلى نديمه الذي صحبه في تلك الأماكن والتمس منه أن يعيد على مسامعه ذكريات الأيام الحلوة التي أمضاها بين جزيرة الروضة ومجرى الخليج ، لأن هذه الذكريات تبعث في نفسه اللذة والنشوة والارتياح ، ولأنها تجدد حبه القديم ، وتبعث غرامه إلى الحياة . ويقول إن نهر النيل عنده أفضل أنهار العالم ، لا يعادله دجلة أو الفرات أو أى نهر آخر على سطح الأرض . وهو يطرب طرباً عظيماً إذا حدثته عن مصر ونيلها ، وجزيرة الروضة ومجرى الخليج . والحياة في مصر لا تحلو إلا في صحبة امرأة جميلة يتمتع عينيه بمشاهدة قوامها للمشوق وخذودها الوردية وجبينها المشرق وطلعتها البهية . ثم دعا الله أن يحفظ مصر ومن بها من أرباب الجمال والحسن ، وأهل الفتنة والملاحاة .

وقد كان الشبراوى رحل لأداء فريضة الحج . والحجاز كما لا يخفى بلاد صحراوية لا زرع فيها ولا ماء . فهناك أدرك القيمة الكبرى لنهر النيل ولما به العذبة ، وجزيرة الروضة وما بها من الحدائق والبساتين والحقول الناضرة ، والأشجار المورقة . وقارن بين بيئة الحجاز الصحراوية ، وبين بيئة مصر الخصبة الزراعية . ووازن بين الحجاز الذي يشح فيه الماء ويغلو سعره ، وبين مصر ونيلها العظيم فانعكست هذه الحالة النفسية في شعره الذي يذكر فيه نهر النيل . انظر إليه حين يقول :

أعد ذكر مصر إن قلبي مولع	بمصر ومن لى أن ترى مقلتي مصرا
وكرر على سمعى أحاديث نيلها	فقد ردت الأمواج سائله نهرا
بلاد بها مد السماح جناحه	وأظهر فيها المجد آيته الكبرى
رويداً إذا حدثتني عن ربوعها	فتطويل أخبار الهوى لذة أخرى
إذا صاح شحرور على غصن بانة	تذكرت فيها لاحظ والصعدة السمر

إلى أن يقول :

على نيلها شوقاً أصب مدامعى وأصبو إلى غدران روضتها الغرا
إذا حذرتنى بلدة عن تشوق إلى نيل مصر كان تحذيرها إغرا
سأعرض عن ذكر البلاد وأهلها وأروى بماء النيل مهجتي الحرا
. . . . الخ

وهذا كله انعكاس لأثر البيئة الصحراوية التي قاسى آلامها وأهوالها ،
وعدم فيها الماء حتى أضرّ به العطش . فإذا ذاك عرف النعمة الكبرى لنهر
النيل فتغنى بذكره في غير ملل ولا ضجر . بل إن تكرار ذكر النيل كان
يحدث في نفسه لذة لا تضارعها لذة ، ومتعة لا تعادلها متعة . إنه في هذه
الآبيات يظهر للنيل قداسة تصل إلى درجة العبادة . وهذا لا يحدث إلا لمن
كاد يهلكه العطش .

وكان الشبراوى يجمع بين وصف الطبيعة وما فيها من فتنة ، ووصف
النساء وما فيهن من حسن وبهاء . ويدعو إلى عبادة الجمال أينما وجد ، جمال
الطبيعة وجمال الإنسان . وقد جراه في مذهبه شعراء كثيرون .

* * *

وقال الشهاب الخفاجى :

قدّحت رعود البرق زندا أضرّ من أشجاناً ووجداد
في خمة الظلماء إذ مدت على الخضراء بردا
حتى تنابّ نوره وتمطت الأغصان قددا
وأنى الشقيق بمجمر للروض أوقد فيه ندا
وعلى الغدير مُفاضة سردت له النسمات سردا
وحبابه من فوقه قد بات يلعب فيه زردا

فستى معاهد بالحمى من عنبر للمسك أهدي
عجيباً لدر ناصع أودعن فى مسك مُندى
فى ظل عيش ناعم بنسيم أسحر تردى
الح . . .

وهذا وصف جميل . فى ليلة تراكم سحابها واشتد ظلامها ؛ سم صوت
الرعد وتلاه البرق فكأنه زند أشعل نيران الحب والغرام . وانتشرت الروائح
الجميلة التى تفوق رائحة للمسك . ومر النسيم العليل يداعب الأغصان التى كانت
فى نوم عميق ؛ فاستيقظت وأخذت تتمطى لتزيل عن نفسها آثار النوم . كما
أن الأزهار طفقت تتشاب . وبدأت مياه الجداول كأنها دروع نسجها النسيم
العليل وأحكم نسجها . حقاً القدامتزوج الشاعر بالطبيعة وتفاعل معها فجاءت
قصيدته صدى لما انطوت عليه جوانحه .

وقال الصلاحى من قصيدة طويلة :

يا طيب أنفاس الربيع مع فى تنفسها عير
والجو مجرة عليها من ضبابها بخور
وافت به رود بأس رارى لها طرف خبير
وسعت على طرق الجدا ول والنسيم لها سفير
وطروس قامتها عليها من ضفائرها سطور
يا طيب ما تلى الشعو روحسن ما نقل الغدير
ما ذاك إلا فرع لى ل قد تبليج فيه نور
والورق ساجعة لها من كل ناحية سيمير
والريح تعتنق الغصون بها فتعقب الزهور
وبدت شموس الراح تحملها الكواكب والبدور

فقطيت منها ما قضيت وكان لي ولها أمور
وضممتها عند الوداع وكل أنفاسي زفير
وبكت عيون السحر حين تساقط الدمع الغزير
تحتاً متما فتحت الـ أغصان منا والنحور

... الخ

فالصلاحي قد مزج وصف الطبيعة بالغزل، بل إنه تغزل في الطبيعة نفسها
غزلاً لطيفاً يسيل رقة وعذوبة. ووصفه للطبيعة كما ترى يفيض بالحيوية
ويزخر بالحركة والنشاط، فالجو معطر بأنفاس الربيع حتى كأنه يشبه بحجرة
البخور التي تفوح منها الروائح الشذية الجميلة. وهذه الجمرة قد حملتها إليه
فتاة رائعة الحسن، ومشت على حافات الجداول حتى وصلت إليه، وقدمتها
النسيم مبشراً بقدمها بما يحمله من رائحتها الطيبة. وشعرها كأنه الليل في
شدة سواده، ووجهها الذي يظهر من خلال شعرها الأسود كأنه النور الذي
يتبدى في جنح الليل. وتحدث عن تغريد الطيور والخمر وما فعلته به، ولقائه
مع هذه الغادة، وما جرى بينهما في ساعة الوداع حين انهمرت دموعه مع
انهمار الأمطار.

* * *

فاذا تركنا وصف الطبيعة إلى وصف الأشياء، وجدنا لشعراء هذا العصر
قصائد رائعة. مثال ذلك قول نور الدين العسيلي من شعراء القرن الحادي
عشر يصف دولاباً «ساقية»: «

ودولاب مررت به سحيراً	يئن كائنة الصب المروع
غدت أضلاعه تنعد سقماً	ويفنى جسمه صبّ الدموع
يدور كمن أضل الألف منه	وذاق تشتت الشمل الجميع
فقلت له فديتك من كئيب	كساه لهم أثواب الخشوع

علام أراك تبكى كل وقت وتهتف في المنازل والربوع ؟
 فقد قربت لى حزناً بعيداً ونحاني نواحك عن هجوعى
 فقال : أما علمت بأن مثلى خليك بالصبابة والولوع ؟
 فإني كنت فى روض رفيما أبيت من الأزاهر فى جموع
 ولى فى المنتهى أعراق صدق أصول أنجبت أزكى فروع
 إذا ما الورد قابلنى وحيا تضرج وجنتاه بالنجيم
 ويصفر البهار لدى خوفا كصفرة عاشق صب مروع
 وإن قصدت بنو الآداب ربعى أجود من النثار على الجميع
 فقيضى الشقاء إلى غيٍّ شديد البطش جبار قطوع
 فألقاني على رأسى صريعا وأنت مشاهد حال الصريع
 وقطع لطف أوصالى بعنف وصار يدق عظمى فى ضلوعى
 فصرت أرى الذى قد كان دونى أناف وصار ذا شأور فيع
 على قلبى أدور عناً وأبكى عليه أسى كمقلات هالوع
 فكيف ألام إن أدمنت نوحى وجدت بمدغم الطرف الهموع ؟
 وحالى ناصح أبناء جنسى فلا تعتد بالجذع المنيع
 فإن الدهر كالصيد كيدا وأسباب القضا شرك الوقوع

فهذه قصة لطيفة نظمها الشاعر فى قصيدة رائعة مؤثرة ، تنتهى بمغزى مفيد ، وعبرة نافعة وعظة بالغة . وانظر إلى هذه الصور الجميلة التى اشتملت عليها تلك القصيدة . فقد صور الشاعر الدولاب فى صورة تزخر بالحياة . صورة عاشق وهان يتألم ويتوجع ويتأوه من ألم العشق وشدة الوجد ، وعنف الغرام ، حتى اعتل وساءت صحته ونحل جسمه ، فظهرت ضلوعه بحيث يمكن رؤيتها ، ويسهل عدها . وكاد جسده يفنى من غزارة الدموع التى يسكبها ، ومن الحزن الذى ألم به . وهو لا ينقطع عن الدوران كأنه

يبحث عن حبيب فقدته . ثم وقف الشاعر أمامه يسأله عن سبب بكائه الدائم ونواحه وعويله . وقال إن أنين الدولاب الحزين قد قرب إليه حزناً كان بعيداً عنه ، وأعاد إلى ذهنه ذكريات ألمية كان قد نسيها . وبذلك سبب له أرقاً مستمراً ، وطرده النوم عن عينيه .

فرد عليه الدولاب شارحاً أسباب نوحه وبكائه . فقال إن مثله جدير بالحزن والبكاء لأنه كان شجرة عظيمة في روضة غناء ، تحيط بها الأزهار من كل جانب . إذا قابلها الورد حياها واحمر خجلاً لرؤياها . وإذا شاهدتها البهار اصفر خوفاً ورهبة . وإن ذهب إليها أهل الأدب أظلمتهم بأغصانها المورقة ، ونثرت عليهم ثمارها . فقيض لها سوء طالعها أحد الأشقياء الأغبياء الجبابرة فبطش بها بطشة كبرى ، وصرعها في غير رحمة ولا شفقة . واقتلعها من جذورها وألقاها على الأرض ، وقطعها بمنتهى العنف . فالذي كان في نظرها حقيراً ارتفع شأنه وعلا قدره ، وغدا عظيماً إذا قورن بها في حالتها الزرية التي صارت إليها . فهي تدور وتبكي حزناً على نفسها ، ولا ينبغي أن يلومها إنسان إن هي سكبت الدموع مدراراً . وختمت كلامها بإسداء النصيحة لأبناء جنسها .

ومضمون النصيحة أنه لا يجب أن يغتر الإنسان بنفسه ، ويعتقد أنه في مأمن من الدهر وحوادثه ، والزمان وكوارثه . بل يجب أن يأخذ حذره على الدوام . فالدهر كالصيد الذي ينتهز الفرص ليظفر بالفريسة . والقضاء هو الشرك الذي يقع فيه الإنسان . لقد وفق الشاعر في هذه القصيدة إلى حد بعيد ، وأجاد وأبدع .

الغزل

لم يخل الإنسان في يوم من الأيام من عاطفة الحب للجنس الآخر . وقد امتاز الغزل في العصر العثماني بالركة والسلاسة ، وانتشر انتشارا واسعا في الشعر الفصيح ، وفي الشعر العامى الذى يتمثل فى الأغانى والموشحات والأزجال والمواويل . وإن الأغانى المصرية فى ذلك الوقت كانت تدور كلها تقريبا حول الحبيب وبعده ، وهجره وصدده ، وتمنى لقائه ، والتحدث عن جمال عيونه ورموشه ، وقامته المشوقة ، وخطوده الموردة . وكثيرا ما يمزجون الغزل بوصف الأزهار والأغصان ، والرياض والغياض ، والنسيم العليل والروائح الشذية ، والحديث عن الحمر . ويستعملون ضمير المذكر مع أنهم يتغزلون فى الأنثى مثال ذلك قول الشبراوى :

فى مجلس من مافيه عيب سوى تمام عارضه ونفحة ورده
وتناثرت أزهاره لما رأى هذا الغزال محجبا فى برده
ياما أحيلى قده لما مشى فى مجلس تيهها وجاد بوعده
ودنا وأتحفى وأطفأ لوعتى وشنى فؤادى من تاهف بعده
يا عاذلى دعنى فما قلبى معى أسلوه بل فى حكه وبيده

فالشاعر هنا يصف اجتماعه مع حبيبته مستخدما ضمير المذكر . ويقول إنه فى موضع بعيد عن الأنظار غير أن رائحة الحبيب الجميلة التى تفوح منه ، ووجهه المشرق الوضاء قد يدلان على مكانهما . ثم وصف ماسع به من اللذة والنشوة حين أمضى ميم هذه الغادة بعض الوقت . وتصور العاذل أى اللأم فى الحب يلومه فى هواه ، فقال إنه لا يستطيع أن يتناسى حبه هذا ، لأن قلبه قد وقع أسيرا فى يد المحبوب .

ويرجع انتشار حديث الحب في الشعر للمصرى خلال العصر العثماني إلى عدة أمور :

١ — ميل المصريين إلى التفرّج عن أنفسهم والتخفيف عن آلامهم الناتجة عن ظلم الحكام وقسوتهم . ولا شيء يفرج عن النفس أكثر من الحديث عن الحب واللقاء والعناق والتقبيل وغير ذلك .

٢ — ميل بعض المصريين إلى حياة الطرب واللهو ، ولا يتم ذلك إلا بذكر الحب والتغزل بجمال الإنسان وجمال الطبيعة .

٣ — ميلهم إلى إقامة الأفراح والموائد . وليس هناك ما يصلح للغناء في هذه المناسبات إلا أغاني الحب .

٤ — ميل بعضهم إلى التمتع باللذة الجنسية إلى درجة الإفراط ، وهذا ناتج عن طبيعة الجو .

وإنك لتجد العمال المصريين يفومون بأشق الأعمال ، والعرق يتصبب من أجسامهم ، ومع ذلك ترتفع أصواتهم بترديد أغاني الحب ، وما ذلك إلا لرغبتهم في التّسرية عن أنفسهم ، وطرده الآلام التي تحل بهم .

وقد لاحظ بعض الغربيين أن الإباحية تختلط بالدين في شعرنا الغزلي ، الفصيح والعامي . قال إدوارد^(١) لين الذي زار مصر سنة ١٨٢٥ : « ولقد سمعت أغنية لم يؤذ سمعى مثلها في رقاوتها ورقاعتها . وفيها يصف عاشق مستهتر شعوره حين وقعت عيناه على فتاة جميلة فيقول : سبحان من صورك يا بدر . فهو يسبح الله ، ثم يمضى فيقذع في وصف مغامرته الغرامية . وقس على ذلك بقية أغانيهم . وفيما يلي أغنية عن الحب والخمر تعد مثالا خلط الإباحية بالدين في الشعر العامي والشعر المنشور . ولما كان من عادة المصريين

(١) إنجليزى يتحدث عن مصر ص ٨١ وما بعدها .

استعمال ضمير المذكر في أغانيهم العاطفية في الوقت الذي يخاطبون فيه الأنثى
فقد عمدت في ترجمتي هذه الأغنية إلى الإنجليزية إلى استعمال ضمير المؤنث
بدلاً من المذكر. وهذه هي الأغنية :

جاء بالوصال ، رشيق القوام
بعد بعده ودلاله ، بست اسنانه وخده
ورن السكاس في إيدته ، وفاح المسك والعنبر .
من اللى قوامه فاق غصن البان
فرش لى حبيبي فرش بالقصب
وقضيت الوقت فى هنا موصول
ودلوقت اطلب من الله مولاي
يعفرلى ذنوبى وآئامى
وكل اللى قاله قلبى ، دى أعضائى تشهد علىّ
وكل ما يشتد كربى أنت ياربى رجائى
أنت الكريم الغفور ، احفظنى يارب واعف عني
وأصلى على المخلوق الكريم ، اللى ضللت عليه الغمامه
وحيشفع لنا يوم التيامه

قال إدوارد لين « وقد دخل على أحد أصدقائى وأنا أدون هذه
الملاحظات ، فقرأت عليه هذه الفقرات من الأغنية ، وسألته : هل يعتقد
أنه من اللائق أن يجمع بين الدين والعريضة على هذه الصورة ؟ فأجاب قائلاً :
لا غضاضة مطلقاً . هذا رجل يحكى كيف اقترف إثمًا ثم يسأل الله العفو
والمغفرة ويصلى على نبيه . فقلت : ولكن هذه أغنية كتبت لى يتغنى
بها أناس يقتربون المنكر وما حرمه الله . انظر معى هنا : إننى إذا أغلقت
صفحات الكتاب هكذا فإن الجزء منها الذى كتب فيه كيف ارتكب
الرجل خطيئته سرف يلتصق وجهه بالوجه بذلك الذى كتب فيه اسم الله . وبذلك
يعلم ارتكاب الخطيئة على طلب المغفرة » .

« فأجاب صديقي قائلاً : هذا هراء : اقلب الكتاب فاجعل أسفله أعلاه من ذلك الجانب ، وحينذاك ينقلب الوضع فيصبح الاستغفار فوق الخطيئة ويعلو عليها . والله تعالى يقول : قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم » .

وأنا لا أرى ما رآه إدوارد لين من اختلاط الإباحية بالدين في هذه الأغاني . والأصح أن يقال إن الإنسان ينطوى على جانب روحاني ، وآخر حيواني . فإذا أراد الجانب الحيواني أن يظهر ويتغلب على الإنسان قاومه الجانب الروحاني ، وهنا نرى النزاع النفسى بين الجانبين . وحين ينتصر الجانب الروحاني يكون مصحوباً بالشعور بالذنب والندم على ما فرط من الإثم ، والرغبة في الرجوع إلى الله . يتضح ذلك مما جاء في الأغنية المتقدمة « ودلوقت أطلب من الله مولاي يغفر لى ذنوبى وآثامى » أى بعد أن أخذ الجانب الحيواني مجراه الطبيعى شعر الإنسان بالندم فرجع إلى الله تائباً مستغفراً ، معترفاً بذنبه وضعفه . ومن الأمثال الشائعة بيننا « ساعة لقلبك وساعة لربك » ففي ساعة القلب يفرج المصرى عن نفسه بالتحدث عن النساء الجميلات . وما زالت أغاني الحب هى السائدة فى عصرنا ، وهى التى يقبل الناس على سماعها .

وانتشار الشعر الغزلى فى العصر العثمانى يشبه فى أيامنا انتشار الروايات التى تدور حول الحب ، والقصص التى تتناول العشق . ومن لطيف الشعر الغزلى قول عبد الله الشبراوى :

منتهى الآمال عندي أهيف	وجفون زانها ذاك السواد
وخدود تتلظى حمرة	ودلال قد نفى عنى الرقاد
إن ذنبى عند من يعذلنى	أن قلبى فى الهوى لو رُد عاد
يا أهيل العشق هل من منجد	هل سلا الأحاب ذو وجد وساد ؟
ما احتيالى فى الهوى ؟ ما عملى ؟	ليس لى إلا على الله اعتماد

بين جفنى والكرى معترك واختلاف وشقاق وعناد
فتنتى ظبي ظريف أهيف كلما قلت جفاه زال زاد
إن يكن عشقى له أفسدنى فاعلموا أنى راض بالفساد
ورشادى إن يكن فى سلاوتى فدعونى لست أرضى بالرشاد
هو قصدى لست أسلوه وإن صرت فيه مُثلة بين العباد

ففى هذه القصيدة نلاحظ الموهلة فى التعبير . ويقول الشبراوى إن كان حبه ضرباً من الفساد فهو مرتاح إليه ، راض بأن ينظم فى صفوف المفسدين ، ولا يرضى أن ينظم فى سلك الراشدين المهتدين إن كان رشاده فى ترك الحب .

وله من قصيدة :

وأصبو إلى الوجه الجميل إذا بدا وأسخط من ذكر السلو وأعضب
وعشق القدود الهيف عندى عقيدة وطبع عليه قد ربيت ومذهب
قضى الله أن الحب أعلى فضيلة وأن الهوى أحلى نعيماً وأعذب

ويذكر الشبراوى فى شعره أنه عالم بفنون الغرام ، وأن علمه قائم على التجربة والاختبار . ويدعو الناس إلى أن يتلقوا عنه هذه الفنون دون سواء ، فهو الخبير بها ، العالم بأسرارها . ويقول إن الحب فى المرتبة العليا من مراتب الفضيلة . وهو أحلى النعم وأعذبها وأجملها مذاقاً . وقد وقف قلبه على أرباب الجمال وأهل الحسن والفتنة . والهيام بالقامة الممشوقة والخمر النجيل دينه الذى يعتقده وسجيته التى نشأ عليها . فهو والحالة هذه يعبد الجمال ويهيم بالحسن حيث وجدته . ويقول إنه اتخذ الحب دينه ، وموته فى سبيل الحب مذهبه :

ألا إن دينى فاعلموه هو الهوى وموتى شهيداً فى الصبابة مذهبي

وقد وصف اجتماعاً له مع إحدى عشيقاته فقال :

عانقته فأسودت المقل التى هى بلوتى واحمرت الوجنات

وضممت قامته نخلت كأنها قد عجلت لذاتها الجنات
ياقلب إن زعم العواذل أنه في الحسن يوجد مثله قل هاتوا
مازلت أجنى من لذيذ خطابه تحفا لها من طيبة نفحات
وبلغت قصدى حيث جاء لمنزلى هذا الغزال وركت الأوقات
ودنا يودعنى فلا وأبيك ما بقيت لدى التوديع في حياة
فهو يذكر ماجرى في هذا الاجتماع من الضم والعناق والتقبيل في شعر
يكاد يلتهب بالعاطفة ، وأسلوب يسيل رقة وعذوبة .

* * *

وقال يوسف الحفناوى ، وكان من شعراء الأمير كتيخدا رضوان :
ملاً الفؤاد هوى ووجداء رشاً لعيني السهد أهدى
مترنح الأعطاف قد نشر الجمال عليه بُردا
يحتال في حل الدلال فيزدري بالبان قدأ
ريم سلاف حديثه أشهى من الصهباء وردا
لدى القوام لقده الـ أغصان تسجد إن تبدى
يرنو فيسلمب بالنهى ويسومها بالفتك جهدا
ملك غدت لجمال طله مته ملاح العصر جندا
بجفونه النعس المرأض لقتل مغرمه تصدى
وسيوف - لحظيه اتخذ ن جوانح العشاق غمدا
الح...

وليوسف الحفناوى غزل كثير من هذا النوع . وكله سهل العبارة ،
سليم الأسلوب ، جميل الصياغة . حقا إن المعانى الواردة في هذه الأبيات

متداولة ومعروفة ، ولكن الشاعر استطاع أن يجيء بها في شعر موسيقى
مصر قص مطرب فبدت كأنها جديدة .

وقال عبد الله الإدكاوي المتوفى سنة ١١٨٢ هـ

عذاره لما بدا كالآس في الروض استقر
سبي الرجال مثلما سبي لربات الحجر
رأيناه أكبرنه وهو لمن قد بهر
وقد قطعن أيديا وقلن ما هذا بشر
وخده لما احتسى من كل من له نظر
أرخی العذار سائرا وردا وحينما قد ظهر
وظن ذاك مانعا فصار يخطف بالبصر
في مصر أضحي مفردا جماله قد اشتهر

وهذا غزل بالمذكر . وفيه يشبه المحبوب بيوسف الصديق في روعة جماله
ويقول إنه أسر قلوب الرجال والنساء . ثم نظر إلى قصة يوسف الصديق ،
وما جاء فيها من أنه لما دخل على النسوة أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن ما هذا
بشر ، إن هذا إلا ملك كريم . وقد حافظ على الموسيقى الشعرية مع ما في هذه
الآبيات من الاقتباس ، وهذا يدل على البراعة الفنية والملكة الشعرية .
وقال :

ياشادنا ما أصيده عقولنا والأفئده
ويارشأ قوامه إذا انثنى ما أميده
ومصلتا من لحظه على الورى مهنده
ومصليا حشاشتي حجر اشتياق أوقده
وباعثا لمهجتي سهامه المسدده
وسائرا صبح بها بالطرة المجدده

وسالبا منى النهى بالوجنة الموردة
وساحرا بجفنه هاروت رأس الفسده

... الخ

ولم يكن الإدكاوى عاشقا لشخص معين ، وإنما كان كغيره من شعراء عصره يعجب بالحسن ويفتن بالجمال . ثم يصور مشاعره وأحاسيسه في هذه القصائد الرقيقة ذات الطابع الموسيقى الجميل .

وانظر إلى قول السبربائي المتوفى سنة ١٢١٠هـ

قد كنت فيما مر من أياى مولعا بالحب والغرام
أهوى مليح القد والقوام ومن لماء العذب كالمدام
وخذه الوردى مثل الجمر

وأعشق الظبي الأغن الأغيد من قده مثل الغصون أميد
ووجهه له الملوك سجد إذا رأته الأسد خوفا ترعد
من لحظه وما حوى من سحر

لا سيما من كان فى دلالة كيوسف الصديق فى جماله
أوغصن بان ماس فى اعتداله أو بدر تمّ لاح فى كماله
فى أربع بالشهر بعد العشر

وأشتهى مليحة الطباع جميلة الأخلاق والأوضاع
ونزهة الأبصار والأسماع من كل فى أوصافها يراعى
وجسناها قد حار فيه فكرى

كحيلة العينين كالخوراء إذا تثنت حار فيها الرأى
حديثها أشهى من الصهباء إلى النفوس أو زلال الماء
عند الهجير فى اشتداد الحر

... الخ

فالسبربائي في هذه المزدوجة الطويلة يذكر لنا ما كان عليه في أيام صباه
من التهافت على ربات الحسن والجمال ، وما حدث له من هجر ووصل .
ويتحدث عن الأوقات السعيدة التي قضاها مع المحبوب بين الرياض في ظل
الأشجار ، وبالتقرب من جداول الماء حيث النسيم العليل ، والهواء البليل ،
والورد والياسمين ، ويعترف بأنه ارتكب للمعاصي وغرق في بحار الشهوات .
قال :

وكم إلى العصيان قد سارعت ولا رتكاب الإثم قد بادرت
وخالتي بالذنب قد بارزت وسيدى لأمره خالفت
وقد نسيت وحشتي في قبري

* * *

وقال الخشاب :

طرفي عليك بميل السهد مكتحل شوقا إليك وفيك الدمع منهمل
أبيت ليلي سمير النجم أرقبه لاذقت بئى وجنع الليل منسدل
تالله تالله قد أوهى الهوى جلدى وعيل صبرى وازدادت بى العلل
لا كان يوم النوى، لاحان موعده يوم تسير به روحى وترتحل
واحر قلباه ممن أشتكيه ومن حر الفراق ومن عينيك مافعلوا
ومن لواجع أشواق أعالجها يضرمن فى مهجتي نارا فتشتعل
ملككت قلبى ولجى قد سلبت فلا برأ أراه ولا حول ولا حيل
فارفق بصب مشوق ذاب فيك أسى وكاد يغشاه من وشك النوى الخبل
وامن بلمشى خدا صين عن نظر لم تدن منه ولا من طيفه القبل
فأنت مجلى سرورى يا جلا نظرى وأنت دائى دوائى بغيتى الأمل
قد سد باب اضطبارى وارتحلت به فلست أسلوك حتى ينقضى الأجل
(م ١٥ — الأدب المصرى)

وهذه القصيدة تنبض بعاطفة الحب الصادق . ويقسم الخشاب بأن الحب قد أضعفه وأسقمه وذهب بصبره . ويعبر عن آلامه وأحزانه لاقتراب موعد رحيل هذا المحبوب . ويقول إن روحه هي التي سترحل عنه في هذا اليوم المشئوم ، وأن نيران الحب ستزداد اشتعالا بين جوانحه ، لأن المحبوب قد ملك عقله ولبه ، ولا يرجى له شفاء مما به من الآلام والأسقام . ولم تبق عنده قوة ولا إرادة . ويطلب من المحبوب أن يجود عليه بقبلة فهو مظهر سروره وشفاء عينه .

وقد ذكر الجبرتي في ترجمة الخشاب أنه في زمن الاحتلال الفرنسي عشق شاباً من شبان الفرنسيين ، كان جميل الصورة ، لطيفاً ، دمث الأخلاق ، مما ببعض العلوم العربية ، مغرم بالآداب العربي ، يجيد التحدث باللسان العربي ، حافظاً لكثير من الشعر . فوجد كل منهما في صاحبه تجانسا وتوافقا ، فقال كل منهما إلى الآخر ، ووقع بينهما حب شديد حتى كان لا يقدر أحدهما على فراق صاحبه . واسم هذا الشاب « ريج » ومن قول الخشاب في الغزل بهذا الشاب .

يهتز كالغصن ماس معتدلاً
أطلع بدرا عليه قد سدلاً
غيب

يزرى بسمر الرماح إن خطراً
ساحر جفن لمهجتى سحراً
علم عيني البكاء والسهراً
فكيف أبغى بحبه بدلاً
وليس لي عنه جار أو عدلاً
مهرب

وجرى شعراء هذا العصر على سنة القدماء في الجمع بين الغزل ووصف
الحجر والدعوة إلى شراها ، وذكر الغناء والطرب مثال ذلك قول الخشاب :

أدر لي في الربا القدحا وكن للعذل مطرعا
ونبه صاح ساقيهما فضوء الصبح قد وضعا
وغير الزهر مبتسم وشادى الورق قد صدحا
وخذها من يدي رشيا مليح قد حوى ملحا
غزال إن يلح للبدر أو غصه ن النقا افتضحا
وقبل فاه مرثشفا مدا ما تجلب الفرحا

... الخ

.. وقوله :

أدر السلاف على صدى الألمان ودع العذول بجبله يلحاني
واستجل بكر الراح في ظل الرُّبى بين الرياض تزف والعيان
شمس لها من فوق خد مديرها شفق الصباح إذا بدا الفجران
نور ولكن من سنا لألاها في الخلد نار فؤادى الوهان

... الخ

وليس هنا ما يدعو إلى الظن بأن هذا الشعر كله الذى قيل فى الغزل والحجر
والغناء واللاهو ، والأنس والطرب ، هو من باب التقليد ، وبخاصة إذا علمنا
أن عناصر هذا الشعر كانت موجودة فى حياتهم الواقعية . فالحجرات متوفرة
وكذلك الرياض والجمال الإنسانى . أما من حيث أسلوب هذا الشعر فيمتاز
بالبساطة والوضوح ، والطابع الموسيقى الجميل .

الإخوانيات

كان الأدباء والشعراء في هذا العصر يجتمعون في ندوات ليلية في منزل. أحدهم أو في منازل بعض الأعيان والأمراء . ويتسامرون وينشدون. للمقطعات ، ويروون النوادر والنكات . وقد زخرت كتب التراجم بأخبار هذه المجالس . فذكر الجبرتي مثلاً في ترجمة قاسم بن عطاء الله المصري للتوفي سنة ١٢٠٢ هـ ما نصه : واجتمع يوماً في مجلس به جماعة من الأدباء كالشيخ محمد بن الصلاحى ، والشيخ عامر الزرقانى . وكان الوقت مطيراً ، وقد جادت السماء فأعطت من قطر السحاب دراً وعبيراً . فقال ابن الصلاحى مرتجلاً :

لقدومكم ضحك الغما م فعلم العين البكا
ما ذاك إلا أنه لنوال كففك قد حكى

فقال المترجم في الحال :

أفديك بالعينين يا نجل الصلاح مع الذكا
هطل الغمام كأنه لعزير جاهك قد شكا

وكان المترجم في مجلس من الأدباء ، فكتب إلى ابن الصلاحى يستدعيه
لذلك المجلس ما نصه :

مولاي يا نجل الصلاحى فديت مبنا بالنواظره
امتن وصحح جمعنا بجميل ذاتك والماثر
وإذا حضرت تفضلا فاللطف عادات الأكابر
نثر الغمام على الرُبى من فيضه يُتم الجواهر
وزيد نحظى عند نظقك بالفرائد والأزهار

فكتب ابن الصلاحى مرتجلاً قبل حضوره :

أَتَانِي وَذِيلُ الْأَنْجُمِ الزُّهْرِي مَثَرُ وَكَفُّ الثَّرِيَا لِلْفِرَاقِ دِيسْتَرُ
وَقَدْ نَثَرَ الدَّرَّ الْمُنْظَمَ فَازْدَرَى بِمَا كَانَ مِنْ دَرِّ السَّحَابِ يَقْطُرُ
وَكَيْفَ وَدَرَّ الْقَطَرُ دَرًّا مُبَدَّدَ وَنَظْمُكُمْ عَقْدَ مِنَ الرُّوضِ مَثْمَرُ
سَفَرُكَ شَوْقًا كَانَ مِنْ قَبْلِ فِي الْحُشَا كَمِينًا لِأَنَّ الشَّيْءَ بِالشَّيْءِ يَذْكُرُ
الْخ

وكتب عبد الله الإدكوى إلى مرتضى الزبيدي :

صُبِّحْتَ بِالْخَيْرِ يَا مَنْ لَا شَبِيهَ لَهُ فِي الْعِلْمِ وَالْحِلْمِ وَالْإِفْضَالِ وَالْكِتَابِ
يَا مُنْتَهَى أَمَلِ الْأَجَى وَمُنْتَجِعِ الرَّأْيِ جَنَى وَأَكْرَمِ مَسْئُولٍ وَمُنْتَكَبِ
هَذَا خِلْدُكَ الصَّادِقُ الْوَدَّ الْمَحَبَّ غَدَا لَهُ اسْتِيَاقٌ إِلَى لَقِيَاكَ يَا أَرَبِي
فَارَبَّ مَنْنْتَ بِهِ فَهُوَ الْمُتَنَّى وَإِذَا عَاقَ الْقَضَاءُ فَأَمْرٌ غَيْرُ مَجْتَلِبِ
هَذَا وَقَدْ جَاءَ فِي صَبْحِكَ بِلَا مَهْلٍ رَبُّ النِّهَايَةِ^(١) يَبْغِيهَا مَعَ الْطَلْبِ
أَمَّا وَأَمَّا فَيَارَبِّ الْبِرَاعَةِ يَا مَعْنَى الْبَلَاغَةِ يَا رَوْضَ النَّدَى الْخَصِيبِ
عَجَلْ بِإِرْسَالِهَا فَضْلًا وَتَكْرِمَةً وَإِنْ صَحَبْتَ بِهَا شَيْئًا مِنَ الذَّهَبِ
فَذَاكَ جُلٌّ مَرَامِ الْخَلِيلِ مِنْكَ فَلَا بَرَحَتْ تَسْخُو لِمَنْ يَرْجُو بِلَا سَبَبِ

فأجابه مرتضى الزبيدي بقوله :

رَبُّ النِّهَايَةِ يَا رَوْضَ الْعِلْمِ الْخَصِيبِ لَا زِلْتَ فِي سَنَنِ الْإِفْضَالِ وَالْأَدَبِ
أَتَى كِتَابُكَ كَالدَّرِ النَّظِيمِ حَالًا عَلَى نَحْوِ الْحُسَانِ الْبَيْضِ بِالْحَبِيبِ
قَرَأْتُ كَسْرِي بِجَبْرِ مِنْكَ أَعْهَدَهُ فِي الْحَالَتَيْنِ وَمَعْنَى ذَاكَ غَيْرُ خَبِيٍّ
حَيَاكَ لَا زِلْتَ فِي عَيْشٍ وَفِي دَعَا ذَا الْعِزِّ وَالْعِلْمِ وَالْإِتْقَانِ وَالْأَدَبِ
عَاقَ الْقَضَاءُ مِنَ الْإِيْفَاءِ مَا وَعَدْتَ مِنَ الدَّرَاهِمِ فِي عَذْرِ مَعَ السَّبَبِ
رَبُّ الْبَلَاغَةِ قُلْ رَبُّ النِّهَايَةِ إِنْ يَرَى اصْطِبَارِي فَأَتَى فِيهِ ذَا طَلْبِ
لَا بَدَّ مِنْ أَخْذِهِ لَكِنْ قِيَمَتُهُ غَالٍ عَلَى وَهَذَا عَذْرُ ذِي أَرْبِ

(١) يريد كتاب نهاية الأرب للفلقشندی .

إِن شَاءَ رَبِّي فَأِنِّي مَا تَسَّرَ لِي نَدْفَعُ لَهُ ثَمَنًا يَرْضَى بِلا تَعَبٍ
أَمَّا وَأَمَّا فَهَذَا مَرَّ نَكَّتَتْهُ فَلَا بَرَحَ تَرِينَا الدَّرَّ بِالذَّهَبِ
بَاعِي قَصِيرٍ وَنَظْمِي لَا يُرَى ثَمَنًا فَاسْتَرَحْبَاكَ إِلَهَ الْعَرْشِ بِالرَّحَبِ

فَنَ هَذَا وَغَيْرِهِ نَدْرِكُ أَنَّ الشَّعْرَ اسْتُخْدِمَ بِكَثْرَةٍ فِي هَذَا الْعَصْرِ لِيَقُومَ
مَقَامَ النَّثْرِ فِي الْإِخْوَانِيَّاتِ . فَاسْتُخْدِمَ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى الْمَجَالِسِ وَالسَّهَرَاتِ -
كَمَا اسْتُخْدِمَ فِي الْمَطَالِبَةِ بِالْحَقُوقِ وَالْإِجَازَاتِ الْعَلِيَّةِ وَتَقْرِيطِ السُّكُتِ . فَنَ
أَمثلةً تَقْرِيطِ السُّكُتِ قَوْلَ الظَّاهِرِيِّ الْمُتَوَفَى سَنَةَ ١٢١١ هـ :

لِلَّهِ دَرَكٌ مِنْ بَلِيغٍ مَاهِرٍ جَمَعَ الْمَعَانِيَ فِي بَدِيعِ كِتَابِهِ
سَحَرُ الْعُقُولِ بِلَفْظِهِ وَبِنَظْمِهِ وَأَبَانَ فِي مَعْنَاهُ عَنْ أَنْسَابِهِ
كَلِمَ كَنْظَمَ الْعَقْدَ يَحْسُنُ تَحْتَهُ مَعْنَاهُ حَسَنَ الْمَاءِ تَحْتَ حَبَابِهِ
أَعَدَدْتَ لِلْبَغَاءِ تَأْلِيفًا غَدَا فِي فَنِهِ يَسْمُو عَلَى أَرْبَابِهِ
وَأَرَاكَ نَلْتَ مِنَ الْحُبَا حَظًّا غَدَا لَا يَسْتَطَاعُ وَصُولُهُ مِنْ بَابِهِ
أَوْفَتْ بِكَ الْأَهَمُّ الْعَلِيَّةَ مَنْزِلًا مُسْتَصْعَبًا صَعْبًا عَلَى خُطَابِهِ
وَاللَّهُ يَرَعَى سِرْحَ كُلِّ فَضِيلَةٍ حَتَّى يَرْوِجَهُ عَلَى أَرْبَابِهِ
أَلْبَسْتَ عَصْرَكَ مِنْ بَيَانِكَ حُلَّةَ فُشَى اخْتِيَالَا فِي بِهَا أَتْوَابِهِ
الْخ

وَأَمَّا شَعْرُ الْإِخْوَانِيَّاتِ كَمَا تَرَى بِالسَّهُولَةِ وَالْعَذُوبَةِ ، وَابْعَدَ عَنِ
التَّكْلُفِ . وَكَانُوا فِي هَذَا النُّوعِ مِنَ الشَّعْرِ يَحْتَذِرُونَ أَسْلُوبَ الرِّسَائِلِ النَّثْرِيَّةِ .
مِثَالُ ذَلِكَ قَوْلُ مُحَمَّدِ الْبَكْرِيِّ الْمُتَوَفَى سَنَةَ ٩٩٤ هـ :

يَقْبَلُ مَوْطِئُ النُّعْلِ الْكَرِيمِ وَيُخْدَمُ سُدَّةُ الْقَدَرِ الْعَظِيمِ
وَيَسْأَلُ رَبَّهُ عَوْدًا قَرِيبًا لِرُؤْيَةِ ذَلِكَ الْوَجْهِ الْوَسِيمِ
الْخ

التوسل

التوسل من أغراض الشعر التي عرفت قبل العصر العثماني . وفي هذا العصر نظم الشعراء القصائد في التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وطلب الشفاعة منه . وكانوا يمزجون التوسل بالمديح النبوي . مثال ذلك قول الشبراوي من قصيدة طويلة :

رسول الله ضاق بيَ القضاء	وجل الخطب وانقطع الإخاء
رسول الله إني مستجير	بجاهك والزمان له اعتداء
وبى وجل شديد من ذنوبى	وما أدري أعفوه أم جزاء
وما كانت ذنوبى عن عناد	ولكن بالقضا غلب الشقاء
وظنى فيك يا طه جميل	ومنك الجود يُعهد والسخاء
وحاشى أن أرى ضياعاً وذلاً	ولى نسب بمدحك واتقاء
وأنت أجل من ركب المطايا	وشيمتك السباحة والحياة
وكم لك يا رسول الله فضل	تضييق الأرض عنه والسماء
أقلنى من ذنوب أثقلتني	فأنت لعلتى نعم الدواء
وخذ بيدي فإني عبد سوء	على كسب الذنوب له اجترأ
وكن لى شافعاً فى يوم حشر	إذا ما اشتد بالناس البلاء

فالشبراوي يذكر ذنوبه التي ارتكبها ، ويشكون من الزمان والناس ، ويقول إن الدنيا ضاقت في وجهه ، وأن الشقاء قد غلب عليه . ثم يمدح النبي صلى الله عليه وسلم بقوله إنه أعظم الناس طراً . ويعرب عن أمله في أن يظفر بشفاعته ، ويلتمس من النبي أن يقيه من ذنوبه الكثيرة التي أثقلت كاهله واعترف بأنه عبد سوء ، وأنه كان جريئاً في ارتكاب المعاصي . وللشبراوي عدة قصائد في هذا الموضوع ، وكلها تدور حول المعاني المتقدمة .

وقال محمد البكرى من قصيدة طويلة فى مدح النبى عليه السلام ،
والتوسل به :

ألا يا خير مبعوث له مولاه قد قرب
ومن بالعين أبصره فعنه قط لا يحجب
ويا من لا ينى شخص بمدحته وإن أطنب
أقانى عثرة عظمت فإنى ضاق بى المذهب
وكن لى ثم أولادى ومن لى فى الورى ينسب
وخلصنى وخصصنى بسر منك لا يسلب
أغث يا سيدى لهنى وإلا من له أذهب
بك استنصرت فانصرنى فمن تنصره لا يغلب
بك استشفعت فاشفع لى فى ذنبى لك المهرب

وتمتاز هذه القصيدة بالسهولة والوضوح والموسيقية الجميلة ، وصدق
ال عاطفة .

وقد كثر فى هذا العصر التوسل ببعض أصحاب الأضرحة من آل البيت .
وكانت ساحات الموالد مجمعا للشعراء يفدون عليها من كل صوب ، وينشدون
قصائدهم فى مدح صاحب المولد والاستغاثة به ، والتوسل إلى الله به .
ويمكننا أن نقول إن الشعراء جميعا قد اشتهروا فى المعانى والآراء والأفكار .
فهم يذكرون ما يعانون من الضيق ، ومن نكد الدهر ، وقلة النصير ،
وانعدام المعين . ويلتمسون من صاحب الضريح أن يأخذ بيدهم ، وأن
يشملهم بعطفه وبره . مثال ذلك قول الشبراوى متوسلا بالحسين :

يا ابن الرسول بأملك الزهرا البتو ل وجدك المأمول عند الناس
وشقيقك الحسن الشهيد المرتضى الطاهر الأخلاق والأنفاس

وبحقّ حرمة جدك المبعوث من أزكى العناصر رحمة للناس
عطفاً علىّ فإن لي بك نسبة الحب أسسها أشدّ أساس
وعليك بعد الله ثم نبيه عولت في الإقبال والإيناس
فلقد خصصت وأنت أشرف سيد بكرم أخلاق وطيب غراس
جاشي يخيب مؤمل يرجوك في الـ إصباح أو يدعوك في الإغلاس
يارب غوثاً بالذي عوذته من غاسق يسطو ومن خناس
أزكى الوري خلُقاً وأنداهم يداً وأعزهم شرفاً بلا إلباس
أدعوك يا خير الأنام مؤملاً منك الرضا والأمن بعد الياس

وتمتاز قصائد التوسل بصدق العاطفة ، وتدفق المشاعر ، وتوفر
الإحساس . وهذه هي عناصر الإجابة في الشعر . فسلامة الآراء أو فسادها
لا يقدم ولا يؤخر ، وإنما العامل الأول والأخير هو الإحساس الذي يعبر
عنه هذا الشعر والمواطف التي يترجم لها . ولا شك في أن التكلف لا وجود
له في هذا الميدان ، لأن الشعراء كانوا يؤمنون بما يقولون . وكانوا
يعتقدون أن هذه القصائد التي ينظمونها في التوسل تعود عليهم بالخير
العميم ، والنفع الجزيل . وكانوا يذهبون إلى الأضرحة وينشدون قصائدهم
أمامها في ذلة وخشوع وخضوع ، معتقدين أن أصحاب الأضرحة يسمعونهم ،
راجين أن تتحقق آمالهم ببركة هؤلاء الأولياء ، وتستجاب دعواتهم .

وفي كثير من هذه القصائد تبحر الشاعر يذكر بإسهاب ما يلاقيه من
الجحود والإنكار ، والنسيان والإهمال . انظر إلى الإدكاوي حين يقول من
قصيدة طويلة في مدح السيدة نفيسة والتوسل بها :

فبحق جدك يا حسيبة لي فسكوني منجده
أشكو إليك زمان سو ء صرت فيه على حده

لا مسعف لا منصف لا ماجد يولى يده
 كل على أمواله أقفال شح مرصده
 بل كل دينار عليه حصون حرص موصده^(١)
 لا يسمحون بها سوى في ظلم أو في مفسده
 لا يصنعون يدا تكو ن لدى الإله مخلده
 ما وفق الرحمن منب بهم باخلا أو سده^(٢)
 بل من رأى منهم طريقا للمكارم سده^(٣)

... الخ

فالإدكاوى صور لنا في هذه القصيدة موقف الناس منه ، وما كابدته
 بسبب ذلك من ضيق ونكد ، وغم وبؤس . وقد كرر هذه الصورة في قصائد
 أخرى . فالشعر الذى نظم في هذا الغرض يعطينا في كثير منه فكرة واضحة
 عن حياة الشاعر الخاصة .

(١) موصدة : مقفلة (٢) سده : أرشده (٣) سده : أغلقه .

الباب الرابع

بعض مشاهير الشعراء

١

عبد الله الشبراوى^(١)

١٠٩٢ - ١٢١١ هـ

هو عبد الله بن محمد بن عامر بن شرف الدين الشبراوى الشافعى ،
الإمام الفقيه المحدث المتكلم الماهر ، الشاعر الأديب . نشأ فى بيت علم ودرس
على شيوخ عصره ، ومال إلى نظم الشعر منذ صباه . وقد ورث ثروة طائلة
عن والده فبنى لنفسه قصراً نفخاً بالقرب من مسجد الرويعى . ومن
آثاره الأدبية :

- ١ - الإتحاف بحب الأشراف . مطبوع
- ٢ - شرح الصدر فى غزوة بدر ، ألفه بإشارة على باشا الحكيم ،
وذكر فى آخره نبذة من تاريخ مصر وأسماء ولاتها إلى عصره . مطبوع
- ٣ - منائح الألفاف فى مدائح الأشراف ، وهو ديوان شعره . مطبوع

* * *

وقد تكلمنا على الشبراوى فى مواضع كثيرة من هذا الكتاب ودرسنا
بعض قصائده . والأغراض التى تناولها الشبراوى فى شعره هى :

(١) ترجم له الجرجى ١ / ٢٠٨ طبع بولاق .

- ١ - الغزل : ويمتاز بالركة والسهولة وصدق العاطفة . وقد ذكرنا فيما مضى أن الشبراوى لم يعشق شخصا معيناً ، وإنما كان يعشق الجمال حيثما وجدته ؛ في الإنسان والطبيعة . ومزج الغزل بوصف الطبيعة .
- ٢ - المدح : كان الشبراوى متصلاً اتصالاً وثيقاً بالولاة ، يحضر مجالسهم ويخصونه بهداياهم ، فلهج بمدحهم ، كما مدح بعض الأشراف .
- ٣ - المديح النبوى . وقد ذهب الشاعر لأداء فريضة الحج سنة ١١٣١ هـ ونظم بعض القصائد في مدح النبي صلى الله عليه وسلم وأنشدها أمام ضريحه
- ٤ - التوسل ببعض أصحاب الأضرحة من آل البيت .
- ٥ - الشعر الغنائى : وله موشحات وأبيات اشتهرت بين المغنين في عصره
- ٦ - الوصف : وله قصائد في وصف نهر النيل والخليج للمصرى .

* * *

وفي سنة ١١٢٧ هـ أسندت إليه مشيخة الأزهر . قال الجبرتى « وقد بلغ منزلة رفيعة عند رجال الدولة والأمراء ، ونفذت كلمته ، وقبلت شفاعته ، وصار لأهل العلم في عهده رفعة ومقام ، ومهابة عند الخواص والعوام » وكان محسناً إلى الشعراء والأدباء ، فلذلك أحبوه ومدحوه . قدحده عبد الله الإدكاوى بقصيدة جاء فيها :

حاوى الفخار جملة مجموعته ومفردة
إن ذكروا وصف الكمال كان فيه أو حده
أو ذكروا حسن الوفا فثله لن نعهده
أو دقة الفهم فقل أدرك منها مقصده

... الخ

وكان الشاعر عامراً الأبوبوطى إذا جاء إلى القاهرة نزل في ضيافته فيحبوه بكرمه وعطفه ، وإحسانه وبره .

ومات في العاشر من ذي الحجة سنة ١١٧١ هـ ورثاه الشعراء ، فمن ذلك قول الإدكاوى :

عين جودى بدمع مسفوح واندبى أوحدا الزمان ونوحى
... الخ

٢

عبد^(١) الله الإدكاوى

١١٠٤ - ١١٨٤ هـ

هو عبد الله بن عبد الله بن سلامة الإدكاوى المصرى الشافعى .
الشهير بالمؤذن .

ولد بقرية إدكو بقرع رشيد سنة ١١٠٤ هـ وبها حفظ القرآن . ثم انتقل
إلى القاهرة والتحق بالجامع الأزهر ودرس على شيوخ عصره ، وظهر ميله
إلى الأدب .

وانضم إلى حاشية الأمير عثمان بك ذى الفقار ، وصار من أخص أتباعه
ولما ثار الجند وأبعدوه إلى خارج البلاد ؛ آواه السيد عبد الخالق بن وفا .
قال الإدكاوى فى ديوانه : « وقلت مادحا بجمع الأفضال وأوحد أهل
الكمال سيدى عبد الخالق بن وفا ، أدام الله له الاصطفا ، وله موقع ينبغى
التنبية عليه ، وتحسن الإشارة إليه ، فيه أكبر دلالة على ولاية الممدوح ،
وأنه بلاشك من عين العناية ريان ممنوح ، وهو أنى كنت من اللاجئين لحضرة
عثمان بك ذى الفقار ، والملازمين له غالب الليل والنهار ، فقامت عليه الأجناد ،
وأخرجوه من البلاد ، فحصل حينئذ الضرر لكل من لاذ به ، وتعلق بسببه

فصادفت حضرة الممدوح في بيت رجل من الأعيان ومعه إنسان يوصى عليه رب ذلك المكان ، فأوصى عليه وأكد وقال : هذا رجل يقوم عندى مقام الولد . فالتفت إليه وقبلت يديه وقلت له : وص بي يامولاي ذلك المخدم لأكون من رعايته غير محروم . فكان جواب ذلك الإمام الملحوظ أن قال لي : أنت بحمد الله محفوظ ، ف وقعت عندى كلمته هذه موقع الإيحاء ، واطمأنت من سبائر الأنحاء ، وانقضت تلك الفتنة ، ولم يخلص لي منها بلطف الله شيء من تلك المحنة . حينئذ مدحته بهذه القصيدة ، وذكرت بها اللفظة المفيدة ، ومما جاء فيها قوله :

هو عبد الخالق المولى الذى من نجاه دأب في حفظ وأمن
قطب ذا العصر الذى تجلى به كرب تعبي أذا العزم وتضنى
نجل سادات هو أهل الوفا صفة ثابتة في كل ذهن
هم ملوك الأرض سادات الورى لهمو التصريف في حر وقين
... الخ

وذكر الجبرتي في ترجمة الإدكاوى مانصه « .. وظهر ميله إلى الأدب فانضوى إلى فخر الأدباء في عصره السيد على أفندي برهان زاده نقيب السادة الأشراف ، الذى أسبغ عليه كرمه ، ورتب له ما يكفيه في معيشته ، وحج بصحبته بيت الله الحرام ، وزار قبر نبيه عليه الصلاة والسلام ، وذلك سنة ١١٤٧ هـ وعاد إلى مصر ، وأقبل على تحصيل الأدب ، ونظم ونثر ، ومهر وبهر . ورحل إلى رشيد وفوه والإسكندرية مرارا . واجتمع بأعيان كل منها ، وطارحهم ومدحهم »

وبعد وفاة السيد النقيب تزوج وصار صاحب عيال ، وتنقلت به الأحوال وشعر بالألم لفقد النقيب الذى كان له معيناً في حياته . ولما ضاقت في وجهه السبل لجأ إلى الشيخ الشبراوى ولازمه وقام بخدمته ومدحه بغير قصائده . وكان الشبراوى يعترف بتفضل الإدكاوى ويحترمه .

ولما توفي الشبراوى سنة ١١٧١ هـ انتقل إلى شيخ وقته الشمس الحفنى
ولازمه في حله وترحاله ومدحه بشعره . وقد رتب له الحفنى ما يغنيه
وبعد وفاة الحفنى اضمحل حاله ، وعانى البؤس والفقر ، واعتبرته الأمراض
ولزم داره مدة أيام حتى وافاه الحمام سنة ١١٨٤ هـ وصلى عليه بالأزهر ،
ودفن بالمجاورين .

وكان خطاطا ماهرا ، وقد اشتغل في أواخر حياته بنسخ الكتب للأمرء
والوزراء والأعيان . وكلفه مرتضى الزبيدى بنسخ بعض الكتب
وواصل مدة من الزمن بالأمير كتحدا رضوان الجلى ومدحه شعرا ونثرا
وقد تأثر ببيئة الأربكية المأجنة الخليعة فنظم شعرا كثيرا في الخلعة
والمجون . ومن قوله وقد أخرج من فمه دما وتحركت عليه الصفراء

جنيت على نفسى جنابة جاهل لظنى أن الجهل فيه سرورها
طغت عندى الحمرا حين صرفتها تمردت الصفرا وزاد شرورها
فأخرجتها شيئا فشيئا ملاظفا إلى أن خبت نيرانها وزفيرها
فجاءتها البيضاء معاتبة على تعديها جهلا وزاد نفورها
... الخ

وقال يصف ما وصل إليه من سوء الحال :

وأما الأرز نعرفه ولكن له عنا انحراف واعوجاج
وأما السمن سمناه ودادا فقال وداد مثلكو خداج
وأما البيت عنه لا تسلى فبومته لها دوما هياج
بأكلى أو حمارى أو قطاطى فأهرب خائفا وبى اعتلاج

وقد اجتمع بأعلام الأدباء والشعراء الذين وفدوا على مصر ، ومدح
الولادة والحكام والوزراء والأمرء الذين عاصروهم ونال جوائزهم ، ولعله كان
مسرفا متلافا ، فقد مات فقيرا ، ومن آثاره الأدبية التى ذكرها الجبترى :

- ١ — الدرة الفريدة والمنح الربانية في تفسير آيات الحكم العرفانية .
- ٢ — مختصر شرح بانة سعاد .
- ٣ — الفوائج الجنانية في المدائح الرضوانية . جمع فيه قصائد الشعراء الذين مدحوا الأمير رضوان . ثم أورد في خاتمتها ماله من المدائح فيه نظماً ونثراً . منه نسخة خطية بدار الكتب .
- ٤ — هداية للتوهمين في كذب للنجمين .
- ٥ — ديوان شعره ، المسمى « بضاعة الأريب في شعر الغريب » وهو مجلد ضخيم ، منه نسخة خطية بمكتبة سوهاج . كما أن الجامعة العربية نقلت عنها شريطاً .
- والإدكاوى من أغزر شعراء عصره نتاجاً . وهو شاعر مجيد إذا طرح التكلف جانباً وترك نفسه على سجيته .

٣

ابن الصلاح^(١)

١١٤٠ — ١١٨٠

هو العالم الأديب الماهر ، الناظم النائر ، محمد بن رضوان السيوطي ، الشهير بابن الصلاح . ولد بأسسوط على رأس الأربعين كما ذكر الجبرتي ، ونشأ هناك . وأمه شريفة من بيت شهير بأسسوط . ولما ترعرع جاء إلى القاهرة وحصل العلوم . وحضر دروس الشيخ محمد الحفني ولازمه وانتسب إليه ، فلاحظته أنواره — كما يقول الجبرتي — ولبسته أسرار . ومال إلى فن الأدب فأخذ منه بالخط الأوفر . وكان خطه في غاية الجودة .

(١). الجبرتي ١/٢٦٥

والصحة . وكتب نسخة من القاموس المحيط ، وصفها الجبرتي بأنها في مثبته
الحسن والإتقان والضبط .

قال الجبرتي « وله شعر عذب يغوص فيه على غرائب المعاني ، وربما
يتذكر ما لم يسبق إليه . وقد أجازته الشيخ الحفني بما نصه :
نحمدك الله يا عليم يا فتاح ، يا ذا المن بالعلم والصلاح . ونصلي ونسلم
على أقوى سند ، وعلى آله وصحبه معادن الفضل والمدد .

أما بعد ، فإن المولى العلامة ، الرحلة الفهامة ، الحاذق الأديب ، واللوحى
الأريب ، مولانا الشيخ محمد الصلاحى السيوطى ، قد حاز من التحلى بفرائد
المسائل العلمية أوفر نصيب ، بفهم ثاقب ، وإدراك مصيب . فكان أهلاً
لانتظام فى سلك الأعلام بإجازته كما هو سنن أئمة الإسلام . فأجزته بما
تضمنته هذه الوريقات من العلوم العقلية والنقلية المتلقاة عن الأئمة
وبسائر ما تمجوز له روايته ، أو تثبت لديه درايته . موصياً له بتقوى الله التى
هى أقوى سبيل النجاة . وألا ينسأنى من صالح دعواته فى أوقات توجيهاته .
نفعه الله ونفع به ، ونظمه فى عقد أهل قربه . وأفضل الصلاة والسلام على
أكمل رسل السلام ، وعلى آله أئمة الهدى ، وصحبه نجوم الاقتدا .

« كتبه محمد بن سالم الحفناوى الشافعى ، ثامن جمادى الثانية سنة ١١٧٨ »

وكان ابن الصلاحى يجتمع فى ندوات ليلية مع أصدقائه من الشعراء
والأدباء ، وبخاصة قاسم بن عطاء الله المصرى ، ويتطارحون الشعر ،
ويتناشدون القصائد ، ويرتلون المقطوعات ، ومن غرر قصائده التى
مدح بها الشيخ الحفنى تلك التى مطلعها :

مل فى فقد وقد الهجير إني بظلك مستجير

وعدها سبعون بيتاً . وقد أوردناها فى نهاية الكتاب . وله فى
الإخوانيات شعر غير قليل . إلا أن ديوانه لم يصل إلينا .
(م ١٦ الأدب المصرى)

قاسم بن عطاء الله المصرى

١٢٠٤ - ٠٠٠٠

قال الجبرتى « مات الفاضل النحرير ، الذى وقف الأدب عند بابه ، ولادته أربابه بأعتابه ، النبیه النبیل ، واللوزعى الجلیل ؛ قاسم بن عطاء الله المصرى الأديب » وكان قاسم من شعراء الأمير رضوان كَتَبَ هذا الجملی .

قال الجبرتى « ولقاسم أخبار كثيرة مع شعراء عصره . وله مداعبات معهم يطول ذكرها » وقد داعبه محمد شبانة المتوفى سنة ١٢٠٠ هـ بقصيدة جاء فيها :

سبحان من قسم النجوى	س لقاسم وأذلّ هامه
وكساه ثوب جناية	يخزي بها يوم القيامة
هو رده من هجم البيو	ت وردء من خطف العمامه
ويخيس من طبع النحا	س بكفه وطلى ختامه
يحتال في نسل الحريد	ر ولو تحصن في دعامة
ويسل كحل من	من يخوفه ينقى منامه
لو حل في حرم الوزيد	ر مصاحباً ورأى غلامه
لمضى به لأخى الهوى	في غفلة يقضى مرامه
بالشال عمم رأسه	ولحيلة تأتي أدامه
. . . الخ	

فأجابه قاسم بقصيدة منها :

جل الذى قسم الشقا	لشبانة وله	أدامه
بعامة لو خالها القسلا	توهها	برامه

— ٢٤٣ —

موروثة عن جدّه من قبل أن تبني القمامه
إن كان ذا وجه اللطيف مع فأين أصحاب الندامه
لو كان يصلح للصلا ة لحق للقرء الإمامه

ولا يخفى أن قصيدة شبانة أفسى هجاء . فقد اتهم قاسماً بأمو ر شنيعة
كالسرقة والاتجار في الأعراض .

قال الجبرتي « وللمترجم قصائد ومقاطيع ومدائح وموشحات وأزجال
وتواريخ لا تحصى ولا تسبر ، ولا تعد ولا تستقصى . وقد تقدم بعض منها
في تراجم الممدوحين . ومنها المزدوجة التي مدح بها الأمير رضوان كتحدا
عزبان الجلفي . والموشحات المشهورة بين أرباب الفن والأغاني ، وهو شيء
كثيراً جداً » ولكن الذي وصلنا من آثاره الأدبية قليل جداً .

وكانت البلاد تعاني مجاعة شديدة سنة ١١٩٨
فاحشاً . فلما أهل عام ١١٩٩ قال قاسم بن عطاء :

يا أهل مصر استبشروا فالله فرج كـ
وأنى الرضاء مؤرخاً عام بفضل الله سم

قال الجبرتي « فكان النال بالمنطق ، وأخذت الأشياء في الانحلال قليلا »
توفي يوم الجمعة خامس شوال سنة ١٢٠٤ هـ .

٥

السبربائي

٠٠٠٠ — ١٢١٠ هـ

هو شمس الدين بن عبد الله بن فتح الفرغلي المحمدي الشافعي السبربائي ؛
نسبة إلى سبربای ؛ قرية بالغربية قرب طنطا ، وبها ولد .

ويرجع نسبه إلى الفرغلي الحمدي ، من ولد محمد بن الحنفية المدفون بأبي تيج من بلاد الصعيد .

تفقه على علماء عصره ، ودرس على شيوخ وقته . فأدرك من كل فن الحظ الأوفر . ومال إلى فن الميقات والتقاويم ، وألف في ذلك وصنف ، واشتغل بالأدب والتاريخ والشعر ففاق الأقران ، ومدح الأعيان .

قال الجبرتي « وذكرت كثيراً من أشعاره في بعض تراجم الممدوحين . ومنها المزدوجة المسماة بنفحة الطيب في محاسن الحبيب ، التي نظمها باسم الأمير حسن بك رضوان . وقد ذكرتها في ترجمة الأمير المذكور » .

« وصاحبناه وساجلناه كثيراً عندما كان يأتينا مصر وبطندتا في الموالد المعتادة . فكان طوداً راسخاً ، وبحراً زاخراً ، مع دماثة الأخلاق ، وطيب الأعراق ، ولين العريكة ، وحسن العشرة ، ولطف الشائل والطباع . وكان يلى نيابة القضاء ببلده . وبالجمله فقد كان عديم النظر في أقرانه ، لم أر من يدانيه في أوصافه الجميلة . وله مصنفات كثيرة » .

« وسليقته في الشعر عذبة رائقة ، وكلامه بديع مقبول في سائر أنواعه من المدح والثناء ، والتشبيب والغزل ، والحماسة والجد والهزل . وله ديوان جمع فيه مدائح للنبي صلى الله عليه وسلم سماه عقود الفرائد . وقد قرظه الشيخ عبد الله الإدكاوي سنة ١١٧٩ بقوله :

هكذا من أراد نظم الفرائد أو نحو حوك القصائد
عكذا هكذا عقود المعاني لا عقود المخدرات الفرائد
تلك صواغها البنان وهذى صاغها فكر شمس فضل الأماجد
الخ

وله في رثاء شيخه القطب الحفنى قصائد طنانة . وله جملة أراجيز ، منها

أرجوزة في تاريخ وقائع على بك - يعنى على بك الكبير - ومحمد بك -
وهو محمد بك أبو الذهب .

وقال الجبرتى في ترجمة حسن بك رضوان المتوفى سنة ١١٩٢ هـ .

« وكان أميراً جليلاً مهذباً ، كريم الأخلاق ، لين الجانب ، يحب أهل
الصلاح والعلم . وعاشر بالحللة صاحبنا الفاضل اللبيب الأديب الشيخ
شمس الدين السبربائى الفرغلى وأحبه واغتنب به كثيراً وأكرمه ، وحجزه
عنده مدة إقامته بالحللة . ومنعه من الذهاب إلى بلده إلا لزيارة عياله فقط
في بعض الأحيان ، ثم يعود إليه سريعاً . ويستوحش لغيابه عنه . فكان
لا يأتنس إلا به . وللشيخ شمس الدين فيه مدائح ومقامات وقصائد . من
ذلك ما ضمنه في مزدوجته « نفحة الطيب في محاسن الحبيب » .

ولم يصل إلينا ديوانه ، ولا شك في أنه كان مجلداً ضخماً . توفى في
شهر ربيع الأول سنة ١٢١٠ هـ ببلده ودفن بها .

٦

الظهورى

٠٠٠٠ - ١٢١١ هـ

قال الجبرتى « هو النبيه الأريب ، والفاضل النجيب ، الناظم النثر
المفوه ؛ إسماعيل بن خليل بن على بن عبد الله الشهير بالظهورى المصرى
الحنفى . كان إنساناً قانعاً بحاله ، يتكسب بالكتابة وحسن الخط ، وقد كان
جوده وأتقنه على يد أحمد أفندى شكرى . وكتب بخطه الحسن كثيراً من
الكتب والمصاحف » .

« وكان يشتغل بتجارة البن ، وله حاصل لهذه التجارة بوكالة البقل بقرب

خان الخليلي . وله معرفة جيدة بعلم الموسيقى والألحان وضرب العود . وهو شاعر مجيد ، له مدائح وقصائد وموشحات ، فمن موشحاته تلك التي حذا فيها حذو ابن خطيب داريا الأندلسي ومطلعها :-

ليت شعري يا أخلاء الهوى هل أرى بدرى بحانى مؤنسى
وكان الظهوري مغرماً بقضاء أوقات طيبة بين ربوع الأزبكية وبين
حدائق القاهرة وبساتينها على عادة الشعراء والأدباء في ذلك العصر . فرقة
يذهب إلى جزيرة الروضة ، ومرة إلى بولاق . أو يتجول على شاطئ الخليج
أو على شواطئ بركة الأزبكية . ثم رحل إلى أطواب من قرى الصعيد
واستقر بها مدة من الزمن . فنظم جملة قصائد أعرب فيها عن شدة شوقه
وحينه إلى القاهرة ومغانها . ووازن بين حالته الأولى في القاهرة وحالته
بقرية أطواب . فمن إحدى هذه القصائد :

سلام على مصر سلام شج حنّاً	تبلغها أيدي النسيم لها عَنّاً
وأزكى تحيات على الروضة التي	عليها لسان الجوّ بالمزن قد أُنّي
وحياً إلهي نيلها وظلالها	وخلجانها والقرط إذا شنفت أذنا
ومقياسها مني إليه تحية	معنبرة الأرجاء عاطرة عرنا
فكم نلت فيها من سرور وبغية	إذا العيش طلق والهوى ضاحك سنّاً
وليلاتنا فيها وطيب حديثنا	وجيب الدجى ينشق عن بدر هادُجنا
..... الخ	

ومن قصيدة أخرى :

سلام على مصر ديار أحبتى سلام مُعَنّى هام عشقاً بحسرتى
ومنها :

خليلىّ قوماً واسألاً الروضة التي	بها اخضلّ نبت في عرار وزهرة
وللرصد حيوه مع اللهو ساعة	فذلك أقصى ما يبرّد غلتى

ومقياسها يا صاح لاتنس فضله بدا مثل شيخ لابس لعمامة
ومنها ينمى سوء حظه :
وأزلنى حظى بأطواب قرية أقمت بها ما بين يوم وحدأة
ويبدو من بعض شعره أنه كان يميل إلى اللهو والمجون . وقد شرح لنا
مذهبه في الحياة في قصيدة مطلعها :
هل العيش إلا في اكتساب ما نثم أو العمر إلا في اقتناء محارم
أو الغنى إلا في ارتكاب كبيرة أو السكر إلا في ارتشاف مباسم
... الخ
فهو يرى أن الحياة الحققة هي في الانغماس في الشهوات ، والأخذ بحظ
عظيم من اللذات .
قال الجبرتي « وللمترجم مقامة وقصيدة يداعب الشيخ عنتر الرشيدى ،
أعرضنا عنها لما فيها من الهجو والدم » ولم يصل إلينا من آثاره الأدبية
سوى القليل .

٧

الخشب

٠٠٠ - ١١٣٠ هـ

هو السيد إسماعيل بن سعد الشهير بالخشب . كان أبوه نجارا ثم اشتغل
بتجارة الخشب .
بدأ حياته الدراسية بحفظ القرآن . ثم تلقى على شيوخ عصره الفقه
وأصول الدين وعلوم اللغة . وعين شاهدا بالمحكمة الكبرى . وفي أثناء ذلك
عكف على قراءة كتب الأدب والتصوف والتاريخ . وحفظ كثيرا من الشعر
والنثر والمعارف الصوفية . قال الجبرتي « فصار نادرة عصره ، ونظم الشعر الجيد »

وكان لحسن أخلاقه وكرم شمائله وخفة روحه موضع اهتمام الأمراء والرؤساء والأعيان فتنافسوا في صحبته ، وتهافتوا على مجالسته . وكان يظفر بإعجابهم بحلو حديثه الذى ملك به قلوب الناس .

ولما دخل الفرنسيون مصر ، ورتبوا ديواناً للنظر في قضايا المسلمين ، تعين الخشاب كاتباً بهذا الديوان ، يسجل تاريخ الحوادث اليومية . وأجروا عليه مرتباً شهرياً . وقد جمع بين هذه الوظيفة ووظيفته الأولى ، وهى الشهادة فى المحكمة .

ونشأت بينه وبين الشيخ حسن العطار صداقة متينة ، ومودة أكيدة ، وكان لا يفارق أحدهما الآخر فى غالب الأحيان . وكثيراً ما أمضيا سهرتهما مع الشيخ عبد الرحمن الجبرتي المؤرخ المشهور ، متحدثين فى الفنون الأدبية والتاريخ .

والشيخ حسن العطار هو الذى تولى ترتيب ديوان الخشاب بعد وفاته . وقد اشتهر هذا الديوان بين المتأدبين بمصر فى ذلك الوقت ، وأقبلوا على مطالعته واقتنائه ، وطبع بالجوائب سنة ١٢٩٨ هـ

وقد جمع الخشاب ثروة طائلة . وشيد لسكناه قصرأ فخماً بجهة بين القصرين وعاش فى رغد من العيش حتى أصيب فى أواخر حياته ببعض الأمراض . ولما مات صلى عليه بالأزهر فى مشهد حافل . ودفن بمقابر الحسينية .

الباب الخامس

النشر

الفصل الأول

النشر الفني

استخدم بعض كتاب هذا العصر النشر الفني في تأليف الكتب. ومن أشهر هؤلاء الكتاب : شهاب الدين الخفاجي الذي ألف كتابه «ريحانة الألبا» على نمط كتاب الخريدة للعماد الأصفهاني. وكان الشهاب مستوعبا للأدب العربي، متمكناً من اللغة. فلذلك جاء أسلوبه قويا، وانقاد له السجع والجناس والطباق والمقابلة انقيادا تاما. فلا ترى في أسلوبه ضعفا ولا تكلفا ولا غموضا، ولا إسفافا. انظر إليه حين يقول في ترجمة داود الأنطاكي :

« ضرير^(١) بالفضل بصير ، كما نما ينظر خلف ستارة الغيب بعين فكر خبير . لم تر العين ، بل لم تسمع الآذان ، ولم تحدث الركبان بأعجب منه مسائلة الركبان . إذا جس نبضا لتشخيص مرض عرض أظهر من أعراض الجواهر كل عرض . فيفتن الأسماع والأبصار . ويطرب بحس النبض مالا يطربه جس الأوتار .

يكاد من رقة أفكاره يحول بين الدم واللحم
لو غضبت روح على جسمها ألف بين الروح والجسم
فسبحان من أظفأ نور بصره وجعل صدره مشكاة نور ، فإنها لا تعمى

الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور . وله في كل عام سهم مصيب ، ومنطق محلى بهذيب التهذيب . وكنت قرأت عليه الطب وغيره في سن الصغير فسمعت منه ما يغار له نسيم السحر ، ويطرب من لطفه نغمات الوتر . ينثر فيه نثار العلوم على عرائس المنثور والمنظوم . وكان يقول : لو رآني ابن سينا لوقف ببائي ، أو ابن دانيال لا كتجل بتراب أعتابي . إلا أنه على مذهب الحكماء ، ومشرب الندماء ، ولذا كثر كلام الناس في اعتقاده ، ونقل رشح قطر من خفي إلحاده . ثم لما كثر اللغط فيه ارتحل للبيت العتيق فطافت به المنية من كل فج عميق . »

هذا هو أسلوب الشهاب الخفاجي . وهو يمتاز إلى جانب ما قدمنا من أنواع المحسنات اللفظية بالتضمنين من القرآن الكريم والأمثال والحكم والشعر .

* * *

ومن كتاب النثر الفنى في ذلك العصر^(١) : يوسف الخفناوى ، وله من فصل في مدح الأمير كتبخدا رضوان الجلفى :

« وكيف وأمامهم ملك شدت الجوزاء تخدمته مناطقها ، ومدت العلياء على هامته سرادقها ، وسقى الآمال والأرواح من سلافة جوده وآدابه ماصير أربابها خدما لأعتابه ، وأوقف الألسنة والأذهان على نشر نواله الكامل ، الأمير رضوان ، لازال سعه قائما على طول المدى ، فإنه عين المسكارم وقرتها ، وضياء جبهة للعالي وغرتها . التالى لسان طاله لمن يباهى ويناضل : تأخر فأين الثريا من يد المتناول ؟ »

« المولى الذى جمل الأيام عبيدا لأتباعه ، والمواهب ، والأرزاق خدما

(١) العوائج الخنائية في المدائح الرصوانية .

لأشيعائه . وساس بسديد رأيه الإمارة فأحسن سياستها ، وأدار على الرعية كأس حلمه ممزوجاً ببأسه فأحكم رياستها . وصارت القاهرة بدولته لأعدائها قاهرة »

ومن نهجوا هذا النهج : يوسف بن مرعي الحنبلي المتوفى بالقاهرة سنة ١٠٣٠ هـ قال في أحد^(١) مؤلفاته :

« إن الله سبحانه وتعالى قد أوجد هذا العالم إيجادا جميلا ، وفضل بنى آدم على كثير ممن فضل تفضيلا ، وخص الأنبياء بمزيد الفضل والكرامات حتى غدوا بذلك أنوار الكائنات ، وأسرار الموجودات ، وجعل العلماء لهم وارثين ولآثارهم مقتفين في بيان شرائع المكلفين ، لاسيما المجتهدين ، رضوان الله عليهم أجمعين ، فهم في الفروع مختلفون ، وفي الأصول متفقون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون .

فاختلاف الأئمة رحمة لهذه الأمة ، والجميع على هدى ، فهم من الشريعة الغراء يستمدون ، وللملة الزهراء يعتمدون ، وهم أفضل أتباع المرسلين ، وخير من آمن وصدق النبيين ، ولاسيما أئمة المذاهب الأربعة المجتهدين ، ففضلهم مشهور قديما وحديثا ، وعلمهم منشور تفسيراً وحديثاً --- الخ »

واستخدم النثر الفني في مقدمات الكتب ، مثال ذلك قول عبد الرؤوف المناوي المتوفى سنة ١٠٣٠ هـ

« وبعد ، فإنني^(٢) لما شرحت فيما مضى الجامع الصغير من حديث البشير النذير ، كوى قلب الحاسد لما استوى ، فجهد أن يأتى له بنظير فرجع إليه بصره خاسئاً وهو حسير ، فلما آنس من نفسه القصور والتقصير عمد إلى الطعن فيه بالتطويل وكثرة القول والقليل

(١) تنوير بصائر المقلدين في مناقب الأئمة والمجاهدين . مخطوط رقم ١١٢٠ تاريخ

(٢) التيسير بشرح الجامع الصغير ص ١ طبع بولاق سنة ١٢٨٦ هـ

« فلقطع ألسنة الحسدة المتعنتين ، وخوف انتحال السارقين أمرني بعض المحبين أن أختصر اللفظ اختصارا ، وأقتصر في المعاني على ما يظهر جهارا ، فعمدت أختصر ، وطفقت أقتصر ، ثم عن لي أنه كيف يليق إهمال هاتيك النكت البديعة اللطيفة ، والتحقيقات المنيفة الشريفة لخوف السارقين والمنتهين ، وقصور الأغبياء والمتعنتين ، فإن لم ينتفع به الحاسدون والقاصرون فسينتفع به المنصفون السكاملون ، وإن انتحل منه عتاة خائنون ، فمن خوان السكرام ينتهبون ، ولمثل هذا فليعمل العاملون »

إن هذه النماذج التي اخترناها بعيدة كل البعد عن الإسفاف والإغراق في التكلف الذي يفسد المعاني ، ويجعل العبارات أشبه بالآلغاز . وما ورد فيها من أنواع المحسنات اللفظية هو مما يحىء عفوا لخطر على أقلام الكتاب في مختلف العصور . وليس في النماذج المتقدمة ما يدل على تضحية المعاني جريا وراء الصناعة اللفظية . وهذا هو عنصر الإجادة .

ومن الشتر الفنى الذى عرف من قبل العصر العثمانى واستمر إلى العصر الذى ندرسه ؛ نوع متكلف يستغرق الكاتب فى إنشائه وقتا طويلا . ويحتاج فيه إلى جهد عقلى كبير . ولكن هذا النوع كان قليلا جدا ، ولو جمع لما تجاوز صفحات تعد على أصابع اليد . وكان الغرض منه امتحان مقدرة الكاتب . مثال ذلك قول عبد الله الإدكاوى :

عبد الله عند الله أوجهُ أوجهُ . دلت معاينة معانيه على رتبته .
زينته حلقة خلته ، ووفانى ووفانى شر عيب عيب ، بعين حاسد حاشد
فهنا نجد تشابها في رسم الكلمات مثال ذلك « عبد الله » و « عند الله »
و « أوجه » و « أوجه » والأولى بمعنى الغاية والذروة والثانية من الوجهة

ولم يتعاط هذا النوع من النثر فيما وصل إلينا من النصوص سوى
عبد الله الإدكاوي .

* * *

وكان المؤلفون في هذا العصر يختارون لكتبهم عناوين يتوفر فيها السجع
وهذا أمر عرف من قبل العصر العثماني ، ولكنه في هذا العصر ساد ،
وانتشر حتى أصبح كأنه من المحتم على المؤلف أن يختار لمنوان كتابه عبارة
مسجوعة ، مثال ذلك « الدر المنضود في ذم البخل ومدح الجود » النناوي
و « بلوغ الأرب لمعرفة أمثال العرب » له ، و « الإتحاف بحب الأشراف »
للشبراوي ، وغير ذلك مما لا يعد ولا يحصى ، ومن النادر أن نجد كتابا خلا
عنوانه من السجع

ومن الأغراض التي استخدم فيها النثر الفني في هذا العصر :

١

المقامات

أقبل الكتاب في هذا العصر على تحرير المقامات ، واستخدموها في
الأغراض التي يستخدم فيها الشعر ، فنجد مقامات في المدح ، وأخرى في العتاب
وغيرها في الفخر والهجاء والمجون والرثاء والوصف : مثال ذلك قول الشهاب
الخفاجي من مقامته الرومية التي دمجها في وصف أحوال أهل الآستانة
وذكر علماءها :

« أنبأنا النعمان بن ماء السماء ، عن شقيق ، وقد نظمى وإياه سلك المحجة
بوادى العقيق ، قال : خرجت محتبطا ورق الكرم ، وقد صوح ربيع الآمال
والهمم حتى عز الخطيم ، ورعى الهشيم ، فطوحتني الطوائح بأرجوحة الأمانى
وهزتنى الأشعبية إلى ماجد يبارز الزمن الجانى ، سمح السجية ، بسام العشيات

رحب النادى إذا ضايق لبب العيش والتقت حلقات الملمات ، جناه ليد الأمل
داني إذا اقتطف ثمر اللهو وريحان التهانى . نزهة النفس وشمامة الأنس ، تعصر
من شمائله شمول الفرح على رغم أنف الإبريق والقدح ، فما روض الجبال
الرائع ، وما ورد الحدود فى أحكام البراقع ، وما جاذر الأعاريب ، وشمس
الحسن فى سحب الجلابيب .

ولقد دعوت ندا الكرام فلم يجب فلا شكرن ندا أجاب وما دعى
فلم أزل أدأب فى الإسآد^(١) والإعناق ، وأقلد خلافة الخضر ومساحة الآفاق
ولا أبرح فى ملاعب القضاء كرة لصور لجان القدر والقضاء .

والشهاب مجموعة مقامات وردت فى كتابه « ریحانة الألبا » فليرجع
إليها من شاء . وكلها على هذا النحو والأسلوب ، وهذه المقامات لا تعتمد
كلها على الخيال ، بل هى تصوير لواقع الحياة التى رآها وشاهدها ولمسها بيده
وأحاط بها وعرفها . وقد أجاد التصوير ، وأتقن الوصف ، ووفق فى السبك
قال فى وصف الآستانة « — فإذا هى جنة ملئت بالخور والولدان ، وحفت
بالشبهوات إذ حفت بالمكاره الجنان ، من كل شادن سرق التفاتة الغزال ،
وتسللت لترى لطفه الصبا والشمال ، لولا خوف الوشاة والعدا ، تساقطت
القبل على ورد خده سقوط النداء . جرى فيه ماء النعيم والهيف ، وحر فيه
الرأى فلو رآه سيل تلمعة لوقف ، فاق ذكاء سنًا وسناء ، فلو حاكته حازت
الشرف صيفًا وشتاء

« إذا جاده صيب الحياء والخيال أثبت ورداً ينجنى بأنامل أهداب المقل .
فى كتيبة حسن إن غزا القلوب قتلها » هزوا القدود وأرهفوا الأجفان ، وإن
هجمت على الصب عيونها « فاطلب لنفسك إن قدرت أمانا » يوسف حسن
ودلال ، ليس له أخ يحسده على الجمال

(١). الإسآد والإعناق : ضربان من السير

مأقّد فيه القميص من دُبر بل قد فيه الفؤاد من قبل
 إن قطع النسوة الأكف فقد قطع قلبي بطرفه الكحل
 ومن وراء تلك الظباء العين ملائكة من الكرام الكاتين ، غاليتم
 المداد ، وعبير نشرهم يفوح على جمر الذكاء الوقاد . الخ ،
 فتأمل حلاوة التعبير ، وبراعة التضمين ، وقوة الأداء
 ومن كتاب المقامات في ذلك العصر : محمد بن قانصوة ، وله مجموعة مقامات
 بالمتحف البريطاني ، ويوسف الحفناوى ، وعبد الله الإدكاوى ، وأحمد
 السجاعي ، وحسن العطار ، وغير هؤلاء كثيرون .

٢

الرسائل

(١) الرسائل الرسمية

- ما يكتب إلى السلطان : امتاز هذا النوع من الرسائل بميزات هي :
- ١ - وصف السلطان بصفات تكاد تجعله في مرتبة الإله ، فهو الخنكار
 الأعظم ، والحقان الأخفم ، ظل الله على الأرض ، شاهنشاه العالم
 - ٢ - الإشارة إلى حروب السلطان ضد الكفار ، والدعاء له بالنصر الدائم
 - ٣ - التعبير عن السلطان بمثل قولهم : الحضرة العلية الفخيمة ، أو الحضرة
 السنية الخاقانية ، أو الذات العلية الشاهانية
 - ٤ - الإشارة إلى عدل السلطان وفضله على الرعية
 - ٥ - تقديم فروض العبودية للسدة العلية الخاقانية
- ومن كتاب الرسائل في ذلك العصر :

١ — محمد البكرى المتوفى سنة ٩٩٤هـ وله مجموعة رسائل اسمها « دستور الغرائب ومعدن الرغائب » وهى ليست كل ما كتب، ولكنها مختارات بخط شخص اسمه « على الملاح » منها شريط بمكتبة الجامعة العربية نقلا عن نسخة خطية بمكتبة سوهاج .

وتتميز رسائله باهتمامها على المحسنات اللفظية من جناس وسجع ، وطباق ومقابلة ، وتضمن واقتباس . كما تتميز باختوائها أحيانا على تعبيرات واصطلاحات صوفية . مثال ذلك قوله من رسالة إلى السلطان العثمانى :

أهدى إلى السدة العالية ، والعتبة المتعالية ، ومقام السلطنة الرفيع سلاما يتمطر فردوس الجنان بشميمه ، ويتضوع رضوان والخور والولدان بنسيمه ، ممزوجا بأنفاس الملائكة المتقربين ، ساريا بنفحات الأقطار المواصلين . تمدد الرحوتية واللاهوتية بأسرارها ، وتصاحبه الحقيقة المحمدية الأجدية النبوية بأنوارها .

وأسأل الله الواحد الأحد ، الذى ليس له قبل ولا بعد ، أن يؤيد بسلطان عظمته وكبريائه ، وعزة ألوهيته وبهائه عبده الذى أيدته وتوجه بتاج الملك على كثير من عبيده ، وأفاض عليه من مزيده . حبيب أولياء الله عز وجل ، والراقى بإذن الله إلى المقام الأجل . واحد أقطار ماتحت الريح من سلطنة وجلالة . أوحد ملوك تلك الجهات ، بل هو البدر وهم حوله هالات . المؤيد بنصر الله فلا يهرب أحد سواه المحروس بحراسة الله فى جميع مامنحه وأعطاه . سلطان سلاطين تلك الديار ، الفاتك بأعداء الله بكل سنان وحسام بتار . مخرب ممالك الكفر والفساد ، مذل جيوش الطغيان والعناد ، قانع عباد الصليب ، المتذلل بين يدى الملك العظيم القريب الرقيب .

٢ — ومن كتاب الرسائل كذلك : مرعى بن يوسف الحنبلى المتوفى بالقاهرة سنة ١٠٣٤هـ وله من نموذج رسالة إلى السلطان :

« أحق (١) من ملك سرير الخلافة بالاستحقاق ، وأولى من ولى لواء
الولاية فى الآفاق . وهو الذى وجه عنان العناية لحماية الإسلام بشهادة
الإجماع ، وتلك شهادة لا يتطرق إليها النزاع ، وجدد بنيان الهدى بعد
مادرست آثاره ، وطمست معالمه ، ومهد بساط العدل بعد أن لم يوجد
إلا مظلوم وظالمه .

الحنسكار الأعظم ، والخافان الأخم ، ذو المفخر التى شهد بفضلها الخاص
والعام ، والمآثر التى ترتفع على الثريا وتكاثر الغمام ، والأخلاق التى رام
النسيم أن يحاكى لطفها فأصبح عليلاً ، والمعالي التى تحيل الملوك أن يتشبهوا
بها فلم يجدوا إلى ذلك سبيلاً . الجامع لسيرة أنامت الرعايا فى مهاد الأمان ،
وسريرة تكفلت أيادها بكف عوادي الزمان . وعدل سوى بين شريف
الخليقة ومشروفها ، وإحسان سير الهبات تيجرى لذوى الحاجات إلى حروفها .
المفتخر على سلاطين الدنيا بفخامة مملكة ترد الأبصار حسرى ، وسرير سلطنة
إذا استوى عليه أحيا ذكر السلف الصالح وأمات ذكر كسرى . إذا سار بين
المواكب فما هو إلا القمر حلف بالكواكب ، بصوارم سيوف تعطف حروفها
أعناق المعتدين ، وأهلة ترسل نجوم سهامها على شياطين البغاة والمتمردين
ورايات تخفق قلوب الأعداء لخفقانها ، وتخفض رتبهم لرفع شانها . لا يرتاب
مؤمله فى أنه البحر والعساكر أمواجه ، ومراحمه الدر التى يظفر بها طلاب
العرف وأفواجه .

فإذا تأملت فى هذه الرسالة وجدتها تشتمل على : (١) وصف السلطان بأنه
أجدر من تولى الملك (٢) وأنه حامى حسمى الإسلام ، ومجدد بنيان الهدى
(٣) الإفراط فى وصفه بالعدل والكرم (٤) الإشادة بقوة جيوشه وعظمة
ملكته (٥) الإشادة بسمو أخلاق السلطان وتفوق شخصيته ونقاء عنصره .

(١) بديع الإنشاء والمراسلات ، طبع الجواثب سنة ١٢٩٩ هـ

(٢ م ١٧ — الأدب المصرى)

أما أسلوبها فاحتوى على كثير من المحسنات اللفظية ، من سجع إلى جناس ، إلى طباق ، إلى مقابلة . ومع كل ذلك فلن تجد فيها ضعفا أو إسفافا أو إخلالا بالمعنى في سبيل اللفظ .

وتظهر العاطفة الدينية قوية جدا في كل ما يكتب إلى السلطان .

* * *

ما يكتب إلى الوزراء وولاة مصر : امتازت هذه الرسائل بوصف الوزير بكل منقبه وفضيلة ، مع الإسهاب في ذلك بحيث تستغرق هذه الأوصاف حوالي عشرة أسطر . مثال ذلك نموذج لرسالة كتبها مرعى بن يوسف الحنبلى :

الوزير المعظم ، والمشير المفخم . ومدبر أمور جمهور الأمم ، الجامع بين مرتبتى العلم والعلم . والحائز لفضيلتى السيف والقلم . قررة عين للمملكة والوزارة ، تاج السلطنة والإمارة . طراز للمملكة الملكية ، سيف الدولة السلطانية ، ولسان الصولة الخاقانية ، وصفة الحضرة العثمانية . رافع أعلام العدل والإنصاف ، خافض ظلام الجور والاعتساف . مؤسس قواعد الإقبال برأيه الصائب ، مشيد أركان الصولة والإجلال بفكره الثاقب . صاحب العزة والإجلال ، صاحب أذيل السعد والاقبال . حامى حى الإسلام بالديار المصرية ، ومشيد تخوم العدل بالأقطار اليوسفية .

وقد ظلت هذه الرسائل تكتب بالكيفية المتقدمة حتى العصر الحديث . وهذه مقدمة رسالة بعث بها السلطان عبد الحميد الثانى إلى الخديو عباس حلمى الثانى سنة ١٨٩٢م

الدستور^(١) الأكرم والمعظم ، الخديو الأنخم المحترم . نظام العالم ، وناظم منازم الأمم ، مدبر أمور الجمهور بالفكر الثاقب ، متمم مهام الأنام

بالرأى الصائب ، محمد بنیان الدولة والإقبال ، مشید أركان السعادة والإجلال .
مرتب مراتب الخلافة الكبرى ، مکمل ناموس السلطنة العظمی . المحفوف
بصنوف عواطف الملك الأعلى ، خدیو مصر الحائز لرتبة الصدارة الجليلة فعلاً ،
الحامل لنیشاننا الهایونی المرصع المجیدی ، ولنیشاننا العثماني من الطبقة الأولى .
وزیری سمیر المعالی عباس حلمی باشا أدام الله إجلاله ، وضاعف بالتأييد
إقتداره وإقباله .

* * *

ما یکتب إلى قاضی العسکر : تتماز هذه الرسائل بالإشادة بمكانة
قاضی العسکر الدینیة ، وبما تحلی به من الفضائل التي أهلته لتولی هذا
المنصب . مثال ذلك نموذج من رسالة كتبها مرعی بن یوسف الحنبلی :
شیخ الإسلام ، ملك العلماء الأعلام . سید الأئمة الفخام ، وفخر الموائی
العظام . ومرجع الخصاص والعام ، وملاذ الأفاضل الكرام ، ونعمة الله تعالى فی
هذا الزمان علی الأنام ، قد تشرف الفضل بانتسابه إليه . قاضی العساكر
المتصورة الذي أوقف جنود العدل بین یدیه . جلت معانیه البديعة أن
یحصرها بیان ، أو یسطرها قلم ببنان . المرتضى لأحكام الشریعة ، ومن هو
لسد أبواب المكاره أقوى ذریعة .

* * *

وكتب الخشاب علی لسان أحد القضاة رسالة إلى الدولة العلیة ،
یستعفی من قضاء المدينة ، وكان قد وجه إليه وظهرت الاضطرابات
والفتن فی الحجاز بهجوم الوهابیین ، جاء فیها :

نحمد الله اللهم علی نعمك الهامی علی مر الدهور سبحانه ، المنسند علی
البریة بعدل هذه الدولة جلیبها . حمدا یكون علی حمل تلك النعم البهیة طرازا
، ویهیء لمة الإسلام ببقائها نصراً وإعزازا .

ونصلي ونسلم على سيدنا محمد الذي بهرت آياته العقول وضوحا وإعجازا،
وبلغ غاية الكمال حقيقة فغدا نهجـه لنجاة من تبعه مجازا . وبين للخلـيقة
أحكام دينه امتناعا وجوازا . وعلى آله وأصحابه وخلفائه الذين فضلوا على
سائر البرية اختصاصا وامتيازاً ، فكانوا في المحل غيوثاً وليوثاً ، إذا اهتزت
رماحهم في الوغى اهتزازا .

أما بعد ، فإننا نبتهل إلى الله تعالى في بقاء هذه الدولة التي لم تزل أعلام
نصرها المرفوعة في الخافقين خافقة ، ونجوم مجدها بآفاق الملك متلألآت .
الأنوار مشرقة ، وشهب أسنة رماحها للشياطين رجوما ، ولوامع أضواء
آرائها في ظلام الخطوب نجومها . وبروق أسيافها في غياهب العثير تتألق
إيماضا ، ونفوس أعدائها ترد بمجداول نصالها أنهارا من الردى وحياضا .

ونهى إلى هذه الدولة العلية العثمانية السنية السنية أيد الله أحكامها ،
وأبد إحكامها . ورفع على هام السماك أقدامها . ونصب فوق المجرة أعلامها ،
ومنحها من الظفر والنصر مالا يدخل تحت الحد والحصر .

إنه قد ورد الفرمان الشريف ، الواجب له القبول والتشريف ، خطابا
إلى خادم سدة تلك الحضرة المظفورة المنصورة ، التي لم تزل بأعين العناية
على مدى الأيام ملحوظة ومنظورة . العبد الفقير أحمد المبتلى بقضاء مصر
المحروسة ، المتضمن إلباسه خلع الإقبال والقبول بتقليده قضاء مدينة الرسول .
ولا جرم إنها حلة يفتخر بها على الفخر ، ومحمدة يبقـى ذكرها بقاء الدهر
وكيف لا ، وقد وجّه إلى مهبط التنزيل ، وتشرف بخدمة مدينة من شأنها
أكرام النزـيل . غير أنه لخلو راحته وفقد استراحته لما توارد عليه من الشؤون
الموجبة لاضطرابه واضطراره ، وتعطل أمور مئونته في إقامته وأسفاره ،
يعجز عن النهوض بأعباء هذا المنصب الجليل لفقد التحصيل وتعذر التحصيل ،
لاسيما والأقطار الحجازية مختل نظامها ، مستول عليها من البغاة طغامها .

وقد خلعوا من أعناقهم ربقة الإسلام والمسلمين ، وكادوا أن يطمسوا بما شرعوه من شرائعهم الباطلة معالم الدين ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ، ويندود عن حرمة هذه الطائفة مقهورة مدحورة . فلقد جاوزوا الحد ، وغاملوا أهل تلك النواحي بالمخالفة الأشد ، ولكن الله وعد المؤمنين التأييد ، ويوشك أن يهلك تلك العصابة بأسيا فكم ويبيد .

والملاحظ في هذه الرسالة الإسهاب ، وتكرار الفقرات والجل المتحددة المعنى ، والحرص على السجع والجناس . وقد بدأت بالتحميد والصلاة على النبي في عبارات كثيرة ، لأنها صادرة عن قاضى العسكر . فوظيفة القاضى الدينية هى التى جعلت الرسالة تبدأ بمقدمة يشيع فيها الروح الدينى

ب - الرسائل الإخوانية

كان الشعراء والأدباء في هذا العصر يتبادلون الرسائل بكثرة فيما بينهم . وكثيرا ما تجرى المكاتبات بين أهل البلد الواحد مع قرب الدار وتجاوز السكن ، وذلك لشغفهم بالكتابة الفنية

حدث أن أبا المواهب البكرى المتوفى سنة ١٠٣٠هـ كان يتريض في ناحية بولاق ، وتناقت نفسه إلى مسامرة الشاعر المشهور نور الدين العسيلي ، فوجه إليه رسالة طويلة وصف فيها بولاق وطيب هواؤها ، ورقة نسيمها ، وجمال حدائقها . فما^(١) جاء فيها :

سيدنا البر الذى يجرى بحر الفضائل من برّه ، ويمدب الورد والصدر بما يصدر من صدره . ويفيض إحسانه نهرا لراجيه وآمله . وتبتدر الأنام التلقى تيار أنامله ، وتزاحم على سيف زخار علومه تزاحم رقاب أعدائه على سيفه وخصومه ، ويخضر خضرة الدوّ ، وقد أسبل عليها من صوب مدده

بزد الجو ، لينام الأنام من ظله بوريفه ، وتأمين من صروف الدهر .
وحيقه .

علم سيدنا لازالت أمواج فضله تنثر لآلىء الإحسان وتنثل ، ولافتى
نهر الله إذا كان غيره نهر معقل ؛ أن مدينة بولاق هي مجتمع البحور ، ومداد
فلك السرور . الخ

كان أبو المواهب مغرمًا بهذا النوع من الأساليب التي تزخر بالسجع
والجناس والطباق والمقابلة . ونلاحظ أن الرسالة اشتملت على ذكر البحر
والبر ، والورد والصدور ، والأمواج ، والظل الوارف ، والسيف بمعني
الشاطئ ، والأثرع والخضرة وغير ذلك ، وهذا كله من أثر البيئة البولاقية .
وما كان فيها من الحداثق والبساتين الممتدة على شاطئ نهر النيل

* * *

وكتب عبد الله الإدكوى إلى بعض أصدقائه :

« غب سلام يشوق عرفا ، ويروق ظرفا ، وتحيات تتمد عطفًا .
وتزيد لطفًا . وثناء يمد كفا ويعد عرفا ، وأشواق تطول وصفًا .
وتقول ألفًا .

فالمعروض بين تلك الأيادي الهامع جود جودها وكفا ، العزيزة .
المنال عن الأنداد والأكفا . من الحب الذي ازداد شوقه ضعفًا ،
وقل صبره ضعفًا . هو أننا طلبنا لبارق جوابكم لحظًا وأدركنا طرفًا ،
واستمعنا إشراق شمس فرائدكم الذي عز أن يخفى ، واستمطرنا ضوب .
عرفانكم الأصنى ، وألفاظكم البديمة الرائقة المرصوفة رصفًا ، وآثار
يراعتكم المصفوفة نقوشها صفًا صفًا . وثمار بدائعكم المذلة غصونها .
للجانين قطفًا . فطال أمد الانتظار ولم زمن جيات معانيكم في .

ميدان الطرس طرفا ، ودرر آثار بناتكم الزاكية وصفا حرقا .
 فهناك أشفقت من أن أحرق ، فكتبت هذه الألفاظ وقد زحف
 جيش الشوق بمعركة الفؤاد زحفا . وفرت أفراس اصطباري كسفا
 كسفا . وأجبل عزمي تلت : ويسألونك عن الجبال قل ينسفها ربي
 نسفا . راجيا إن أجاب بما به الخاطر يشفى ، فأغدو منشدا حين أوتى
 ما أحاذر وأكفى :

« يا نعمة من وارد جلب الب إيناس بالعهد الذي وفي »

فأنت ترى أن الإدكاوى التزم في رسالته كلها السجع الذي تنتهى
 حروفه الأخيرة بالفاء . وذلك ليظهر براعته وقوته وتفوقه . ويرهن على
 أنه ملك زمام اللغة فانقادت له طائفة .

ولم يكن للرسائل الإخوانية من غرض سوى إظهار قوة منشئها البيانية،
 ومقدرته في الكتابة الفنية .

ومن رسالة للخشاب^(١) ونجها إلى مرتضى الزبيدي .

الأستاذ أدام الله تأييده ، وحلى بوجوده جبين الدهر وجيده ،
 ذو الأنفاس الزكية ، والأخلاق المرضية ، والطلعة السنية ، والمشاهد
 القدسية .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . أما بعد ، فقد ورد كتاب السيد
 المرتضى ، والحسيب المجتبى ، رافع ألوية العلوم ، ومحرر دقائق المنطوق
 والمفهوم ، فإذا هو روض ألقته الغصون ، وعروس حسناتها غن عين الخواص
 مصون ورأيت من سحره الحلال ، وسلساله الزلال ما بهر العقول ،
 وأحجم عن مثله أولو المعقول .

(١) ديوان الخشاب ص ٣٨٩ طبع الجوانب

إلا أن السيد - لازالت سحائب جوده هاطلة ، وأعناق مناظريه من
حلي آدابه عاطلة - أغلظ في الخطاب ، وجاوز حد العتاب . ومع كونه ليس
له في فضله من مبارى لم يقل لما لعنارى . وتوهم أنى أبسط لسان الإساءة
إليه ، وأعاتبه وأنم عليه . إن بعض الظن إثم .

والأنسب بمن أحياء الإحياء ^(١) وعم نفعه الأحياء ، ودانت له الرؤوس ،
وحل مشكلات العباب ^(٢) والقاموس أن لا يكحل عين الود بالقذى ، ويتبع
صدقاته بالمن والأذى . وهبه وهبى ألف بدرة ، أيليق بمثله أن يعمل فيها
فكره ؟ فلقد كنت أجل شانه أن يحرك بمثل ذلك لسانه . وغاية ما أوجب
هذا الامتنان ، وفتح باب المذاكرة في هذا الشأن ، أن غرضنا منه المواصله ،
لا حصول الصلة . ومقصودنا من شيمه المجاوزة لا قبض الجائزة . فلقد
ذهب بى - عفا الله عنه - كل مذهب ، وعصفه بريح الصدم مذهب ، حيث
تخيل أنى ممن يتوهم أن الشعر بالشعر ربا ، وسلك في مسلك من يرى ذلك
من أراذل الأدبا . والله در القائل :

إذا كان باب الذل من جانب الغنى سموت إلى العلياء من جانب الفقر
وهبى بعثت إليه أستهمطر ندى يديه فبنو الهم أكفا ، وأولاد
رسول الله بالندى أخرى . ولقد هممت أن لا أحير جوابا ، وأن لا أسطر
في شأن هذه الحادثة كتابا . وتمثلت بقول صاحب لامية المعجم ، فهو
من جملة الحكم :

فإنما رجل الدنيا وواحدها من لا يعول في الدنيا على رجل
ثم عن لى أن أتصل إلى الأستاذ علة يقبل ، وأعلل نفسى في بقاء وده
بعضى ولعل ، والسلام .

(١) أحياء الإحياء : اراد أنه شرح كتاب إحياء علوم الدين للغزالي .

(٢) بشرى لى شرح القاموس المحيط للفيروز بادى الذى وضعه مرتضى الزبيدى . وكذلك
شرح العباب فى اللغة .

فهذه الرسالة وإن كانت قد اشتملت على المحسنات اللفظية إلا أنه لم يظهر فيها ما يدل على أن الكاتب ضحى بالمعنى في سبيل اللفظ . ولن نجد فيها الإغراق في التكلف الذى يصل بالأسلوب إلى درجة الإسفاف والضعف ، والإيهام والغموض . فأسلوبها يمتاز بالسهولة والوضوح . وقد أنشئت لغرض معين ، وهدف محدد وضعه الكاتب نصب عينيه ، وأراد أن يصل إليه من أقرب الطرق وأقصر المسالك . فقد حدثت جفوة بينه وبين مرتضى الزبيدى . فأراد الخشاب أن يزيل تلك الجفوة ، وأن يعيد الصفاء بينهما فأنشأ الرسالة المتقدمة لهذا الغرض .

ويمكننا أن نضيف إلى أغراض النثر الفنى المتقدمة : تقارير الكتب ، وكانت تظهر فيها المحسنات اللفظية . مثال ذلك ما كتبه عبد الله الإدكاوى تقريرا لكتاب « دوحة الكتاب فى فنون الآداب » لمن اسمه نجيب ، وهو .

أسمت سرح فكرى فى خلال هذه الدوحة المثمرة ، وأدمت لمح نظرى فى ظلال هذه الروضة المزهرة . فرأيتها دوحة طوت فى منشورها من فنون الكتابة بغيرية كل محتاج ، ونشرت فى طيها ذكر قوم كانوا أيامهم كالدرر فى التاج . فعين الله على جامعها فلقد أجاد فى هذا الجمع ، ومتع الناظر ببدايع ما أودعها مثل ما شنف السمع . وليس ذلك بغريب ولا عجيب إذا استفاد البلاء من نجيب . . .

والى هنا ينتهى الكلام على النثر الفنى

فصل الثاني

النثر المرسل

النثر للمرسل هو الذى لا يلتزم فيه صاحبه المحسنات اللفظية ، وإنما يضحى
نصب عينيه الموضوع الذى يكتب فيه . ويحصر همه فى سرد الأدلة والبراهين .
التي تؤيد وجهة نظره . ومن أغراض النثر المرسل فى هذا العصر :

١

نقد المجتمع

كان نقد المجتمع وإظهار ما فيه من عيوب من أغراض النثر المرسل فى
ذلك العصر . مثال ذلك ما كتبه الشعرائى فى كتابه « تنبيه المغترين » وهو :

« . . . فأين حال هؤلاء من مشايخ هذا الزمان الذين يسافرون من مصر
أو الحجاز أو الشام إلى الروم والعراق ليسألوا أن يرتب لهم السلطان جوالى .
أو مسموحاً أو مرتباً ؟ مع أن أحدهم يجد فى بلده ما يكفيه . وكان الأولى بهم .
لو عُرض عليهم ذلك أن يردوه ، ولا يزاوجوا جند السلطان فى مال .
المصالح كما درج عليه سلفهم الصالح . بل لم نر أحداً من مریدی المشايخ الذين
أدركناهم يسافر من بلده فى طلب الدنيا فضلاً عن المشايخ ، لأن أول
قدم يضعه المرید فى الطريق أن يخرج عما بيده ويرميه فى بحر الإياس .
كما هو معلوم » .

« وقد سافر مرة من مشايخ مصر شخص إلى الروم ، فلجتمع بالوزير
إياس باشا . فقال له : ما صنعتك ؟ فقال : شيخ من أهل الطريق . .

فقال له إياس : فما حاجتك التي جئت فيها ؟ قال : أن ترتبوا لي شيئاً من بيت المال ، فقال له الوزير : هل تعلم أن أحداً في مصر مثلك في الطريق ؟ فقال : لا . فقال له إياس : أف لك من شيخ ١١ إذا كان هذا حالك ، وأنت تزعم أنه ليس أحد في مصر أعلى منك مقاماً في الطريق ، فكيف ببقية المشايخ ؟ لقد أزريت بالفقراء وبهدلت الطريق . فإن آحاد المریدین لو فعل مثل ذلك وسافر من بلده إلى غيرها في طلب الدنيا لخرج من طريق الإرادة . فكيف تفعل أنت مثل ذلك في حال نهايتك ؟ وزجره وأمر بإخراجه من عنده . فرجع خاسراً لما طلب .

فتأمل أسلوب هذه القطعة تجد أنه لا يختلف عن أساليبنا التي نستخدمها نحن في عصرنا الحاضر . لا تكلف ولا ضعف ، بل هو أسلوب سهل الفهم ، واضح الألفاظ والعبارات . وكتب الشعراء كلهم من هذا النوع ، وكذلك كتب عبد الرؤوف المناوي .

وقد خصص الشعراء معظم كتبهم لنقد أحوال المجتمع في عصره بصفة عامة ، ونقد أحوال المتصوفة بصفة خاصة . فهو يرى أن معظمهم دجالون يخالون على أكل أموال الناس . ويحذر المجتمع منهم ، ومن حيلهم ودجلهم ، ولا يدخر في ذلك وسماً . ويورد صوراً وقصصاً عن فساد أخلاقهم وتهاقضهم على حطام الدين ، ووقوفهم بأبواب الحكم مستجدين . لهذا الحطام . ويوازن بينهم وبين أخلاق السلف الصالح من المتصوفة الذين شاهدتهم وتلقى عنهم . ويتألم لخلو المجتمع من أمثال هؤلاء الصالحين .

٢

لغة التأليف

ومن أغراض النثر المرسل: التأليف . فقد اتخذ المؤلفون هذا الأسلوب السهل في تأليف كتبهم ، ولم يستخدموا المحسنات اللفظية إلا في القليل النادر . واهتموا بمناقشة الآراء والتعليق عليها ، وإقامة الأدلة على صحة ما يقولون . مثال ذلك ماورد في كتاب « الجوهرة المضيئة في تجويز إضافة الإيمان الجازم إلى المشيئة » لمؤلفه أبي الحسن البكرى المتوفى سنة ٥٩٥٢ وهو :

« وذلك ^(١) ما ظهر لى في قول الله جل ذكره - لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين - فأقول : ليعلم أن بعضهم بنى الاستدلال لهذا المدعى على قوله تعالى - لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين - »

« والذي يظهر لى أن بناءه على قوله - لقد صدق الله رسوله - هو الأولى ، إن لم يكن المتعين ، فان تعليق المستقبل بالمشيئة ليس محل نزاع ، وإنما الكلام فى الماضى والحال ؛ فقوله - لتدخلن إلى آخره - مبين لقوله سبحانه - لقد صدق الله - فيؤخذ منه أن قرأت المشيئة بالأمر القطعى الذى لا يقبل التردد أمر سائغ ، وذلك أن الله تعالى آتى بالصيغة الماضوية حيث يقول - لقد صدق الله رسوله - مؤكدة باللام الموطئة للقسم ، وبقد ، ومؤكدا مفادها بالإتيان بالماضى فى محل المضارع ، دلالة على

(١) مخطوط رقم ٩٢ مجاميع ، عقائد تيمور ، ورقة رقم ٢ وما بعدها .

تحقيق الوقوع ، ورتب عليه قوله - لتدخلن إلى آخره - وهذا من جليل .
اعتناء الله تعالى بإدخال البشرى على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وعلى
المؤمنين بتحقيق رؤياه صلى الله عليه وسلم ، لأنه لو قال - ليصدقن الله .
رسوله إلى آخر الآية - فإن ذلك يكون إخباراً عما سيقع ، وهو دون .
الخبر عن تقدم الوقوع ،

فهذا الأسلوب لا يختلف عن أساليبنا المعاصرة .

الفصل الثالث

النثر الشعبي

ظهر في هذا العصر كتاب استخدموا لأول مرة اللغة العامية الدارجة في كتبهم . وأهم هذه الكتب سيرة الظاهر بيبرس لعدة مؤلفين متتابعين ، كان كل منهم يزيد عليها فصلاً أو عدة فصول .

تبدأ وقائع هذه القصة في بغداد في عهد الخليفة المستكفي بالله العباسي وسجلت معارك خيالية نشبت بين هذا الخليفة وبين التتار . وانتهت هذه المعارك بانتصار المسلمين ، وذلك بفضل صلاح الدين الأيوبي الذي كافأه الخليفة بأن منحه ولاية مصر .

ثم انتقلت وقائعها إلى مدينة القاهرة بقيام الدولة الأيوبية . ولم يشغل الحكم الأيوبي في القصة إلا حيزاً صغيراً . فقد تجاهل القاص صلاح الدين وخلفاءه ، وما قاموا به من جهاد وكفاح . وصور الملك الصالح نجم الدين أيوب قطباً من أقطاب الأولياء ، زاهداً الزهد كله ، حتى إنه لا يتناول من الطعام سوى الخبز اليابس والدقة ، أي أنه لا يصلح لأن يكون ملكاً . أما معز الدين أيوب فقد جاء في صورة كريهة جداً ، ليس لها سند من التاريخ الصحيح . فهو لا يتردد في التعاون مع الفرنجة إذا اقتضت مصلحته ذلك . وهو ظالم مستبد . ومن أجل هذا تعرض لسخط الشعب الذي كان يقف له بالمرصاد ، ويوجه إليه الشتائم والسباب ، حتى اضطر أن يعمل سرداباً بين قصره وديوان الحكم ليسلكه في غدوه ورواحه ، فراراً من الناس وابتماذاً عنهم .

أما الأحوال الاجتماعية قبيل حكم بيبرس فقد بلغت الغاية في الاضطراب

والفساد . اختل الأمن وتعرضت الأرواح للإزهاق ، والممتلكات والأموال للنهب والسلب . وعجز الحكام عن كبح جماح اللصوص وقطاع الطرق ، بل إنهم كانوا يخشون بأس رجال العصابات ويغضون الطرف عن جرائمهم . وانتشر أهل الدعارة وتجار الأعراض في كل مكان . وكثرت الموبقات انتهكت الحرمات جهاراً نهاراً . وكانت شخصية عثمان بن الحبل رمزا لاختلال الأمن والاستهانة بالحكام في ذلك العصر . وكان يبرز هو الشخص الوحيد الذي بعثته العناية الإلهية ليخلص مصر مما ألم بها من المصائب والشور .

والتاريخ يحدتنا عن ثورات عنيفة نشبت ضد العنصر المملوكي في مصر فقد أنفت العناصر العربية أن تخضع لهؤلاء العبيد ، وأعلنت العصيان . واستقل أحد الأشراف بحكم منطقة واسعة من الصعيد ، وأطلق على نفسه لقب أمير المؤمنين . كما قامت حركات مماثلة في بعض مناطق الوجه البحري . وقد استطاع المماليك أن يقضوا على هذه الحركات بعد جهود شاقة . إلا أن الإحساس بالنقص من كونهم أرقاء مجهولي الأصل ، غرباء عن البلاد ، هذا الإحساس ظل يلازمهم طوال حياتهم .

فليس بعيد أن يكون واضح هذه القصة هدف في أول أمره إلى الدعاية للعنصر المملوكي . وإذا كان للعرب أبطال مثل عنترة وأبي زيد الهلالي وسيف ابن ذي زن ، وإذا كانت هناك قصص تروى عن هؤلاء الأبطال ، فلماذا لا يكون للعنصر المملوكي أبطاله ؟ ولماذا لا تؤلف عن هؤلاء الأبطال قصص على نحو ما ألف عن أبطال العرب ؟ هذا على ما يبدو منشأ الفكرة التي سيطرت على ذهن المؤلف في أول الأمر ، ووجدت تشجيعاً من المماليك الذين كانوا يتوقون إلى إحياء مجدهم السابق الذي أزيل على يد العثمانيين . فهي خير من يذكرهم بهذا المجد ، وخير من يبعث فيهم الهمم على الكفاح والنضال .

إن شخصية بيبرس تكاد تضارع أعظم الشخصيات العربية التي عرفت بالعدل والاستقامة ، والعزم والحزم ، والغضب للحق ، والشدة في مواطن الشدة ، واللين في مواضع اللين . والغيرة على الإسلام والمسلمين ، والكفاح ضد الكفار والمشركين . بل إن القصة صورت بيبرس رجلا لا يخطئ ، ولا يحميد عن سواء السبيل .

ولئن جانب الإشادة بالعنصر المملوكي تجدد الرغبة في التشهير بالحكم العثماني . ففي مواضع كثيرة تطالعك حيل ملتزمي الأراضي الزراعية ، وما طبعوا عليه من بطش وظلم وقسوة في تسخير الفلاحين في الأعمال الشاقة مقابل أجر ضئيل جدا ، لا يتجاوز رغيفين وبصلتين في اليوم . وترى فساد القضاء ، والرشوة المنتشرة بين القضاة الذين كانوا كما ذكر في القصة يحلون الحرام ، ويحرمون الحلال . ففيها إذن حض على الثورة في وجه الحكم العثماني .

وقد أخذ العنصر المملوكي يسترد قوته يوما بعد يوم . ولما شعر العثمانيون بالخطر اجتهدوا في الإيقاع بين المماليك . فانقسموا إلى فقارية وقاسمية ، وظلوا يتنازعون فيما بينهم على السلطان ، وأخيرا ظهر منهم على بك الكبير . وقد صار نفوذ العثمانيين في مصر اسميا ، وكان الحكم الحقيقي للعنصر المملوكي . منذ سنة ١١١٩ هـ فهذه القصة التي كتبت باللغة العامية الدارجة ليفهمها المماليك قد نجحت في أداء رسالتها إلى حد بعيد . ولو تجرد المماليك من المطامع الذاتية ، وخضعوا لرعي واحد لنجحوا في الاستقلال بمصر .

وقد حرص مؤلفو القصة على أن يربطوا بين مصر والشام . ألم يكن بين البلدين ارتباط وثيق قبل الغزو العثماني ؟ ولذلك نرى بيبرس ينتفع بكثيرين من أبطال الشام . مثل الفارس المغوار إبراهيم الحوراني صاحب قلعة حوران بالشام . وكان كما جاء في القصة مقبلا مع أتباعه الحوارنة في

مساكن خاصة بهم . وقد ظل إبراهيم طوال حياته مخلصا لمولاه . أما البطل الثانى فهو سعد بن دبل البيسانى ، وهو ابن خالة إبراهيم الحورانى وعملهما متشابه ، فهما يحرسان القصر السلطانى ليلا ، ويلازمان بيبرس فى حله وترحاله ملازمة الظل . والبطل الثالث أيدمر البهلوان . وقد اشترك فى جميع الحروب والمعارك التى خاض غمارها الجيش المصرى . وشاهد من الأهوال ما يعجز القلم عن وصفه .

وفى القصة مجال واسع للجاسوسية ، وبراعة فى التخفى والتنكر . فن أبطال الجاسوسية جمال الدين شيحة وأولاده ، وكانوا يعملون فى خدمة بيبرس بنشاط منقطع النظير . فتراهم يتنكرون فى هيئة رهبان ، أو دراويش ، أو تجار من بلاد الروم ، أو من بلاد العجم . وأحيانا فى صورة فتيات جميلات ، أو جوارى حبشيات . ويطلقون أجسامهم بألوان تناسب الحالة التى يتنكرون فيها . ولهم مهارة فائقة فى تسلق جدران القصور والأسوار ، والحصون والقلاع ، والتسلل إلى داخلها ليلا ، واستخدام البنج ليفقد العدو وعيه ، وحينئذ يحملونه ويهربون به .

وكان شيحة كما تصوره القصة حافظا للإنجيل ، إذا رتل بصوته الشجى أثر فى سامعيه إلى حد كبير . ويمجد التكلم بلغة الفرنجة ، كما كان خيرا ببلاذهم وعاداتهم وتقاليدهم . لذلك كان إذا تنكر فى هيئة بطريق مسيحي لم يستطع أحد أن يكشف حقيقة أمره .

وفى القصة نرى أحد رجال الدين المسيحي ، وهو البطريق جوان ، الذى جعله المؤلف لا يقل مهارة فى التنكر والتخفى عن شيحة . وكان جوان حافظا للقرآن ، ولكثير من الأحاديث النبوية ، دارسا لأمهات الكتب اللغوية والنحوية ، وكتب الفقه والتفسير . فاستطاع أن يدخل القاهرة متنكرا فى زى عالم مسلم اسمه الشيخ صلاح الدين . وأن يظفر بوظيفة (م ١٨ - الأدب المصرى)

قاضى الديوان المسمى للصالح نجم الدين أيوب ، وهى من الوظائف التى يشغلها أكبر علماء المسلمين . وشرع جوان ، أو الشيخ صلاح الدين ، يدس الدسائس للكيد للمصريين بحكومة وشعبا . ويراسل الفرنجة سرا ، حاضا إليهم على غزو مصر واحتلالها . واتخذ له مسكنا بحارة الروم .

والبيئة المصرية ظاهرة فى القصة ظهورا لاختفاء معه . فلم تترك ناحية من نواحي الحياة المصرية دون أن توفىها حقها من البحث والتحقيق والتحليل . كما ورد ذكر لكثير من أحياء القاهرة . وحواريها وشوارعها ، كحي بولاق ، وباب الشعرية ، والحسينية ، ومصر العتيقة ، وباب الخلق ، والجمازين ، والبساتين ، وقلعة الكباش ، وقناطر السباع ، وشبرا ، والرميلة وغيرها ومن المدن : بنها العسل ، وقلوب ، والإسكندرية ، ودمياط وغيرها .

وإلى جانب ما تقدم نرى حيزا كبيرا يصور البيئة الشامية ، وبخاصة بيئة الفداوية . والفداوية طائفة تعتنق مبادئ شيعية وتسكن فى بعض جهات الشام . وقد حاول صلاح الدين أن يقضى على نفوذها فلم يوفق . وظلت تتمتع بقوتها حتى خضعت أخيرا لبيرس ، ولم يكن لها فى أيامه شأن يذكر . هذا ما سجله التاريخ ، ولكن القصة صورت الفداوية فى صورة قوم جبابرة عتاة ، أولى بأس وقوة . ولهم سلطنة اسمها سلطنة القلاع والحصون . وهم يسكنون هذه القلاع ، وكل قلعة أو حصن حوله مدينة أو عدة مدن تتبعه . ويتمتع سلطانهم بحكم نافذ عليهم ، لا مرد له ولا معقب لأمره . وهم لا يخضعون لأحد غيره ، ولا يحكم بينهم شخص سواه . وحتى هؤلاء الأبطال الذين عاونوا لبيرس كإبراهيم الحوراني وسعد بن دبل لم يكونوا خاضعين لبيرس إلا بأمر من سلطانهم شيعة . وإذا حدث منهم ما يستوجب العقوبة تولى سلطانهم التحقيق معهم والحكم عليهم بما يراه .

ويكثر في القصة استخدام البنج بوضعه في الطعام أو الشراب ، أو مع البخور ، أو إلقائه في المواقف . وأحيانا نرى السم بدله . كما يكثر فيها الاستعانة بالسحر .

وبالقصة ما شئت من ضروب التهمك وأنواع السخرية . والتحليل النفسى الدقيق ، والمساآق التى تسمى عقدة القصة . وفيها من قوة الخيال ما يبعث الدهشة ويثير الإعجاب . وبها صراع عنيف بين الخير والشر ، وشعر عالى لا قيمة له ، وهو غالبا فى المديح النبوى ، أو التوسل والاستغاثة . كان يتغنى به من حين إلى حين ترفيها عن السامعين وتنشيطاهم . وقد شغلت كرامات الأولياء جانبا كبيرا منها .

وبالقصة كلمات تركية مثل باشا ، وبك ، وطوبجى ، وخانجى . وكلمات إفريقية مثل كرسيتيان ، ورين ودوكانا . وجلف أى خليج .

ومن القصص التى دونت ، فى هذا العصر : سيرة الأميرة ذات الهممة . ويبدو أن مؤلفها اطلع على تاريخ الحروب التى جرت بين المسلمين والدولة الرمانية الشرقية . ثم وضع القصة لتصوير هذه الوقائع ، لا أكثر ولا أقل . وقد صور حياة أبطال العرب وفرسانهم . وتجرى حوادثها بين جزيرة العرب والعراق والشام وآسيا الصغرى . ومن أبطالها : هارون الرشيد ، والمأمون ، وبعض أباطرة الروم . واستخدم فيها البنج والسحر فى نطاق ضيق . ولن تجد فيها على طولها سوى الحرب والغارات ، فتارة يكون النصر فى جانب المسلمين ، وتارة فى جانب الروم . ولن تسمع فيها غير صليل السيوف ، ووقع سنايك الخيل . ولن نرى غير الرءوس المتطائرة ، والأشلاء المتناثرة .

الباب السادس

الفصل الأول

بعض مشاهير الكتاب

١

الشهاب الخفاجي

٠٠٠ - ١٠٦٩ هـ

هو أحمد بن محمد بن عمر قاضي القضاة ، الملقب بشهاب الدين الخفاجي .
أصله من سرياقوس .

نشأ في بيت أدب وعلم وكان والده على جانب من الثراء . فاستطاع
الشهاب أن يتفرغ للدرس والتحصيل . وكان شغفه بالعلم والأدب مع مارزقه
من الموهبة الطبيعية من العوامل التي هيأت له مكانا عليا بين أعلام الكتاب
في هذا العصر . وقد ترجم لنفسه في كتابه الريحانة ، فيما قاله :

« . . . فلما درجت من عشي قرأت على خالي ؛ يعني أبا بكر الشنوائى ،
سبويه زمانه علوم العربية . ثم ترقيت فقرأت المعاني والمنطق وبقية العلوم .
ونظرت كتب المذهبيين : مذهب أبي حنيفة والشافعي . »

« ومن أجل من أخذت عنه شيخ الإسلام الشمس الرملى . حضرت
دروسه القرعية ، وقرأت عليه شيئا من مسلم ، فأجازني بذلك وبجميع
مؤلفاته ومروياته . »

« ومنهم شافعي زمانه القطب العارف بالله تعالى الشيخ نور الدين الأثري ، زاد الله حسناته . حضرت دروسه زمانا طويلا . » ومنهم العلامة نفي سائر القنوف على بن غانم المقدسي الحنفي ، حضرت دروسه ، وقرأت عليه الحديث ، وكتب لي إجازة بخطه . ومنهم العلامة الفهامة خاتمة حفاظ المحدثين إبراهيم العلقمي . قرأت عليه الشفاء بتمامه ، وأجازني به وبغيره . ومن أخذت عنه الأدب والشعر شيخنا العلامة أحمد العلقمي ، والعلامة محمد الصالح الشامي ، والعناياتي . ومن أخذت عنه العروض الشيخ محمد المغربي المعروف بركوك . ومن أخذت عنه الطب الشيخ دواد البصير . »

« ثم ارتحلت مع والدي للحرمين الشريفين . وقرأت ثمة على الشيخ علي بن جاد الله ، وعلى حفيده العصام وغيره . »

« ثم ارتحلت إلى القسطنطينية فتشرفت بمن فيها من الفضلاء وللصنفين . واستفدت منهم ، وتخرجت عليهم ، وهي إذ ذاك مشحونة بالفضلاء الأذكياء كابن عبد الغني ، ومصطفى بن عربي ، والخبر داود ، وهو ممن أخذت عنه الرياضيات ، وقرأت عليه إقليدس وغيره . وأجلهم إذ ذاك أستاذي سعد الملة والدين ابن حسن . ولما توفي قام مقامه صنع الله ، ثم ولداه . ثم انقضوا في مدة يسيرة فلم يبق بها عين ولا أثر . وصار الدين ملعبة وسخرية . وآل الأمر إلى اجتراء السلاطين والوزراء بقتل العلماء وإهانتهم . ولما عدت إليها ثانيا بعد ما توليت قضاء العساكر بمصر رأيت تفاقم الأمر ، وغلبة الجبل . فذكرت ذلك للوزير ظنا بأن النصيح يفيد ، فإذا هو كما قيل :

هو الوزير ولا أزر يشد به مثل العروض له بحر بلا ماء

فكان ذلك سببا لعزلي وأمرني بالخروج من تلك المدينة ، وإظهار العداوة ممن هو في زى العلماء ، مع أنه لم يبق بها أحديهم من قراءة الفاتحة » وترجم له صاحب خلاصة الأثر ، فما قاله :

« أحمد بن عمر قاضى القضاة ، الملقب بشهاب الدين الخفاجى المصرى الحنفى . أصله من سرياقوس . صاحب التصانيف السائرة ، وأحد أفراد الدنيا ، المجمع على تفوقه وبراعته »

« كان فى عصره بدر سماء العلم ، ونير أفق النثر والنظم . رأس المؤلفين ، ورئيس المصنفين . سار ذكره سير المثل ، وطلعت أخباره طلوع الشهب فى الفلك . وكل من رأيناه وسمعناه ممن أدرك وقته معترفون له بالتفرد فى التقرير والتحرير وحسن الإنشاء . وليس فيهم من يلحق شأوه ، ولا يدعى ذلك مع أنه فى الخلق من يدعى ما ليس فيه »

وتأليفه كثيرة ممتعة مقبولة . وانتشرت فى البلاد ، ورزق فيها سعادة عظيمة . وأشعاره ومنشأته مسامة لاجمال للخدش فيها . والحاصل أنه فاق كل من تقدمه فى كل فضيلة ، وأتعب من يجيئ بعده . مع ما خوله الله تعالى من السعة وكثرة السكتب ، ولطف الطبع ، والنكتة النادرة . وله رسائل كثيرة ، ومكاتبات وافرة لم يجمعها . ومقامات ذكر بعضها فى ريجانته »

« وكان لما وصل الروم فى رحلته الأولى ، ولى القضاء ببلاد الروملى حتى وصل إلى أعلى مناصبها . وفى زمن السلطان مراد توصل حتى اشتهر بالفضل الباهر ، فولاه السلطان قضاء سلانيك ، فحصل بها مالا كثيرا . ثم أعطى قضاء مصر . وبعد ما عزل عنها رجع إلى بلاد الروم . فر بدمشق وأقام بها أياما . ومدحه فضلاؤها بالقصائد ، واعتنى به أهلها وعلماءها فأكرموا منزله . ودخل حلب ثم وصل إلى الروم . وكان إذ ذاك مفتيها يحيى بن زكريا ، فأعرض عنه لأجل أمور انتقدت عليه أيام قضاائه فى سلانيك ومصر ، من الجرأة وبعض الطمع . فصنع مقامة وتعرض فيها للولى المذكور ، فكان ذلك سببا لنفيه إلى مصر وأعطى قضاء ثمة على وجه المعيشة . فاستقر بمصر يؤلف ويصنف ويقرئ وأخذ عنه جماعة اشتهروا بالفضل

الباهر ، ، من جملتهم العلامة عبد القادر البغدادي ، والسيد أحمد الحموي
وغيرهما . وقصده الطلاب من سائر البلاد ،

« وكانت وفاته — رحمه الله — في رمضان سنة ١٠٦٩ وقد أناف على
التسعين . وكان توفي قبله بثلاثة أشهر الفقيه الكبير محمد بن أحمد الشوبري
الملقب بالشافعي الصغير ، فقال فيهما السيد الأديب أحمد بن محمد الحموي
المصري ، وكان يقرأ عليهما .

مضى الإمامان في فقه وفي أدب الشوبري والخفاجي زينة العرب
وكنت أبكي لفقد الفقه منفردا فصرت أبكي لفقد الفقه والأدب

ومن آثاره التي وصلتنا :

- ١ — قصائد الخفاجي ، مخطوط ٧٦ مجاميع دار الكتب .
- ٢ — ريحانة الألبا ، وزهرة الحياة الدنيا . مطبوع .
- ٣ — خبايا الزوايا فيما في الرجال من البقايا . مخطوط .
- ٤ — طراز المجالس . مطبوع .
- ٥ — البوارح والسوانح . مطبوع .
- ٦ — النفحة القدسية . مطبوع .
- ٧ — عناية القاضى وكفاية الراضى . مطبوع .
- ٨ — حاشية على شرح الجرجاني على المفتاح . مطبوع .
- ٩ — ديوان شعره . مخطوط بمكتبة الجامعة الأزهرية .
- ١٠ — شفاء الغايل فيما في كلام العرب من الدخيل . مطبوع .

وتدل مؤلفات الشهاب الخفاجي على تمكنه من الأدب العربي القديم، وحفظه لكثير من شعر القدماء . فإذا أورد في خلال تراجمه لمعاصريه شيئاً من شعرهم أتبعه في كثير من الأحيان بما يماثله من آثار السابقين ، وهو ناقد بارع ، وكاتب لا يشق له غبار . يناقش ويجادل كما ترى في كتابه « طراز المجالس » وغيره من كتبه .

٢

مرعى بن يوسف الحنبلي

... - ١٠٣٣ هـ

مرعى بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد الكرمي ، نسبة إلى طور كرم ، بلدة بالقرب من نابلس ، ثم المقدسي . أحد كبار علماء الحنابلة بمصر . وكان له الباع الطويل في العلوم الدينية والأدبية .

حضر إلى القاهرة ودرس على شيوخها . ثم تصدر للتدريس بالجامع الأزهر ، وأسندت إليه مشيخة جامع السلطان حسن حيناً من الزمن . وكان منهمكاً على العلوم انهماكاً كلياً ، فقطع زمانه بالإفتاء والتدريس ، والتحقيق والتصنيف ، فسارت بتأليفه الركبان . ومع كثرة أصداده وأعدائه ، ما أمكن أن يطعن فيها أحد ، ولا أن ينظر بعين الإزراء فيها . وقد ترجم له صاحب خلاصة الآثار ، وذكر أنه له ديوان شعر . ومن مؤلفاته :

- ١ - ديوان شعره . ولم يصل إلينا
- ٢ - مسبوك الذهب في فضل العرب ، مخطوط تيمور
- ٣ - غاية المنتهى في الفقه . مطبوع
- ٤ - الكواكب الدرية في مناقب ابن تيمية . مطبوع
- ٥ - تحقيق الرجحان بصوم يوم الشك في رمضان . مخطوط تيمور .
- ٦ - توضيح البهتان في الفرق بين الإسلام والإيمان . مخطوط تيمور

- ٧ - قلائد المرجان في الناسخ والمنسوخ من القرآن . مخطوط
- ٨ - نزهة الناظرين فيمن ولي مصر من الخلفاء والسلطين . مخطوط
- ٩ - جامع الدعاء وورد الظماء ، مخطوط
- ١٠ - بديع الإنشاء والمراسلات . مطبوع

وله غير ذلك ، ومن شعره :

لئن قلد الناس الأئمة إني لفي مذهب الجبر ابن حنبل راغب
أقلد فتواه وأعشق قوله وللناس فيما يعشقون مذاهب

توفي بالقاهرة في شهر ربيع الأول سنة ١٠٣٣ هـ

٣.

عبد البر الفيومي

... - ١٠٧٢ هـ

هو^(١) عبد البر بن عبد القادر بن محمد الفيومي العوفي الحنفي ، أحد أدباء
الزمان المتفوقين ، وفضلائه البارعين . كان كثير الفضل ، جم الفائدة ، شاعرا
مطبوعا ، مقتدرا على الشعر ، قريب المأخذ ، سهل اللفظ ، حسن الإبداع
للمعاني ، مغالطا لكبار العلماء والأدباء ، معدودا من سمجلتهم . درس في مصر
على شيوخ عصره . ثم درس في مكة وفي دمشق والقسطنطينية . ولازم
الشهاب الخفاجي مدة من الزمن . وولى بعض المناصب في خارج البلاد المصرية
وألف كتباً كثيرة أشهرها كتاب « منتزه العيون والألباب في بعض المتأخرين
من أهل الآداب » جعله على طريقة الريحانة إلا أنه رتبته على حروف المعجم
وزاد عليه معاصريه . وقد اشتهر هذا الكتاب في بلاد الشام ، وكان من
المصادر التي نقل عنها المحبي صاحب خلاصة الآثار . ولم يصلنا هذا الكتاب .

(١) خلاصة الآثار ٢/ ٤٥٠

٤

عبد القادر البغدادي

٠٠٠ - ١٠٩٣ هـ

هو عبد^(١) القادر بن عمر البغدادي نزيل القاهرة ، الأديب المصنف ،
الرحال الباهر الطريقة في الإحاطة بالمعارف والتضلع من الذخائر العلمية .
وكان فاضلاً بارعاً ، مطلعاً على أقسام كلام العرب النظم والنثر ، راوياً لوقائعها
وحروبها وأيامها . وكان يحفظ مقامات الحريري وكثيراً من دواوين العرب
على اختلاف طبقاتهم . وهو أحسن المتأخرين معرفة باللغة والأشعار ،
والحكايات البديعة مع التثبت في النقل وزيادة الفضل ، والانتقاد الحسن ،
ومناسبة إيراد كل شيء منها في موضعه مع اللطافة وقوة الذاكرة ، وحسن
المنادمة ، وحفظ اللغة الفارسية والتركية ، وإتقانها كل الإتقان ومعرفة
الأشعار الحسنة منها ، وأخبار الفرس .

خرج من بغداد وهو متقن لهذه اللغات الثلاث ، وورد دمشق وقرأ بها
على بعض علمائها ، ثم رحل إلى مصر سنة ٥٠١ هـ وأخذ العلوم الشرعية وآلاتها
النقلية والعقلية عن جمع من مشايخ الأزهر ، أجلبهم الشهاب الخفاجي
والشبراملسي . وأكثر لزومه كان للخفاجي . قرأ عليه كثيراً من التفسير
والحديث والآداب ، وأجازه بذلك وبمؤلفاته .

وكان الخفاجي مع جلالته وعظمته يراجعه في المسائل الغريبة لمعرفته
مظاهرها ، وسعة اطلاعه وطول باعه . حكى أنه قال إن ما حفظه قطرة من
غدير الشهاب . وأنه استفاد علومه الأدبية منه .

ولما مات الشهاب تملك أكثر كتبه ، وجمع كتباً كثيرة . قيل إنه كان

(١) الخلاصة ٤٥١/٢

يملك ألف ديوان من دواوين العرب العاربة . وألف المؤلفات الفائقة
أشهرها خزانة الأدب ، وشرح شواهد الكافية للرضي ، ووضع حاشية
على شرح بانت سعاد لابن هشام .

سافر إلى درنة مرتين، ثم رجع واستقر بمصر إلى أن توفي بهاسنة ١٠٩٣هـ

* * *

ومن كتاب هذا العصر : ابن حجر الهيتمي ، والشعراني ، وعبد الرؤوف
المنأوي ، وعبد الله الإدكاوي ، والخشاب وغير هؤلاء كثيرون .

الفصل الثاني

بعض مشاهير العلماء

١

داود الأنطاكي

١٠٠٠ - ١٠٠٨ هـ

« هو الحكيم^(١) داود بن عمر البصير الأنطاكي نزيل القاهرة، الحكيم الطبيب المشهور ، رأس الأطباء في زمانه ، وشيخ العلوم الحكيمة ، وأعجوبة الدهر .

ولد بأنطاكية . وفي السابعة من عمره أصيب بمرض أعجزه عن الحركة . وكان والده شيخا لقرية حبيب النجار ، فأتخذ قرب مزار هذا الولي رباطا للواردين ، وبني فيه حجرات للفقراء والمجاورين . ورتب لها في كل صباح من الطعام ما يكفي النازلين بها . وخصص بعض الخدم للقيام بحمل الطعام وتوزيعه على الضيوف . وكان الخدم يحملون داود إلى الرباط فيقضي به طول اليوم ، وفي المساء يعيدونه إلى منزل والده »

« وكان إذ ذاك قد حفظ القرآن ، ودرس مبادئ اللغة العربية ، ولبت يدعو الله في سره وجهه أن يمن عليه بالشفاء . وذات يوم أقبل على الرباط رجل عجمي من أفاضل العجم ، اسمه محمد شريف ، وأخذ يدرس في الرباط . وكان داود يحضر هذه الدروس ، فأعجب العجمي بذكائه وحسن استعداده فعالج ساقيه حتى برى واستطاع أن يمشي على قدميه .

وبعد ذلك درس على العجمي علوم المنطق والرياضة والعلوم الطبيعية .

ثم مات والده ، واستولت الحكومة على ما تركه . نخرج داود من دياره .
فأصدا مصر . وفي طريقه إلى مصر عرج على جبل عامل فأخذ عن مشايخه . ثم
دخل دمشق واجتمع بعلماؤها . ثم جاء إلى مصر وأقام فيها مدة من الزمن .

وكان إذا سئل عن شيء من الفنون الحكيمة والطبيعية والرياضية أُملى
على السائل في ذلك ما يبلغ الكراسة والكراسيتين ، كما هو مشهور مثل
ذلك عن الشيخ الرئيس أبي علي بن الحسين .

وله من التأليف والرسائل والأشعار المزرية بروض الخبائل ما هو بأيدي
الناس مألوف . منها تذكرته في الطب وهي مشهورة . وله رسالة في الحمام
ألقبها باسم الأستاذ البكري . وشرح قصيدة « النفس » المشهورة لابن سينا ،
« وهو شرح فصل فيه حقيقة النفس وجوهرها النفيس ، يرضى السائل وإن
كان الشيخ الرئيس »

وقد دافع عنه صاحب خلاصة الأثر ، ونفى عنه التشيع ، ولكن
تلميذه مدين القوصوني الذي درس عليه الطب قال عنه « إنه ^(١) كان شيعيا
مخالفا لعقيدة الأشعرية ، وهم الذين يثبتون لله صفات قديمة ، ويثبتون
الإمامة بالاتفاق والنص ، وموافقا لعقيدة الشيعة وهم الذين بايعوا عليا ،
وقالوا بإمامته نصا ووصية . والحق أحق أن يتبع في بيان معتقد الإنسان .
وصاحب الترجمة من هذا القبيل ، فكيف له من اعتقادات فاسدة ،
وأقوال كاذبة »

وقال تلميذه الشهاب الخفاجي في الريحانة ^(٢) « . . . إلا أنه كان على
مذهب الحكماء ومشرب الندماء ، ولذا كثر كلام الناس في اعتقاده ، ونقل
عنه رشح قطر من خفي إلحاده » .

(١) خلاصة الأثر ١٤٤/٢ (٢) ص ٢٧١

ومن مؤلفاته التي وصلت إلينا :

- ١ - نزهة الأذهان في طب الأبدان .
- ٢ - النزهة المبهجة في تشخيص الأذهان وتعديل المزجة .
- ٣ - تذكرة أولى الألباب ، والجامع للعجب العجائب « تذكرة داود »
- ٤ - تزيين أسواق العشاق .

مرتضى الزبيدي

١١٤٥ — ١٢٠٥ هـ

هو محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرازق الشهير بمرتضى الحسيني الزبيدي الحنفي .

ولد سنة ١١٤٥ بزييد ونشأ بها . ثم رحل في طلب العلم وحج مرارا . واجتمع بعلماء مكة وأخذ عنهم كالشيخ عبدالله السندي ، والشيخ عمر بن أحمد بن عقيل المسكي ، وعبدالله السقاف وغيرهم . كما قرأ على الشيخ عبد الرحمن العيدروس مختصر السعد ولازمه ملازمة كاية وألبسه العيدروس الخرقه وأجازة بمروياته ومسموعاته ، وأغراه بالرحلة إلى مصر بما وصفه له من علمائها وأمرائها وأدبائها .

فقدم إلى القاهرة في تاسع صفر سنة ١١٦٧ هـ وسكن بخان الصباغة . وأول من عاشره وأخذ عنه السيد علي المقدسي الحنفي من علماء مصر . وحضر دروس شيوخ الأزهر في ذلك الوقت كالشيخ أحمد الملوى والجوهري والحنفي والبيدئي والصعيدى والمدابغى وغيرهم . وتلقى عنهم وأجازوه ، وشهدوا بعلمه وفضله ، وجودة حفظه .

ثم اتصل بالأمير إسماعيل كتحدا عزبان فأعقد عليه الأموال : فحسنت حاله ورغد عيشه ، واشتهر ذكره عند الخاص والعام . ولبس الملابس الفاخرة ، وركب الخيول المسومة ، وسافر إلى الصعيد ثلاث مرات . واجتمع بأكابره وأعيانه وعلمائه . وأكرمه شيخ العرب همام ، وأولاد نصير وأولاد وافي ، وأتحفوه بالهدايا النفيسة .

وكذلك ارتحل مرارا إلى الجهات البحرية مثل دمياط ورشيد والمنصورة وغيرها . وأكرمه أهلها ورحبوا به وأحسنوا ضيافته . وصنف عدة كتب عن رحلاته في الوجهين البحري والقبلي تحتوى على لطائف ومحاورات ومدائح نظما ونثرا .

وكناه السيد أبو الأنوار بن وفا بأبي الفمض ، وذلك في السابع عشر من شعبان سنة ١١٨٢ هـ

ثم تزوج وسكن بعطفة العسال مع بقاء سكنه بوكالة الصاغة . وشرح القاموس في نحو أربعة عشر مجلدا سماه « تاج العروس » ولما أكمله أولم ولية حافلة جمع فيها طلاب العلم ، وأشياخ الوقت بغيظ المعديّة سنة ١١٨١ هـ وأطلعهم عليه ، واغبطوا به ، وشهدوا بفضله وسعة اطلاعه ، ورسوخه في علم اللغة ، وقرظوه نثرا ونظما .

ولما أنشأ محمد بك أبو الذهب جامعه المعروف بالقرب من الأزهر وعمل فيه خزانة للكتب ، اشترى نسخة من تاج العروس بمائة ألف درهم .

ثم انتقل إلى منزل بسويقة اللالا ، تجاه جامع محرم افندى ، بالقرب من مسجد شمس الدين الحنفي ، سنة ١١٨٩ هـ وكانت تلك الخطة عامرة إذ ذاك بالأكابر والأعيان ، فأحدقوا به وتحبب إليهم ، وأنسوا به وهادوه . وهو يظهر لهم الغنى والتعفف ، ويمعظهم ويفيدهم ، فأقبلوا عليه من كل جهة ، وأتوا لزيارته من كل ناحية . ورغبوا في معاشرته لسكونه غريبا ، وعلى غير

هيئة العلماء للمصريين وشكلهم - ويعرف اللغتين الفارسية والتركية
ثم شرع في إملاء الحديث على طريقة القدماء من ذكر الأسانيد والرواة
والمخرجين من حفظه على طرق مختلفة ، وكل من قدم عليه يملأ عليه الحديث
المسلسل بالأولية ، وهو حديث الرحمة برواته ومخرجه ، ويكتب له سنداً
بذلك ، وبإجازة وسماع الحاضرين ، فأعجب الناس بمنهجه وواظبوا على
حضور دروسه

وذهب إليه علماء الأزهر وطلبوا منه إجازة فقال لهم : لا بد من قراءة
أوائل الكتب ، واتفقوا على الاجتماع بجامع شيخون بالصايفية يومى الاثنين
والخمس ، ليكونوا بعيدين عن أعين الناس ، وشرعوا في قراءة صحيح
البخارى ، ولكن أهل الخطة مالبثوا أن سمعوا بهذه الاجتماعات ، فزادوا
مكانة الزبيدي ارتقاء في نظرهم ، وعلت منزلته عندهم ، فحضره هذه
الاجتماعات .

وانتقل من الرواية إلى الشرح والتعليق ، وأعجب الناس بشرحه وتوضيحه ،
وصار درسا عظيما ، كما يقول الجبرتي ، فخشى شيوخ الأزهر على سمعتهم
العلمية من السقوط في أعين الجمهور ، فانقطعوا عن الحضور

فاستمر الزبيدي في إلقاء دروسه ، وصار يملأ حديثا من المسلسلات ، أو
فضائل الأعمال ، ويسرد رجال سنده ورواته من حفظه ، ويتبعه بأبيات من
الشعر ، فيتعجب الحاضرون من ذلك ، لأنهم لم يعهدوا مثل هذا من
المدرسين المصريين

وافتح درسا آخر في مسجد الحنفى ، وقرأ كتاب الشمائل النبوية
لترمذى في غير الأيام المعهودة بعد العصر ، فزادته شهرته ، وأقبل الناس
من كل ناحية لسماعه ومشاهدة ذاته ، ودعاه كثير من الأعيان إلى بيوتهم ،
وعملوا من أجله ولأثم فاخرة . وكان يذهب إليهم مع خواص الطلبة ، والمقرىء

والمستعمل وكانب الأسماء فيقرأ لهم شيئاً من الحديث كثنائيات البخارى أو الدارى ، أو بعض المسلسلات بحضور الناس وصاحب المنزل وأصدقائه وأحبابه وأولاده ، وبناته ونسائه من خلف الستائر وبين أيديهم مجامر البخور بالعنبر والعود مدة القراءة ، ثم يختمون ذلك بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم على النسق المعتاد ، ويكتب^(١) السكاتب أسماء الحاضرين والسامعين حتى النساء والصبيان والبنات ، واليوم والتاريخ ويكتب الزبيدى تحت ذلك صحيح ذلك ، وهذه كانت طريقة المحدثين القدماء

وانجذب إليه بعض الأمراء الكبار ، وسموا إلى منزله ، وترددوا لحضور مجالس دروسه وواصلوه بالهدايا الجزيلة ، فاشتري الجوارى ، وأقام الولائم ، وأكرم الواردين عليه والوافدين إليه من الآفاق البعيدة

ولما حضر الوالى محمد عزت باشا رفع شأنه عنده ، وأصعده إليه ، وخلع عليه فروة سمور ، ورتب له مقدارا من اللحم والسمن والأرز والخطب والخبز . وعلوفة جزيلة من وقف الحرمين وغيره من الأوقاف . وأنهى إلى الدولة شأنه فعيّنت له مبلغا من النقود يصرف له يوميا ، وكان ذلك سنة ١١٩١هـ فعظم أمره ، واشتهر صيته ، ودعته الحكومة العثمانية لزيارة الاستانة سنة ١١٩٤ فقبل الدعوة ، ثم اعتذر عن عدم السفر

وترادفت عليه الرسائل والهدايا من أكابر الدولة العثمانية وأعيانها . وطارت شهرته في جميع أنحاء العالم الإسلامى . فسكّته ملوك الترك وأمراء الحجاز واليمن والهند والشام والعراق . وملوك شمال أفريقيا وأعيان السودان . وكثرت عليه الوفود من كل ناحية ، وازدادت الهدايا الواردة

(١) هذه الطريقة لاقية لما فى درس الأحاديث ولا فى معرفة حسناتها من ضعفها . وإن كان القدماء دونوا أسماء السامعين فلرغبتهم فى توثيق سمائهم لهذه الأحاديث . أما الطريقة التى لجأ إليها الزبيدى فلا فائدة منها على الإطلاق لوجود السكاتب المقطوع بصحتها .
(١٩ — الأدب المصرى)

عليه . وجاءته هدية من أغنام فزان ، وهي عجيبة الخلقة ، عظيمة الجثة ، يشبه رأسها ، رأس العجل فأرسلها إلى أولاد الساطان عبد المجيد فأعجبوا بها . وجاءته طيور مختلفة الألوان والأشكال ، وكذلك الجوارى والعبيد ، فكان يرسل من طرائف الناحية إلى الناحية المستغرب ذلك عندها ، ويأتيه في مقابلها أضعافها . وأتاه من طرائف الهند وصنعاء وبلاد سرت وغيرها أشياء نفيسة كالعطور والمربيات والعود والعنبر بمقادير عظيمة . وصارت له عند أهل المغرب شهرة واسعة ، ومنزلة رفيعة ، واعتقاد زائد . وربما اعتقدوا أنه قطب زمانه ، حتى كان أحدهم إذا ورد حاجا ولم يزر الزبيدي ، ولم يصله بشيء لا يعتبر حجة كاملا . فإذا جاءه أحدهم سأله عن اسمه ولقبه وبلده وخطته وصناعته وأولاده . وحفظ ذلك أو كتبه . ويستخبر من هذا عن ذلك بلطف ورقة .

فإذا وفد عليه قادم من هذه الجهات سأله عن اسمه وبلده . فيقول له : فلان من بلدة كذا . فلا يخلو إما أن يكون عزفه من غيره سابقا ، أو عرف جاره أو قريبه . فيقول له : فلان طيب ؟ فيقول : نعم سيدى . ثم يسأله عن أخيه فلان ، وولده فلان ، وزوجته وابنته . ويشير له باسم حارته وداره وماجاورها . فيقوم ذلك المغربي ويقعد ، ويقبل الأرض تارة ، ويسجد تارة ، ويعتقد أن ذلك من باب الكشف الصريح . فتراهم في أيام طلوع الحج ونزوله مزدحمين على بابيه من الصباح إلى الغروب . وكل من دخل منهم قدم بين يديه مبلغا من المال ، أو مقدارا من الشمع أو التمر على قدر حاله . وبعضهم يأتيه بمراسلات وصلات من أهل بلاده وعلمائها وأعيانها ويلتمسون منه الأجوبة . فنظر منهم بقطعة ورقة ولو بمقدار الأتملة فكأنما ظفر بحسن الخاتمة ، وحفظها كالتميمة ، ويرى أنه قد قبل حجه . وإلا فقد باء بالخيبة والندامة ، وتوجه عليه اللوم من أهل بلاده ، ودامت حسرته إلى يوم ميغاده .

وشرح في شرح كتاب إحياء علوم الدين للغزالي وبيض منه أجزاء
أرسلها إلى الأستانة والشام والمغرب ليشتروا كما اشتهر شرح القاموس ،
ويقبل الناس على طلبه واستنساخه .

وماتت زوجته سنة ١١٩٦ هـ فحزن عليها حزناً شديداً ، ودفنها بالقرب
من ضريح السيدة رقية وشيد لها ضريحاً ، ولازم قبرها أياماً كثيرة .
 واجتمع عنده الناس والقراء والمندوبون . وقدم لهم الطعام من التريد
والكسكسي والقهوة والشربات . واشترى قطعة أرض بجوار قبر زوجته
وبناها بيتاً وفرشه وسكن فيه أمها . وكان يبيت به أحياناً وقصده الشعراء
بالمراثي فقبلها منهم وأجازهم . ورثاها هو بقصائد . فلما جاء في
إحداها قوله :

نعم الفتاة بها فجعت غدية وكذلك فعل حوادث الأيام
شدت مطايا البين ثم ترحلت وتمايلت أكوارها . بسلام
رحلت لرحلتها غداة تحملت أحلامنا من قاعد وقيام
ما خلفت من بعدها في أهلها غير البكا والحزن والأيتام
..... الخ

ثم تزوج بعدها بأخرى ، وهي التي مات عنها وأحرزت ما جمعه من
مال وغيره . ولم يبلغ ما لا مزيد عليه من الشهرة وبعد الصيت ، وعظم القدر
والجاء عند الخصاص والعام ، وكثرت عليه الوفود من سائر الأقطار ، وأقبلت
عليه الدنيا بحذافيرها من كل ناحية ، لزم داره ، واحتجب عن أصحابه الذين
كان يلم بهم قبل ذلك إلا في القليل النادر لغرض من الأغراض ، وترك
الدرس والإقراء ، واعتكف بداخل الحريم ، وأغلق الباب ، ورد الهدايا
التي تأتيه من أكابر المصريين والأمراء .

ولما حضر الوالى التركى حسن باشا لم يذهب الزبيدى لزيارته ، فزاره الوالى فى بيته ، وخلع عليه فروة سمور تليق به ، وأهداه حصاناً من كرام الخيل ، عليه سرج فاخر وعباءة ، قيمته ألف دينار . وكانت شفاعته عنده لا ترد . وإن بعث إليه رسالة تلقاها بالقبول والإجلال ، وقبلها قبل أن يقرأها ، ووضعها على رأسه ، ونفذ ما فيها فى الحال .

وأرسل مرة إلى أحمد باشا الجزائر والى عكا رسالة ذكر فيها أنه المهدي المنتظر ، وسيكون له شأن عظيم . فصدقه الجزائر ، وحفظ تلك الرسالة ضمن الأحجية والتأتم التي يحملها . وكان يسر بذلك إلى بعض من يرد عليه ممن يدعى المعارف فى علوم الروحانيات ، ويعتقد صحته بلا شك . وكل من قدم عليه من جهة مصر سأله عن الزبيدى ، فإن أخبره وعرفه أنه اجتمع به وأخذ عنه ، وذكره بالمدح والثناء أحبه وأكرمه ، وأجزل صلته . وإن وقع منه خلاف ذلك أعرض عنه وأقصاه ، ومنع عنه بره ولو كان من أهل الفضائل ، واشتهر ذلك عنه . ولم يزل على حسن اعتقاده فى الزبيدى حتى مات كل منهما .

واتفق أن السلطان محمد صاحب بلاد المغرب أرسل إليه عدة هدايا قبل عزله وزهده فى الهدايا . وكان الزبيدى يقبل هذه الهدايا بالحمد والثناء والدعاء . فأرسل إليه سنة ١٢٠١ هدية عظيمة ، فردها وامتنع عن قبولها . وضاعت الهدية ولم ترجع إلى السلطان فلما علم بذلك أرسل إليه خطاباً يعاتبه ويوبخه على ما فعل . ويقول له إنك رددت الصلة التي أرسلناها إليك من بيت مال المسلمين . وليتك حيث تورعت عنها . كنت فرقتها على الفقراء والمحتاجين ، فيكون لنا ولك أجر ذلك ، ويلومه أيضاً على شرح كتاب الإحياء ويقول له : كان ينبغي أن تشغل وقتك بشيء نافع غير ذلك . وللمترجم من المصنفات .

(١) شرح القاموس المحيط للفيروزبادى (٢) شرح إحياء علوم الدين

للغزالي (٣) النفحة القدسية بواسطة البضعة العيدروسية (٤) الجواهر
المنيفة في أصول مذهب أبي حنيفة مما وافق فيه الأئمة الستة (٥) العقد
الخميس في طرق الإلباس والتلقين (٦) حكمة الإشراق إلى كتاب الآفاق
(٧) شرح الصدر في شرح أسماء أهل بدر (٨) التفتيش في معنى لفظ درويش
(٩) رفع نقاب الخفا عن اتعنى إلى وفا وأبي الوفا (٧) بلغة الأريب في
مصطلح آثار الحبيب (١١) إعلام الأعلام بمناسك حج بيت الله الحرام
(١٢) زهر الأكام المنشق عن جيوب الإلهام ، بشرح قصيدة سيدي
عبد السلام (١٣) رشفة المدام المختوم البكري من صفوة زلال صيغة
القطب البكري (١٤) رشف سلاف الرحيق في نسب حضرة الصديق
(١٥) القول المثبوت في تحقيق الثبوت (١٦) تنسيق قلائد المن في تحقيق
كلام الشاذلي أبي الحسن (١٧) لقط اللآلئ من الجواهر الخالي (١٨) النوافح
المكية على الفوائح الكشكية (١٩) هدية الإخوان في شجرة الدخان
(٢٠) منح الفيوضات الوفية فيما في سورة الرحمن من أسرار الصفة الإلهية
(٢١) المنح العلية في الطريقة النقشبندية (٢٢) ترويح القلوب بذكر
ملوك بني أيوب .

وله شعر كثير ، بعضه في ترجمته التي أوردها الجبرتي ، وبعضه
في اللوائح الأنوارية . وقد أصيب بالطاعون ومات سنة ١٢٠٥ هـ .

الصبيان

المتوفى سنة ١٢٠٦ هـ

هو محمد بن علي الصبان الشافعي . ولد بمصر ، وحفظ القرآن والمتون
واجتهد في طلب العلم . وحضر أشياء عصره وجهابذة مصره وشيوخه
وبرع في النحو وألف حاشية على الأشئوني وصفها الجبرتي بقوله « سارت
بها الركبان ، وشهد بدقتها أهل الفضائل والعرفان » قال الجبرتي « وله

في النثر كعب على ، وفي الشعر كأس ملي ، ثم أورد جملة قصائد من شعره . ثم قال « وكان في مبدأ أمره ، وعنفوان صهره معانقاً للضمول والإملاق ، متسكلاً على مولاه الرزاق . يستجدي مع العفة ، ويستدر من غير كلفة » .

وعين مؤقتاً بالمدرسة الصلاحية بضريح الإمام الشافعي عندما جدد عبد الرحمن كتحدا وسكن هناك مدة ثم تركه وعين مؤقتاً في مسجد محمد أبي الذهب لما تم بنيانه . وبني له مسكناً في أعلى المسجد وأقام فيه مع زوجته وأولاده . ولما اضمحل وقف هذا المسجد تركه واشترى منزلاً صغيراً بحارة الشنواني وأقام فيه . واتصل بشيخ السادات محل أبي الأنوار ومدحه بقصائد جيدة يجدها القارئ في « اللوائح الأنوارية » .

وحين حضر قاضي العسكر عبد الله المعروف بططر زادة ، وكان متضلماً من العلوم والمعارف ، وسمع بالصبان ، اجتمع به وأعجب به كل الإعجاب ، وأغدى عليه الأموال . فأثرى ولبس الملابس الغالية ، وركب الخيل الكريمة . ثم تعرف بإسماعيل كتحدا الوالي حسن باشا وتردد عليه قبل ولايته ، فلما أتته الولاية بمصر زاد في إكرامه وأولاه بره ، ورتب له ما يكفيه في كل يوم من النفقات واللحم والسمن والأرز والخبز وغير ذلك . وأعطاء ممداراً كبيراً من الملابس الفاخرة . وأقبلت عليه الدنيا وازداد وجاهة وشهرة . وعمل فرحاً وزوج ابنه عليا .

فجاءت إليه هدايا كثيرة ، وزاره الناس وأنعم عليه الوالي بمبلغ من المال وألبس ابنه فروة يوم زفافه . وكذلك أرسل إليه فرقة الموسيقى وبعض الجنود في ليلة الزفاف

وقد أصيب المترجم بعد ذلك بالسعال وبمرض في الرئة، ومات فجأة ليلة الثلاثاء ثامن جمادى الأولى سنة ١٢٠٦ هـ وصلى عليه بالأزهر في مشهد حافل ودفن بالبستان

الفصل الثالث

المؤرخون وأصحاب السير

١

ابن إياس الحنفى

٨٥٢ - ٩٣٠ هـ

هو محمد بن أحمد بن إياس الحنفى . ولد بالقاهرة سنة ٨٥٢ في بيت مجد ونشأ في طائفة كريمة ، فقد كان جده أحد كبار موظفى الدولة المصرية في عهد السلطان الظاهر برقوق (٨٠١ - ٨٠٨) وترك ثروة مكنت ابنه ؛ والد المترجم ؛ من العيش الرخى . وكان والده كثير العشرة للأمرء وأرباب الدولة وقد أغنته ثروته عن الاشتغال بالأعمال الحكومية . وورث المترجم هذه الثروة ، واستغنى بها عن التوظيف ، وبذلك تفرغ لحياة العلم ، وأقبل على قراءة السكتب الأدبية والتاريخية . ونظم الشعر وألف تاريخه المشهور .

وقد درس على جلال الدين السيوطى ، وعبد الباسط بن خليل الحنفى . وكان أخوه الجمالى يوسف موظفا كبيرا فى القلعة . فاستطاع المترجم أن يقف على ماوقع من الحوادث السياسية فى عصره عن طريق أخيه . فسجلها فى تاريخه ملتزما بالدقة والأمانة .

ويعتبر كتابه « بدائع الزهور » من أهم الكتب المؤلفة فى تاريخ عصره لأن مؤلفه شاهد حوادث خطيرة ، ووقائع عظيمة ، فدونها فى أمانة ودقة . ولم نجد أحدا من معاصريه اهتم بتاريخ هذه الفترة من حياة مصر . وقد وصف فى تاريخه دولة المماليك وتطورها التاريخى وكيفية إدارتها وأحوالها

الاقتصادية ، وحضارتها ومبانيها ، ومواكب سلاطينها وأعيادها . ومراسم استقبال سفراء الدول الأخرى ، وما يصحب ذلك من الاحتفالات ، كما تكلم عن الأمراض والأوبئة التي ابتليت بها البلاد المصرية ، مع أخبار مهمة تتعلق بالإحصاءات. ثم ذكر أعيان ذلك العصر من العلماء والشعراء والنسك وغيرهم . وامتازت الأجزاء الأخيرة من كتابه باستيعاب الأخبار.

وهو باحث بعيد النظر ، ثاقب الفكر ، منصف إلى أبعد حد ، وصف أحوال الدولة في أواخر حكم الغوري ، وما طرأ عليها من الفساد والضييق المالى بسبب تحول التجارة الأوربية إلى طريق رأس الرجاء الصالح ، وحرمان مصر من الأموال الطائلة التي كانت تجيها على تلك البضائع ، واضطرار الغوري إلى إتقال كاهل الشعب بالضرائب الكثيرة التي كان يجمعها وينفقها في بناء القصور الفخمة

وتحدث عن الجيش المصرى وإهمال الغوري له ، ثم وصف خروج السلطان إلى مرج دابق لمحاربة العثمانيين ، وكيفية انهزام الجيش المصرى وهلاك الغوري ثم وصف جهاد السلطان طومانباى ضد العثمانيين ، هذا الجهاد الذى انتهى إلى الهزيمة بسبب الخيانة وقلة العدد والعدد فى الجيش المصرى . ثم تحدث عن أسر طومانباى وشنقه على باب زويلة . ووصف أعمال العثمانيين فى مصر ، واعتداءهم على الأنفس والأموال ، وتخريبهم لكثير من الأبنية ، ونقلهم الرخام والأبواب والأعمدة إلى استنبول . وكذلك نقلهم الكتب والنقائس وترحيلهم مهرة العمال والصناع إلى هناك . وما قاساه الناس بسبب ذلك من الآلام ، وما تعرضوا له من البلاء والهلاك .

ووصف السلطان سليم بالعكوف على الذات والانغماس فى الشهوات ، تاركا الحكم لوزرائه يفعلون ما يشاءون . ويقول إن ابن عثمان لم يكن يظهر إلا عند سنك دمء المماليك الجراكسة ، وما كان له أمان إذا أعطاه لأحد

من الناس ، وليس له قول ولا فعل ، وكلامه ناقض ومنقوض . لا يثبت على قول واحد كعادة السلاطين ، وليس له سباط يعرف ، ولا نظام كعادة السلاطين في سباطهم الذى كانت تجلس عليه الخاصكية كل يوم . وأما عسكره فكانوا جميعا نين العين ، أنفسهم قذرة . يأكلون الأكل وهم راكبون خيولهم في الأسواق وعندهم عقاشة في أنفسهم زائدة ، وقلة دين . يتجاهرون بشرب الخمر في الأسواق بين الناس . يفطرون في رمضان ، وهم للصلاة تاركون ، حتى صلاة الجمعة . ولم يكن عندهم أدب ولا حشمة . وليس لهم نظام يعرف ، لاهم ولا أمراؤهم ولا وزراؤهم . وهم همج كالبهايم ثم وصف فظائهم ، وخطفهم النساء للفسق بهن ، وتخريبهم الكثير من المباني ، وأخذهم أخشابها لاستخدامها في طهي طعامهم أو بيعها بأبخس الأثمان

وقد أخذ ابن إياس على السلطان سليم أنه لم يكن له سباط منظم كعادة الملوك . وفاته أن سليم لم يكن مقيما إقامة دائمة في مصر ، بل قدم فاتحا فكانت إقامته مؤقتة ، وكان في شاغل عن الأشمطة والأطعمة بتنظيم إدارة البلاد . والكشف عن مواردها ، وضبط أمورها حتى لا تنقلت من يده وتخرج من حكمه أما احتجاجه عن الناس فكان لخوفه على نفسه من مؤامرات المماليك . وأسلوب ابن إياس عليه طابع الإهمال فهو كثير الخطأ اللغوى والنحوى . وقد طبع تاريخه عدة مرات آخرها الطبعة التى أخرجتها لجنة المستشرقين الألمان باستنبول سنة ١٩٣٢ م

٢

أحمد بن زنبيل الرمال

من رجال القرن العاشر

هو أحمد بن أبى الحسن نور الدين المحلى الشافعى . كان موظفا بديوان الجيش إلى سنة ٩٦٠ هـ وتعاطى الرمل والنجامة ومن مؤلفاته :

- ١ - فتح مصر على يد السلطان سليم
- ٢ - سيرة السلطان سليم ، وبه ذيل إلى فتح جزيرة رودس . مخطوط بألمانيا
- ٣ - تحفة الملوك - مخطوط - اكسفورد

عاش أحمد بن زنبيل الرمال في الوقت الذي تم فيه سقوط مصر في أيدي
العثمانيين . وألف كتابه « وقعة السلطان سليم بن عثمان في فتوح مصر مع
السلطان الغورى وطومانباي »

وقد سرد الحوادث والوقائع دون أن يذكر لها تاريخاً معيناً وإنما أرسل
الكلام كأنه يقص قصة . واجتهد في ذكر التفاصيل التي من شأنها أن تعطينا
فكرة واضحة عما أظهرته قلة من المماليك من الكفاح والجهاد دفاعاً عن
مصر ، وذوداً عن استقلالها . ومن الأمور التي ذكرها ولم يشر إليها ابن
إياس أن السلطان سليم عرض على طومانباي أن ينوب عنه في حكم مصر ،
على أن تكون الخطبة والسكة باسم السلطان العثماني . ولكن طومانباي
ومعه قلة من المماليك رفضوا ذلك رفضاً تاماً بكل إباء وشتم ، وصمموا على
الاحتفاظ باستقلال مصر أو الموت .

وأعطانا المؤلف فكرة عن الخيانات التي تفشت في صفوف المماليك .
فقد أرسل بعضهم ممن كانوا يحكمون الشام نيابة عن سلطان مصر رسائل إلى
سليم يطمعونه في الاستيلاء على الشام ومصر وإزالة ملك الجراكسة .
وكانت خيانتهم من أهم الأسباب التي أدت إلى هزيمة الجيش المصري في مرج
دابق ، تلك الهزيمة التي فتحت أبواب الشام ومصر أمام العثمانيين فدخلوا
دون مقاومة كبيرة . وذكر أنواع الخديعة التي لجأ إليها العثمانيون ، والتي
سهلت عليهم مهمة الغزو . وقال إن البنادق والمدافع الكثيرة التي استخدمها
الغزاة كانت من أسباب انتصارهم .

ومن أهم ما جاء في الكتاب محاولة بعض المماليك استرجاع استقلال البلاد

وطرد العثمانيين منها . فمكاد يذاع نبأ وفاة السلطان سليم حتى قام بعض المماليك في الشرقية وجمعوا جيشاً من الفلاحين والعرب وبقية الجراكسة . فأرسل إليهم الوالي جيشاً مجهزاً بالمدافع والبنادق، فالبثوا أن انهزموا وتبدد شملهم . وكذلك حاول الوالي أحمد باشا الملقب بالخائن أن يستقل بمصر في أوائل حكم السلطان سليمان ولكنه أخفق وقتل .

٣

على بن نور الدين الحلبي

٩٧٥ - ١٠٤٤ هـ

هو علي بن إبراهيم بن علي الملقب بنور الدين الحلبي القاهري الشافعي ، صاحب السيرة النبوية .

ولد بمصر سنة ٩٧٥ ودرس على شيوخ عصره . وألف كتباً كثيرة، منها « إنسان العيون في سيرة النبي المأمون » قال صاحب خلاصة (١) الأثر وقد اشتهرت اشتهاراً كبيراً ، وتلقبها الأفاضل بالقبول . وله مؤلفات كثيرة في الفقه والحديث ، واللغة والتاريخ ، والنحو والتصوف .

« وكان أحد مشايخ المدرسة الصلاحية . وكان درسه مجمع الفضلاء ، ومحط رجال النبلاء . وكان غاية في التحقيق ، حاد الفهم ، قوى الفكرة ، متحريراً في الفتاوى ، جامعاً بين العلم والعمل ، صاحب جد واجتهاد، عم نفعه الناس فأثروه لأخذ العلم عنه من البلاد »

« وهو أجل أعلام المشايخ ، وعلامة الزمان ، كان جبلاً من جبال العلم ، وبحراً لاساحل له ، واسع الحلم ، علامة جايل المقدار ، جامعاً لأشتات العلام

— ٣٠٠ —

صارفاً نقد عمره في بث العلم النافع ونشره . وحظي فيه حظوة لم يحظها أحد مثله . وكان مهاباً عند خاصة الناس وعامتهم ، حسن الخلق والخلق ، ذا دعاية لطيفة في درسه مع جلالته . وكان الشيوخ يثنون عليه بما هو أهله من الفضل التام ، ومزيد الجلالة والاحترام ، مات سنة ١٠٤٤ ودفن بالمجاورين

وكتابه المعروف بالسيرة الحلبية مطبوع ومشهور بين الناس . وكان بينه وبين أبي المواهب البكري المتوفى سنة ١٠٣٧ هـ مودة أكيدة ، وباسمه ألف هذه السيرة ، كما ذكر ذلك في المقدمة

٤

عبد الباقي الإسحاق

المتوفى سنة ١٠٦٠ هـ

هو محمد بن عبد المعطى الشهير بالإسحاق المنوفى ، الأديب الشاعر الفائق . كان قاضياً فاضلاً ، وعالماً مؤرخاً ، كثير النظم للشعر ، صحيح الفكرة ، جيد الأسلوب

قرأ ببلاده منوف على شيوخ كثيرين ، وأخذ يتردد على القاهرة ويحضر في الجامع الأزهر للدراسة على علماء عصره . وله كتاب اسمه «لطائف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول» مطبوع ، وكان من المصادر التي اعتمد عليها الجبرتي في تاريخه ، وينتهي إلى سنة ١٠٣١ هـ سرد الإسحاق في تاريخه هذا سيرة ولاية بنى عثمان الذين حكموا مصر منذ السلطان سليم إلى عصره ، مع ذكر أعمالهم ، والحوادث الشهيرة التي وقعت إبان حكمهم ؛ على سبيل الاختصار ، وأورد فيه شعراً قليلاً . أما ديوانه فلم يصل إلينا . وقد أورد له صاحب خلاصة الأثر قصيدة مطلعها :

أمل لي كاساً تماماً واستقني جاماً خاماً
 واجعل الدرة كاساً وخذ التبر مداماً
 تم الكاس فإن الكاس ما كان تماماً
 واتخذها سلماً للهوىس هو أن يسامى
 وتوهم أنها الحـ لي وإن كانت حراماً
 ثم أزهى موضع في الروض فاختره مقاماً
 وإذا شئت أن تسكر فاستدع الندامى
 وليكن خمرك عادياً وساقبك غلاماً
 يملأ الكاسات والألحان برأ وسقاماً
 يملأ القلب سروراً وانبساطاً وغراماً
 عابثاً بالغصن أعطاه فابالزهر ابتساماً
 فهو المطلوب للعجب لس رأساً وإماماً
 اسقني بالكوب والكاس فرادى وتؤاماً
 ثم بالكاس إلى أن تترأى الهام هاماً
 ثم بالجرة فالجرة حتى أترامى
 اسقني حينئذ بالرق حتى لا كلاماً
 ثم بالدن فتلك الغاية القصوى تماماً
 ثم خذ عني ما شئت ولا تخش أثاماً
 والتقط مني الجمان الفرد نثراً ونظاماً

محمد بن محمد بن أبي السرور البكري

للتوفي سنة ١٠٢٨ هـ

ولد محمد بن محمد بن أبي السرور بالقاهرة . ونشأ في بيت أدب وعلم ،
 ودرس على شيوخ عصره . وفيه يقول صاحب خلاصة الأثر : كان من العلم

والتحقيق آية من آيات الله تعالى . ومن الولاية والتحقق غاية من الغايات . وكان فصيح العبارة ، طلق اللسان ، كثير الفوائد ، جم النوادر . وكانت الولاية عليه ظاهرة ، مع الدين المتين والعقل الكامل ، والتظاهر بالنعمة في الملبس والمأكل والخدمة . وكان من أحسن الناس خلقا وخلقاً ، مبهجاً عند الكبراء والوزراء ، ذا جاه عريض ، معتقداً عند عامة الناس وخاصتهم ، مسموع الكلمة ، مقبول الشفاعة ، يرجع إليه في مشكلات الأمور . رفيع الهمة ، كريم الأخلاق » .

« ولد بمصر ونشأ بها . وحفظ القرآن وتأدب واشتغل بطلب العلوم وأتقنها ، وبرع في كثير من الفنون لاسيما علم التفسير والحديث . وأقبل على التدريس إلى أن صار رئيس البيت البكري ، فكان يدرس على عادة أسلافه في الجامع الأزهر في الليالي المشهورة كلية المولد والمعراج ، والنصف من شعبان . ثم لما كبر ترك ذلك كله واستقل بالإفادة في بيتهم المعمور » .

وذكره والد المحبي في رحلته إلى مصر فقال « عين أعيان هذه القادة ، وثمين درر هذه القلادة . فرع غصن الدوحة البكرية ، وفن الشجرة الطاهرة الصديقية التي لم تزل من البركة والسمو في النماء ، أصلها ثابت وفرعها في السماء . رونق الليالي والأيام ، وتاج رأس العلماء الأعلام » ومن كتبه في التاريخ :

(١) عيون الأخبار ونزهة الأبصار (٢) النزهة الزهية في ذكر ولاية مصر والقاهرة المعزية (٣) الوشى المرقوم من النطق المفهوم (٤) المنح الربانية في تاريخ الدولة العثمانية (٥) اللطائف الربانية على المنح الرحمانية . وقد اعتمد الجبرتي على هذه الكتب وانتفع بها . وفي نهاية كتابه « عيون الأخبار » خصص باباً لأخبار الحشاشين ونوادرهم ، وأخبار الجعيدية .

مختارات من الشعر المصري

في ظل الحكم العثماني
في يوم... الحفناوى

قال الشيخ يوسف الحفناوى يمدح الأمير كتنخدا رضوان :
لاحت بمصر من السنا أثمار وبدا لصبح جبينها إسفار
وجلت يد الإسعاد من أرجائها فطامها فلاح بوجهها أنوار
بأمرها رضوان أوحد عصره الس ملك تؤم له الملوكة وتنتهى
ملك المعالي والفخار فماله مثل تحاول دركه الأفكار
عزماته شهب النجوم وكفه بحز له سحب الندى تيار
مولى به للمكرمات عناية والجود أيد غيثها مدرار
ذلت تسار به إلى باب العسلا هم ويسعفه لذلك نجار
أعلى مقام الجسد فهو به غدا ذا ثروة لم يعرها إقتار
وزها به روض السكال فما به إلا غصون زهرها معطار
بأمال السكا رق المعالي دم لها سندا فتلك لها بك استنصار
وقال يمدحه :

ملا الفؤاد هوى ووجدنا رشاً لعيني السهد أهدي
مترنج الأعطاف قد نشر الجمال عليه بُردا
يمتثال في جلال الدلا ل فيزدري بالباب قدا
دريم سلاف حديته أشهى من الصهباء وردا
لدى القوام لقده الس أغصان تسجد إن تبدي
يرنو فيأعب بالنهى ويسومها بالفتك جهدا
ملك غدت لجمال طلا مته ملاح العصر جندا
بجفونه النعس المرا ض لقتل مغرمه تصدى
وسيوف الخليله اتخذ ن جوانح العشاق غمدا
يغزونها سلباً ونم با للنهى هزلا وجدا

فكأنها سرقت شبا عزمات رضوان للفدى
ملك تبؤم الآمل ون لحيه وفدا فوفدا
فيعيدها من جوده ونواله بالعيش رغدا
منن كأنواء السحا تب تعجز الأبواب سردا
فاحت بنشر عبيرها أيد من الأمطار أندى
ومهاية ذلت لها ال آساد حين بها تحدى
كصى الكليم تلقفت من سحرهم ما قد أعدا
بأس تحاماه الملوك ك له الجبال تحر هذا
ولطيف طبع كالنفس اثم لم يدع فى الناس حقدا
بهما غدا متوليا أمر النهى حلا وعقدا
وعلى سعد قد كسا ه من السنا عزا ومجدا
وأراه من غيب العوا قب ما لغايته استعدا
يا طالما قد حث فى تحصيل مطلبه مجدا
يا مالكا رق المعال لى دم لها سندا معدا
لتصونها ممن يس وم جنايها فى الدهر كدا
وإليك در بلاغة نظمته أيدى المدح عقدا
حسن النسيج إلى جنا بك يوسف الحفنى أهدي
لم يكتسب إلا الأج ور به ثناء ثم حمدا
إذ شكر من أسدى موا هب جوده فرض يؤدى
رغم لأنف حواسد قد جاوزوا فى الاوم حدا
قالوا لحقد قلوبهم هذا بمدحته تعدى
فتغاض عنه ولا تبا لغ فى التأمل فيه نقدا
إن الكريم إذا رأى خللا تغاضى عنه قصدا
لا زال جاهك منهلا عذبا وللعافين وردا

وقال يمدحه من قصيدة طويلة :

مولاي بل مولى الأنام وملجئ
غوث العفاة وغيث كل مؤمل
عند العطاء يريك بذل يمينه
بطل إذا لمعت بوارق سيفه
تغنيه شدة بأسه وسطاه عن
مولى إذا شاهدته وسمعته
أنست به الأيام ما قد أسلفت
بل أين للأهم السوالف سيد
لويبذل الدنيا استقل عطاءه
أو أين للجلنى قرم مشبه
هيات لم تلد النساء مثاله
ياما نحى غرر المكارم بعد أن
شكراً لنعمك التي ما شاهدت
لا زلت لى ولكل من أم الحمى
متمتعاً بعزيز جاهك حائزاً
وإليك أبياتاً بمدحك قد غدت
تمشى على استحيائها إن لم تكن
يرجو بها الحفنى يوسف غفرما
فانظر بفكرك لطف رقتها ودع

رضوان ذى الجاه العلى الأرفع
وافى الرحاب بذلة وتخضع
سمحا سحائب جوده لم تقلع
غربت صوارم كل شهم أشجع
حمل الظبي بل ذاك أعظم موقع
أغناك عن مرأى سواء ومسمع
من كل قرم أو جواد مسرع
بالبشر يلقى الوافدين إذا دُعِى
لرفيع همته التي لم تشفع
يردى العتاة ببأسه المترفع
وسواء بالعلياء لم يتمتع
لم ألق غيرك بالمواهب ممتعى
عيني لها مثلاً ولم تستبمع
حصناً منيعاً فى الزمان الموجع
قصب المنى فى مشرع أو منزع
تحتال فيها فى حلى أبسعد
أهلاً لخدمة ذا الرحاب الأوسع
قد كان من تقصيره فى المرجع
ياصاح قف بى فى حماه وودع

وقال يمدحه :

بدر المسرات فى أفق السماء له
وبلبل المدح فى أفنان طاهره
فقم بنا نجتلى الصهباء صافية

من طالع السعد إشراق وإسعاد
يتلو البشائر والأوقات أعياد
يسعى بها بابلى اللحظ مباد

تعطيك مهما رنا وعدا لحواظه
تخال منه جلالا لاح مقتبسا
رضوان من عرفت بالفوز عزمته
عين الجلال جمال الملك من خضعت
كهف منيع ملاذ عُدَّة سندن
تغنو لسُدَّتِه كى تستفيد هدى
مثل السحائب أخلاقا غدت يده
تسح بالوجود دأباً للورى فلهم
وتنتضى فى الوغى ماض ضواربه
فما للفاخر والمجد الأثيل سوى
هيئات لا يبلغ للثنى خصائصه
حسب المديح علوا حيث أسنده
ياخير من خفقت بالمجد رايته
خذها عقيمة فكرود سامعها
لازلت تسمو سمو الشمس فى صعد

وقال يمدحه من قصيدة :

يا بدر أفق طالع فى أفق حسن ينجلي
ماملت فيك ولا صغى ت لقولة من عذلى
أنا من طريقهم ومن عدوانهم فى معزل
أضحت شمائل فأتنى مثل الغصون الميل
كسف الدور ضياؤه بجمال حسن أكمل
وعيونهم تزرى المها بهاء طرف أكحل
ماسحر بابل عندها إلا كعبة خردل
أرخصى العذار بنجده فكانه البدر الجلى

أوسطر حسن قد بدا في هالة الأفق العلى
ومداده من شكله ماء الجمال الأجل
وعليه عقرب صدغه كالحارس المتوكل
يا يوسف الحسن الذى يسى عيون الكحل
واصل محبا ذاب من حر الغرام المشعل
فاذا مطلت فاني أسلو بمدح الأكل
رضوان كوكب مصرنا ببحر النوال الأشمل
لوجوده الدهرا كتسى ثوب النظارة واللى
يامن له شأن على لم يشن بتبذل
فرسان كل بلاغة خضعت له بتبذل
وله الأيادى البيض فى تفصيلها والمجمل
لست الموفى بالمديح حمدى علاك الأفضل
لو كنت فى نظم القري ض كأخطل أودعبل
لكن دعتنى للنظا م صناعة المتمثل
لازلت أحلى مشرب أبدا وأعذب مورد
وظللت تسمو فى الأنا م بمجدك المتأثل
ومحط جاء الوافد ين المجتدى والمجتلى

وقال يمدحه :

مولاي لأبرحت أياديك العلا يهيم على الورد غيث هباتها
وسماء عزك ساطعاً بروجها شمس القبول على مدى آئاتها
وحسام جاهك فى عداتك واردا لباتها والناس فى غفلاتها
وبحار جودك تقذف الدرر التى عزت لمن يرجو جميل صلاتها
غرر بها الميقات تم لقاصد حرم المني والسعى من ميقاتها
أهدى إلى فرائدا تروى الظما وتبل غلة من أتى ساحاتها

ردحان مجدك راشفأراح الهنا والأنس صرفاً من أكف سقاتها
لاتخس من دنياك في طول المدى بأسا فسمعك مظهر غراتها
ولإليك من صافي الوداد تحية تهديك من غرر الدعا ثمراتها
وتبت شكر صلات راحتك التي غمرته بالمأمول من قطراتها

٢ - الشهاب الخفاجي

قال :

قدحت رعود البرق زبدا أضرم أشجاناً ووجدنا
في شحمة الظلماء إذ مدت على الخضراء وردنا
حتى تشاب نوره وتمطت الأغصان قدنا
وأنى الشقيق يتجمر للروض أوقد فيه ندا
وعلى الغدير مفاضة سردت له النسمات سردنا
وحبابه من فوقه قد بات يلعب فيه نردنا
فسقى معاهد بالحلى قد أنبت حباً ووردنا
تذر الليالي في نرى من عنبر للمسك أهدي
عجبا لدر ناصع أودعن في مسك مندى
في ظل عيش ناعم بنسيم أسحار تردى
والدهر عبس طائع أهدي لنا شرفاً وسعدنا
مازال أصدق ناصح كم قال لي هزلاً وجدنا
سلم امرؤ عن طوره في كل حال ما تعدى
فالخطب بحر زاخر فاصبر له جزراً ومدا
لا يخطشى لسع الزنا بير الذي يستام شهدنا
في ذمة الأيام لك أحرار دين قد يؤدى
إن ماطلت فلربما أنجزن بعد المطل وعدنا

فإذا رمى طاطيء له رأسا تراه عنك عدى
أفبعد إخواني الآلى درجوا أخاف اليوم فقدا
عيني إذا استسقت بهم تسقى بدمع العين خذا
لو كانت القطرات تج مد نظمت فى الجيد عقدا
قوم لهم يدعو الثنا من شاسع الأقطار وفدا
كم فى عكاظ نديهم جلبوا لهم شكرا وحدا
لا يشعرون بذخرهم إلا جميل الذكر نقدا
أبقى لهم حسن الحدي ث برغم أنف الدهر خلدا
ورثوا المكارم كابرا عن كابر فرضا وردا
من كل طود شاخ متسريل بردها مجدا
أمت عيوننا كلها ترنو إلى الأعداء حقدا
تلقى الورى بنديهم نيكس العيون إذا تبدى
لبس الجلال على الجا ل فصد عنه الطرف صدا
فهمو بسلطان التقى تحذوا قلوب الناس جندا
أمسوا بغمد ضريحهم وبقيت مثل السيف فردا
مالى أقيم ببلادة فيها بناء الدين هندا
وبها الشهاب إذا سما يخشى من الشيطان طردا

وقال :

بت أرمى النجوم والإلف راقدا
فاسألوا النجم عن خفوق فؤادى
أيها الأمرى بزهدى سمعا
كل زرع زرعه فى شبابى
أنا فى الأرض ضارب دون كسب
وعجيب لمحنة أنا فيها
هل سمير الشهاب غير الفراقدا
واذكروا وجده بتلك المعاهد
إننى اليوم فى الزهادة زاهد
فله منجل انحنائى حاصدا
مثل ضرب لواحد فى واحد
كم لها من أسافل الناس حاسدا

نبعة اشتق من علاها أناس
 سلم عندهم نقود متاعى
 لى غوص فى كل بحر لدر
 جهلنى وليس تجهل نار
 غير أن الشهاب ليس خليلا
 ليت عيننا إذا رنت لى رمدا
 يا نسيما من الحمى هب أهلا
 أين عهد الصبا وخدى وساد
 وبجيد الأيام عقد تصاب
 حيث غر الوجوه بين الأغاني
 فسقى الله عهدا بعهد
 أذكرتنى بالروم عهدا بمصر
 فى زمان به اللامة دين
 ليس فيه شيء يروق لرائى
 ورثته أحسابه كل فضل
 زحلى الأضداد فى كل فضل
 عجبنا منه مالكا لى رقا
 كم يراع بشكره يتغنى
 كم خضم بجنب بحر نداه
 فبفضلى أحيت منه دروسا
 وبجود لديك فضل ثنائى
 وبعدل ورثته عمريا
 وقال :

يا فاضح العين الغرير
 وبناهة الثغر التى
 بسقام طرفك والفتور
 فضحت شذا نشر العبير

وشمائل الحسن الذي أضنى نسيات البكور
أرحم معنى ناحلا لم يدر ما طعم السرور
وانظر مدامع مقالة أمست ترحم عن أموري
فالسر منها ظاهر مبد لمستتر الضمير
واكشف محيا فانتسا كالشمس في اليوم المطير
واسمع أحاديث الهوى فلقد سقطت على الخبير
فحجتي عسوية وعذول أشجاني حروري
ولكم خلوت كنيتي وقضيت من نجي ندوري
بجديقة فرشت لنا ديباج سندسها الحريري
لما تسالت الصبا بين الحديقة والغدير
ومشت لتسترق الشذا في غفلة الروض النضير
قل للعذول على الظبا سرح ملامك في الحجير
ودع الفقيه وقل له في درسه أقوال زور
ياماشيا أبدا على بطن إلى فقه القدور
إن ترتحل غنى فما في العير أنت ولا النفير
يا أكمه الرأي الذي قاد الملامة للبصير
أشبت سمعى وهولا يلتذ بالرأى الفطير
فدع العنا لا تعترض بين النسيمة والزهور

وقال :

إذا لم ألق في أمر شفيما فتركي ما أريد أجل شافع
أأخشى ضيق صدر من لئيم وصدر البيد والطرقا واسع؟

وقال :

رداء الصبر أجل ما تردى به حر ينافس في دماؤه
إذا لم تنفع الإنسان شكوى فإن شفاءه كتمان دأؤه

وقال :

قلت للندمان لما مزقوا برد الدياجي
قتلتنا الراح صرفا فاقتلوهما بالمزاج

وقال :

سهم جفونه أعرضن عني فأسرع فتكها ونما جواها
فيالك أسهما تصي الرمايا إذا صرفت إلى شيء سواها

وقال :

قد كان لي خل على نهج النفاق قد سلك
ركت ملابس وده فقطعته من حيث رك

وقال :

العرف قرض لمن تزكو مروءته يهوى الأداء له في حال مقدرته
وذاك قيد له إن لم يؤد فلا ينفك إلا بشكر أو مكافأته

وقال :

أيها السائل عن ابن فلان وديون عليه دهر مليا
ليس يقضيك حبة من ديون ويكيل الأيمان كيلا وفيا
إن تخاشنه في تقاضيه يوما صار بالخلف دينه مقضيا

وقال في ثقیل :

لازمنا قدم ثقیل فهل له على الأرواح منا ديون
تكرهه الأحاظ منا لذا تلوذ بالأجفان منا اليعون

وقال :

كم من كريم قد بات في دعة أناه سليل الصباح بالنكد
ورب فرخ أراشه زمن فصار بالعز بيضة البلد

وقال :

إن يعد ذو بغى عليك نخله وارقب زمانا لا انتقام الطاغى
واحذر من البغى الوخيم فلو بغى جبل على جبل لك الباغى

٣ - عبد الله الإدكاوى

قال في المدح :

وصل الحبيب وصح منه الموثق وأدارلى من مرشفيه سلافة
ووفى بموعده لهذا لم أقل وأبأحنى وردا جنيا ناضرا
واغتاط عاذلى الجبول الأحمق غضمته ضم امرئ يخشى على
وعد الزيارة طرفه المتملق ورشفت شهد سلافة كادت لها
من طيب رباها المجالس تعبق وهصرت منه معطفا لدنا فما الـ
من دونه بيض الصفائح تمشق ولرب ليل مربى بوصاله
ما فى يديه من القوائد تسرق لأنجم فيه سوى لآلى ثغره
أعضاءى من فرط المسرة تنطق وإذا ذكرت له الصباح يقول لى
غصن الرشيق وما الردينى الأرشق وإذا شرعت مبالغا فى وصفه
حلوا أكاد به سرورا أشرق ويقول دع وصفى وبالع فى ثنا
والبدر وجه منه زاه مشرق أعنى أمير المجد مأمول الجدا
فى وجنتى شمس وصبحى المفرق ذاك الأمير على المقدار من
يحمر من خجل هناك ويعرق ذو العزة القعساء والهمم التى
رب المعالى فهو حقا أليق بلواء علياه السيادة تخفق
من أمه لاشك فهو موفق بذيلها راجى المتى يتعلق

والجاء ما إن أمه ذو كربة
والحكم والباس اللذين لديهما
والخلق والخلق اللذين كلاهما
حاوى البراعة والشجاعة والندى
والهمة العليا التي قد أوجدت
يا بر يا بحر الفواضل والحياء
همم الرجال على مقادير العلا
لله ما أبديته من مظهر
هيأت عرساً للحامد والثنا
عرساً به بوران بارت مثل ما
عرساً به أهديت بكر الخدر لا
عرساً به أظهرت شمساً حجبت
هو أوحداً الأمرا ميميك ذو العلا
هذا قران السعد فاسعد يا أخا
واسمع مديحاً من عبيد إن يقل
وثناء درّ في معاليك التي
زاد العليّ علاك يا جل المنى
مذمّم عرس المكرمات بصفوه
أنشأت فيه واصفاً ومؤرخاً

إلا وعاد وأمنه متحقق
موت العدا وحياة جار يشفق
في حسنه وجماله متأنق
قولا وأفعالا وجودا يدفق
في عصرنا ما إن نراه يلحق
يا من بطنعته الدجى يتألق
وعلاك أسمى يا هام وأسحق
فيه لعزك يا أميري رونق
وأقت سوقاً للمدائح تنفق
قطر الندى جفت وزال الرقيق
كفء المكرم من علاه محقق
عن أعين ترنو لها أو ترمق
دامت علاه برفقه تتمنطق
عليها ودم ما دام ربك يخلق
إني بحبك فهو حقاً يصدق
هي بالثناء وبالمدائح أوفق
يا من حيا أيديه لا يترنق
وغدت أكف الحظ فيه تصفق
عرس به بدر التهاني يمدق

وقال يمدح الإمام الشافعي :

لذ بالإمام الشافعي
واخضع لدى أعتابه
متمسكاً بترابه
وادخل حماه فمن غدا
وانهض إليه وسارع
ما فاز غير الخاضع
ما قدر مسك ضائع
فيه فليس بضائع

واسعد بزورته وقل يا نسل طه الشافع
 ها قد أتيتك ضارعاً يا غوث عان ضارع
 فانظر إلى بعين مو لى مالك لى نافع
 أو ليس سرى فى الورى يا قطب أعظم ذائع
 ولك الكرامات التى ثبتت بغير مدافع
 ولك التصرف فى نوا حى مصر غير مدافع
 ما أم بابك مرتج إلا انثنى بمنافع
 أو ربّ مظلمة لجأ لندى حماك الواسع
 إلا انثنى والصريع لوه كبرى لامع
 يا ابن الأئمة من قريش يا رجاء الطامع
 يا صاحب العلم النفيد س لناظر ولسامع
 يا عمدة الإسلام يا رب المقال النافع
 مهدت دين سميك ال بهادى بحكم قاطع
 وأقت مذهبك المنيع ر لنا كبر ساطع
 شيدته بدلائل لسن الخصوم قواطع
 عطفاً على ضيف بأر ضك ذى جناح خاضع
 قد خصه ذا الدهر منه به بحاسد ومشايخ
 ومنافق ومشافق ومما ذق ومخادع
 ومبخل من حرصه مثل الذليل الخاضع
 يخشى على ديناره بل درهم من طامع
 يمشى وينظر فى الثرى فى هيئة المتواضع
 فلعله يحظى بفلا س من نحاس واقع
 وهى الغنيمة عنده ويقول نلت منافعى
 لما رأيتهمو حمى ما مثل ذئب جائع
 وليتهم ظهرى وجهك يا منيل مطامعى

- ٣١٦ -

أرجو رحباك وأنت أكرم ذى حبا للقانع
فأمدنى فضلا بغيت نوالك المتتابع
بحياة جدك ذى للمعالي والكلام الجامع
طه الرسول المجتبي مختار مولى سامع
صلى عليه وآله وصحبه والتابع
ما دام يعبد ربنا من ساجد أو راكم
أو قائم أو قاعد أو هاجد أو هاجع
فيما يؤرخ ناطقا متوسلا يا شافعي

وقال يمدح الوزير محمد سعيد باشا :

يا عين أعيان الصدارة يا أبا ال
يا شائدا رتباً سميت بفخاره
عن أن تنال بحيلة أو مقصد
نهيك بل نهى الوزارة إنها
ظفرت بمجموع الفضائل مفرد
باليث بأساً والحيا جوداً وضو
والقائل الفضل الذي يترى فيه
الطيب ولا إليه يهتدى

وقال عام ١١٧٢ وكان النيل قد أبطأ فيضانه ، ووقع الخوف في قلوب
الناس ، وارتفعت أسعار الحبوب ، وزادت بالفقير الكروب . ثم من الله
بالفرج ، فانكسرت المحتكرة الفجرة ، وتحكمت به الحسرة ، وزادت مياه
النيل ، وعم الخير الجزيل :

قد خزي الحُزَّان وانخذل الشيطان
ولطف الله بنا وأسعف الرحمن
وأرسل النيل الذي حل به الأمان
وانبسط نفوسنا وزاد الاطمئنان
وزال عن قلوبنا ال غناء يا فلان

فالحمد لله الذي عادته الإحسان
 فاشكر له فإنه له العلا والشان
 وقل لمن رام الغلا للناس يا قرنان
 جاء الرخاء فكل حكر قد عمه الهوان
 فيا مساكين أبشروا قد أخصب الزمان
 وقد أتى التاريخ في بيت هو الجمان
 يا حبذا نيل به لنا يفي الزمان

وكتب إلى السيد مرتضى الزبيدي :

الأعج بي لما فيه الرواج فحسن الشعر يفسده الزواج
 وخذ بي في حديث البيت واسمع مقالا فيه للفكر احتياج
 سمعنا أن في الدنيا فلسا ولكن دون مبلغها زجياج
 وقال القائلون هناك قبح تزق بها الحثائم والدجاج
 وأخبرنا المخبر أن شيئا يسمى القول تأكله النعاج
 وأهل الشرق قالوا ثم أرز يروق إذا أتى منه فجاج
 وأما قولهم يا صاح سمن فقول ماله عندي ابتهاج
 أمور كلها عندي محال وأقوال بها عندي انزعاج
 هب الدنيا قد امتلأت بهذا أليس لما بشيء منه حاج ؟
 فأكياس الفلوس مفلسات نموت ولا يكون لها انتفاج
 وأما القمع دع ذكره رأسا فذكره يضر بها المزاج
 وأما القول سل عنه حمارى فنه دواؤه وبه العلاج
 وأما الأرز نعرفه ولكن له عنا انحراف واعوجاج
 وأما السمن سمناه ودادا فقال وداد مثلكو خداج
 وأما البيت عنه لا تسلى قبومته لها دوما هياج

تحدث نفسها إن غاب عنها الـ
بأكلى أو حمارى أو قطاطى
أواعدها بأنى عن قريب
فتعجب من مقالى ذا وتدعو
فأنهاها وأسمعها حديثاً
فتكذب منطقى وتقول أرنى
فأسمعها اسم صالح المنفدى
هام للموالى والمعادى
غمام وابل بكر مديد
أحال على ذا الفضل الذى لو
وكاتبى وأمعن فى خطابى
ولم تقنعه واحدة فثنى
فيا مولاي عفوا من محب
وقل للندب صالح الأمير الـ
يصحف لى. بلوختى بدهن

غدا ومن الجوى زاد الضجاج
فأهرب خائفاً وبى اعتلاج
سأشبعها ويحصل الانفراج
على دهر به عدم الزواج
عن السكرماء فيه لها ابتهاج
فتى فيه لما فيه معاج
تقول ذكرت من للفضل تاج
لديه الاعتدال والاعوجاج
ندى كفيه ليس له ارتياج
تجسم بعضه ملئت خجاج
بحيم كم لها نحوى عياج
وأخشى أن يثلثه الهياج
له من تحت رايتك اندراج
ذى جلالة العليا سياج
فإن البيت ليس به سراج

وقال وقد أصيب ببعض الأمراض :

جنيت على نفسى جناية جاهل
طغت عندى الحما فحين صرفتها
فأخرجتها شيئاً فشيئاً ملاطفاً
فجاءتهما البيضا معاتبة على
فقات لها السوداء سيدنا أئى
ولكنه والحمد لله حفه الـ
وها نحن أبنا واصطلحنا وضاء فى
حق له أن يشكر الله دائماً

لظنى أن الجهل فيه سرورها
تمردت الصفرا وزاد شرورها
إلى أن خبت نيرانها وزفيرها
تعديهما جهلا وزاد نفورها
إلى نحو نار قد أتت يستثيرها
طيف بسرخف منه عسیرها
مطاويه من شمس العناية نورها
على نعمة فى الناس قل شكورها

وقال :

الليل حين يجيء يهتاج الأسي
يطوى وينشر والشجون تزيدني
يزداد طولا لا يقصر ثم لا
وإذا النهار أتى يمر كلحة

عندي ويدكو الشوق بين ضلوعي
وجدت فلست ألد طيب هجوعي
يوحي إلى ابن ذكائه بطلوع
وكأنه مستعجل لرجوع

وقال .

حتى م تصنع بي الخديعة
دعها فديتك فهي من
لا تتبع فعل اللئام

أو لست تعرفها فظيعة
أخلاق منعكس الطبيعة
وأولني حسن الصنعة

وقال :

قالوا يقال إذا ما كنت ذا شغف
هناك أربعة إن كنت تفعلها
اصبر على الجور منه لو أصابك في الله
وأن ترى كل لبس يرتدى حسنا
وإن دعاك لما لا تشبهه ولو
وإن شمت من الغادين راحة
إن الطريق إليه في الوصول له
واقنع فديتك بالإقبال والذ
واعلم يقينا بأن نلت المرام متى

بمن تحب وتهوى أن تنال مني
تزيده منك قربا دائما وهنا
حم والدم أسقام وفرط عنا
من الحرير أو الكتان أو خشنا
دخول نار لظى الحمام قل حسنا
من عرفه طر إليها منعشا بدنا
مريية فافتحها تلق ما حسنا
ظر البديع منه إلى الوجه المنير سنا
أباحك الحسن للمرغوب منه مني

وله من قصيدة في رثاء الشيخ عبد الله الشبراوي :

عين جودي بمدمع مسفوح
واندبى أوحده الزمان ونوحى

عين قلت له الدموع ولو كا
عين عزت أوصافه الغر عدا
عين إن سحت الدموع وشحت
عين ضاقت مسالك الصبر عمن
لهف نفسى عليه لهف محب
وعزیز على والله يا صا
لكن الدهر ذو عناد فما ين
نت مثل طوفان نوح
فطفقنا نوى إليه ونوحى
من دماء مهجتي استعيرى وسيحى
كان يلتقى الورى بصدر فسيح
أتمنى فداءه ولو بروحى
ح رثائى إياه بعد مديحى
فك يرى الأحباب بالتبريح

٤ - عبد الله الشبراوى

قال فى عرس بعض الأشراف سنة ١١٢٣ :

أبدا تحن إليكمو الأرواح
يا سادة لولا هو ملاح فى
ما الفضل إلا ما رأيت بحيكم
نطق الكتاب بمجدكم وبفضلكم
وتواترت أخبار مجد عنكمو
يا أيها القوم الذين تشرفت
من ذا يفاخركم وأنتم عصابة
وحاكمو حرم النجاة وحيكم
وإليكمو كل الفضائل تنتمى
يكفيكمو يا آل طه مفخر
الله خصكمو بأشرف رتبة
أنا لأحول وحقكم عن حيكم
وإذا ترنمت الأنام بذكركم
ولكم غدو فى العلا ورواح
أفق المسكارم للفلاح صباح
وعليكمو من نوره مصباح
وأنت أحاديث بذاك صباح
يزهو بها الإمساء والإصباح
بهمو بقاع فى العلا وبطاح
قرشية وشذاكمو فياح
للقاصدين وللعفاة صباح
وعلى يديكم يفتح الفتاح
أن العلا عقد لكم ووشاح
العجز عن إدراكها إفصاح
كتم العواذل قولهم أو باحوا
فلسان شكرى بالثنا صباح

لما نصبتم للسرور أسرة
وأقتمو عرسا يضيء كأنما
أرخته أبدا بمهد حماكمو
٨ ٨١ ١٠٩
٤٣ ١٥٠ ٤١١ ٣٢١ = ١١٢٣

ما إن يلام نحبكم في حبكم
لازلمو أهل المكارم والتقى
طبتم وطاب جنابكم فلاجل ذا
وقال تسلية لبعض الأشراف في حادث نزل به :

يا ابن الأماجد لا تخش الردى أبدا
ولا يهولنك من أعداك ما فعلوا
أما ترى جدك المختار كان له
أنت ابن سبطرسول الله كيف ترى
والمجد مجدك يا ابن الأكرمين فن
أبشر بعمر مديد لا يكدره
فكم لأسلافك الأجداد من مدد
وكم يد لك بالمعروف قد عرفت
وكم لكم يا بنى الزهراء من شرف
مكارم قدر المولى الكريم بها
يا أحمد العصر طب نفسا فإنك من
الله شرفكم قدما وطهركم
من ذا يفاخركم أو من يشابهكم
الله أعطاكمو يا آل فاطمة
أنتم ملوك على كل الورى ولكم
هذا لسانى قصير عن مديحكمو
وكيف أمدحكم والله يمدحكم
لكن غاية أمرى أنى رجل

وحق جدك ما هذا للمقام سدى
كم سيد أبغضته قومه حسدا
من قومه حسد يؤذونه وعدا
ضيا وربك قد أعطى لك المددا
ينكر علاك عنادا فليمت كمدا
سوء ودهر سعيد ليس فيه ردى
غدا يقصر عن شأواه كل مدى
وكم فخار كضوء الفرقدين بدا
عال به الله فى القرآن قد شهدا
لكم فأنتم بها صرتم بحور ندى
قوم إذا وصفوا كانوا هم السعدا
وخصكم يا بنى الزهرا بكل هدى
ومدحكم فى كتاب الله قد وردا
فضيلة فى العلا لم يعطها أحدا
يا آل طه لواء المجد قد عقدنا
لا أستطيع إليه أن أمد يدا
مدحا مدى الدهر يتلى ذكره أبدا
بحب آل النبي أرجو النجاة غدا
(م ٢١ — الآداب المصنوعة)

وقال معاتباً أحد أصدقائه :

أيها الخُل قد صَحبتك دهرًا
وألفنا من طبعك اللطف والظُر
وعلمناك أطهر الناس ذيلًا
ولقد طالما اختبرناك حلما
لا لعجز وخفض قدر ولكن
ما ظنناك أيها الخُل من قب
وعلى كل حال أنت والله
حاشى لله أن نحول عن العم
فعلام الإعراض عني وإني
لا تسىء بي ظنا فإنا أنا ممن
وإذا ما سمعت عني ذنبًا
وعلى فرض أنني فيك أذنب
إنما الحر من تجاوز عن هف
هذه خلة الأخلاء قدما
إن تحقق رجاي فيك فأهلا
وإن ازددت في الصدود وفي الهج
وودادى الذى عهدت وودادى
لا تغرنك الوشاة ففيهم
وإذا ما أضعت شعري فإني

وبلونا حلاك سرا وجهرا
ف وطيب الأخلاق طيا ونشرا
ثم أيضا لازلت تزداد طهرا
فرأيناك أحلم الناس صدرا
أحلم الناس أرفع الناس قدرا
ل علينا بما جرى تتجرا
ه بما عندنا من الحب أدري
د ونأق شيئا من الغدر نكرا
لم أجد عنك بعد بعدك صبرا
يظهر الود ثم يضر غدرا
فالتمس لى عن ذلك الذنب عذرا
ت فإني لديك آمل سترا
وة من كان فى المودة حرا
لا رأيتك العينان منها معرى
أنت والله بالمكارم أجرى
رفوا الله لا أحاول هجرا
لم أحل عنه قطشيرا ودهرا
عن قريب سيحدث الله أمر
عند كسرى أرجو من الله جبرا

وقال عند زيارته للسيد أحمد البدوى :

ياقلب أبشر زالت الأقدار
هذا المقام وهذه الأنوار
نارت به الأعصار والأمصار
هذا مقام أبي الثامين الذى
هذا مقام القطب سلطان الورى
كف العفاة الصارم البتار

هذا أبو الفرجات هذا المنتقى من نسل من لانت له الأحجار
 هذا أبو فرجات البدوي كم قضيت به لمحبه أوطار
 بطل إذا ماجاه ذو كربة ودعاه عاد وعنده استبشار
 كم من أسير أثقلته قيوده وسطت عليه بشؤمها الكفار
 ضاقت عليه الأرض حتى ماله من ذلك الكرب الشديد فرار
 ناداك يا بدوي أنقذني فقد ضاقت بي الآفاق والأقطار
 فأغثته وأعدته لدياره من بعد ما بعدت عليه الدار
 كم معسروا فاك يلتبس الغنى كرما فعاد وما به إحصار
 وكم امرئ عسقت له الحسنى فذ لاحظته كشفت له الأستار
 ياسيدي لهماك نور ساطع وعلى مقامك هيبة ووقار
 ولزائريك جمالة وجلالة ولهم على كل الأنام فخار
 ماجئت حيك للزيارة مرة إلا ولاحت منك لى أسرار
 واليوم جئتك أرتجيك لكربة

عظمت وكنفك بالعطا مدرار
 يا عهدي وذخيرتي ووسيلتي ياسيدا أسلافه أختيار
 ياسيد الأقطاب يا من جده طه البشير المصطفى المختار
 صلى عليه الله رب العرش ما لاحت شمس أو بدت أقمار
 والآل والأصحاب أعلام الهدى ماجن ليل أو تلاه نهار

وقال متوسلا بالنبي صلى الله عليه وسلم :

عج بالعقيق وقف بذات الأجرع وأنخ مطيك بالعذيب وللعج
 وانزل منى فهناك قد بلغ المنى قوم وفازوا بالمقام الأرفع
 وتمل بالبيت الحرام ومل إلى وادى الخزام ونشره المتضوع
 ثم انمطف نحو الأبيرق والنقا ودع التواني في السرى وتشجع
 واقصد أخالأشواق منعطف اللوى فوق الغوير وتحت بانة ينبع

حث المطى أخا الغرام هنيئة ومر المطى يطبن نفسا بالسرى
 يا حادى الأظعان خل زمامها أو اه لو تدرى المطايا قدرما
 لسعت على أحداقها وثنت ذوى يائها الخل المشوق ترفقا—
 وتجلدا عند اللقافكم امرئ وإذا وصلت إلى معاهد طيبة
 وتظاهرت أعلام هاتيك الربى فادخل لذى الجاه الرفيع وكن على
 واغنم سويغات هناك سعيدة واستقبل القبر الشريف وناده
 يامن له الجاه العريض ومن به هذا مقام المستعين المستجير
 الخائف الوجل الذى قد ضيع الـ واطلب نهاية ما تريد ولا تخف
 واذكر هناك تشوقى وتشوفى واسأل أهيل الحى عن قابى فذ
 وأقم لى الأعذار فى التأخير عن نزه أخا الأشواق طرفك ساعة
 فهنالك تمتلىء القلوب مسرة وأعد حديثك للعذيب وبارق
 تلك الديار فأين يوجد مثلها حيث النبوة والرسالة والهدى
 واصبر على حر الوطيس البلقع ويسرن بين مردد ومرجع
 ترد المياه كما تشاء وترعى ظفرت به من بعد ذاك المهييع
 أعناقها وطوت حنايا الأضلع بك إن بدا لك نور ذاك الموضع
 من شوقه لما رآه لم يع والناس بين مسلم ومودع
 وبدا لعينك نور تلك الأربع حذر وسل بتأدب وتضرع
 ما بين منبره وذاك المضجع يامن يؤمل للسكروب إذا دعى
 يبرا للمريض من السقام المفظع المذنب المتأوه المتوجع
 أوقات فى تحصيل ما لم ينفع مللا وأكثر فى المنى وتوسع
 وتلهى وتولعى وتوجعى فارقت طيبة لم أجد قلبى معى
 هذا المقام المبهج المتضوع فيما هنالك وابتهج وتمتع
 وتزول من ذى العى شدة كل عى وابك الديار وأجر سحب الأدمع
 طيبا وأى علا لها لم يرجع ولوامع الفضل الأعز الأمتع

مر الوجود وقطب دائرة الشهو د وذو اللوا المعقود يوم المفزع
أزكى الوري وأجل من وطىء الثرى

قدرا وأكرم شافع ومشفع

وقال متشوقاً إلى مصر ونيلها في بعض أسفاره ، ومادحا آل البيت :
أعد ذكر مصر إن قلبي مولع بمصر ومن لي أن ترى مقتل مصر
وكرر على سمعي أحاديث نيلها فقد ردت الأمواج سائله نهرا
بلادها مد السباح جناحه وأظهر فيها المجد آيته الكبرى
رويدا إذا حدثتني عن ربوعها فتطويل أخبار الهوى لذة أخرى
إذا صاح شجور على غصن بانه تذكرت فيها اللخظ والصعدة السمرا
عسى نحوها يلوى الزمان مطيتي وأشهد بعد الكسر من نيلها جبرا
لقد كان لي فيها معاهد لذة تقضت وأبقت بعدها أنفسا حسرى
أحن إلى تلك المعاهد كلما يجدد لي مر النسيم بها ذكرا
أما والقذود للمناسبات بسفحها وألحاظ غادات قد امتلأت سحرا
وما في رباه من قوام مهيف علا وغلا عن أن يباع وأن يشرى
لئن عاد لي ذاك السرور بأرضها وقرت بمن أهواه مقتل العبرى
لأعتنقن اللهو في عرساتها وأسجد في محراب لبتها شكرا
رعى الله مرعاها وحيها رياضها وصب على أرجائها المزن والقطرا
منازل فيها للقلوب منازة فله ما أحلى ولله ما أمرا
يذكرني ريح الصبا لذة الصبا بروضتها الغنا وقد تنفع الذكرى
على نيلها شوقاً أصب مدا معى وأصبو إلى غدران روضتها الغرا
كساها مديد النيل ثوباً معصفا وألبسها من بعده حلة خضرا
وصافح أغصان الرياض فأصبحت تمد له كفاً وتهدي له زهراً
وأودع في أجفان منزلاتها نسيما إذا وافاه ذو علة يبرا
إذا حذرتني بلدة عن تشوق إلى نيل مصر كان تحذيرها إغرا
وإن حدثوني عن فرات ودجلة وجدت حديث النيل أحلى إذا مرا

سأعرض عن ذكر البلاد وأهلها
وكم لي إلى مجرى الخليج التفاتة
جداول كالحيات يلتف بعضها
وكم قلت للقلب الولوع بذكرها
أما والهوى العذرى والعصبة التي
لئن كنت مشغولاً بمصر فليس لي
أجل بني الدنيا وأشرف أهلها
هو القوم إن قابلت نور وجوههم
وإن سمعت أذنك حسن صنعهم
لهم أوجه نور النبوة زانها
هو النعمة العظمى لأمة جدهم
إذا فاخرتهم عصبة قرشية
ملوك على التحقيق ليس لغيرهم
وأروى بماء النيل مهجتي الحرا
يسيل بها دمي على ذلك المجرى
ولست ترى بظنا ولست ترى ظهرا
تصبر فقال القلب لم أستطع صبرا
أقام لها العشاق في فئهم عذرا
بها حاجة الإلقاء بني الزهرا
وأنداهمو كفاً وأعلامهم قدرا
رأيت وجوهاً تخجل الشمس والبدر
وجئت حمام صدق الخبر الخبر
بلطف سرى فيهم فسبحان من أسرى
فيا فوز من كانوا له في غد ذخرا
فجدهم المختار حسبهمو فخرا
سوى الاسم وانظرهم تجدهم به أخرى

٥ الصلاحى

قال يمدح شيخه شمس الدين الحنفى :

مل بي فقد وقد الهجير
وأرح مطيك يا سمير
هذا الحمى فارصد إذا
واطرق كناس الغيد حيه
وأط ستائر فذلك
واسأل من الطبيات عن
واحفظ فؤادك أن تصيب
من كل غانية يلو
تختال في مرح الشبا
إلى بظلك مستجير
فلقد أضر بها المسير
ما استأنس الطي النفور
ث ينام راعيه الغيور
حين تنفتح الخدور
عهد تفضن به الصدور
عيونهن فهن حور
ح بوجهها القمر المنير
ب فيخجل الغصن النضير

تسعى فتقعدها روا
سكرى رأت كسر القلو
فعلت بسحر جفونها
خشت معاطف قدها
الله أكبر من نشا
يا صاح إن جزت الخيا
قل للبخيلة بالزيا
لم أنس إذ وافى البشير
إذ أقبلت ريح القبو
فضممتها وبهجتي
فتعوذت بالروض من
روض تعلق بالبحر
تبدو به زهر الزهور
ضحكك ثغور زهوره
وحت نواعره وحت
ذكرت قديم عهودها
يا طيب أنفاس الربيع
والجو بحجرة علي
وافت به رود بأس
وسعت على طرق الجدا
وطروس قائمتها علي
يا طيب ما تلى الشعو
ما ذاك إلا فرع ليد
والورق ساجعة لها

دفعها وتنفضها الخصور
ب فصار ناظرها الكسير
ماليس تفعله الحصور
لكن لواحظها ذكور
ط جفونها وبها فتور
م وللظباء بها ظهور
رة ما لطيفك لا يزور
يلوح في فمه السرور
ل بها وأدبرت الدبور
من حر أشواقى سمير
شر بأنفاسى يطير
رة من جوانبه نهور
ر لأنه فلك يدور
فبكى لها النوء المطير
وهى من غيظ تقور
فأنهل مدمعها النмир
ع ففى تنفسها عبير
ها من ضبابتها بخور
رارى لها طرف خبير
ول والنسيم لها سفير
ها من ضفائرها سطور
ر وحس ما نقل الغدير
ل قد تبلج فيه نور
من كل ناحية سمير

عجاء تعرب عن ضما
والريح تعتنق الغصو
وبدت شموس الراح تم
فقضيت منها ما قضيت
هذا كلامي الحلو أهد
وضممتها عند الودا
وبكت عيون السج
نحنا معا فتحت ال
وسرت وقد لاقية
صبرى وما لاقيت إذ
رعيا لدياك الحمى
ولمهد حصباؤه
قد لج بالقلب الغرو
ومرور أيام الصبا
أنى يروح العمر وال
كم أنجد السارى وكم
من لى بدهر لا يسا
أرجو انتصافا من زما
وحوادث قد آن فى
لكن بجاه إمام هذا ال
مولى ترفع قدره
ملا النواظر منه إجم
وحماه ينفك الأسير
وندى أياديه شهيد

رنا وليس لها ضمير
ن بها فتعتبق الزهور
ملها الكواكب والبدور
ت وكان لى ولها أمور
ته إلى فى الثغور
ع وكل أنفاسى زفير
بحين تساقط الدمع الغزير
أغصان منا والنحور
ت منها ما يطيش له الصبور
رضيت به كل يسير
والطرف مبتهج قرير
درر وتربته ذرور
ر وذلك الطرف الغرير
من دونها العيش المرير
أيام تنهب والشهور
تهم الهموم به ثغور
عد فاليسير به عسير
ن صار عادله يجور
كبدى لأسهمها خطوط
عصر لى فيها نصير
فله أنا ملنا تشير
اللا وليس له نظير
ر به ويستغنى الفقير
ر والقليل به كثير

— ٣٢٩ —

منن تذلل لها الرقا ب ولا يقوم بها الشكور
يامن به تهدي السرا ة لأنه علم منير
طالت لخدمتك القوا في والزمان بها قصير
وجرت لنحو جمالك آ مالى وأنت بها جدير
وقصور مدحك ليس في فهمى لرفعها قصور
خذها على شرف الصيا رف إن ناقدها بصير

وقال :

استقنا من يديك قهوة بن وأدرها ممزوجة برضابك
لا تحسكم سوى كئوسك فينا أنت كفء ونحن من خطابك

وقال :

بالأشرفية شادن ظي الكناس له الفدا
يهدي السراة جبينه جبينه صبح الهدى
في عطفه هيف الصبا وبايظه سبل الردى
لولا الحياء وما أرا قب من مراقبة العدا
لتساقطت بخدوده قبلى مسافطة الندى

٦ - شبانة المتوفى سنة ١٢٠٠

ترجم له الجبرتى فقال :

هو الفاضل النبيه ، اللوذعى الذكى ، المقوم الناظم الماثر ، الشاعر اللبيب
الشيخ محمد المعروف بشبانة . كان من نواذر الوقت . اشتغل بالمعقول ،
وحضر على أشياخ العصر فأعجب . ونظم الشعر وأجاد القوافى ، وداعب
أهل عصره من الشعراء ، واشتهر بينهم وأذعنوا لفضله . إلا أن سليقته في
الهجو أجود منه في المدح .

ومن قوله يهجو السيد طه البطي :

يا سيد الآراء حاشا لنجد	أنت فيه من أهل الناس يسلم
إب طه في ثوب لثوم ومنه	بكنار الخسران قبجا تعمم
فلهذا يقول من قصد رآه	ربنا اصرف عنا عذاب جهنم
يا أدبيا كالعير يحمل كتبنا	من سبيل وقف ودشت مخرم
قد أبدت الموقوف شطباً ومحواً	فلهذا يا شاطب الوقف ترجم
والذي قد سطا بنظم الأهاجي	عرضه بالقبيح والذم يشتم
لكن العفو عن ذنوبك أولى	ولعين إلف تقال وتسكرم

وقال من قصيدة في مدح شيخ السادات محمد أبي الأنوار :

الأوحد المولى الذى بنواله	الغيث فى خجل يذم - غمامه
مجد الأئمة والأماجد كلهم	من شك فى ذا حجة إسلامه
ومن انثنى أوزاغ عن ساداتنا	يكفيه من داعى الهدى إرغامه
أينما على والخبير بمدحهم	فى محكم التنزيل دل كلامه
هم صفوة الله التى فى نوعنا	زهر بنفج الطيب ساد ثمامه
ونتيجة السادات درة عقدهم	ومجد بدء له وختامه
شمس بها أفق السعادة أشرقت	والكون طرا قد أزيل ظلامه
هو فارس التوحيد حامى حصنه	من مشرك باغ يزيد خصامه
بأدلة التوحيد يقطع رأيه	وعاينه مغلوباً تعود سهامه
عذرى ومثلى فى مديحك قاصر	طفل صغير ما عداه فظامه
قد أعجز البلغاء كنه مديحك	والشعر ما وفى وحار هامه
لكننى أرجو بمدحى دعوة	من تشرف بالحديث لثامه
أأخاف دهرًا قد أساء عشيرتى	ومحمد قد عمهم إنعامه ؟
يا كعبة السادات ناظم عقدها	عبد إليكم والثناء غلامه
شيخ مسن كاد يقضى نحيبه	لعناد دهر ساءه أوهامه

بمحمد يدعى ونجل شبانة
مولاي شهر الصوم سافر شاكرآ
ومنازل الأشراف منها رحلة
وهلال عيد الفطر قال محمد
وبقيع مكة كان فيه حمامه
يثنى عليكم للغفور قيامه
حملت عليه للمسير خيامه
منه استعرت البدر وهو تمامه

وقال يمدحه :

العالم . الحبر الهام أبو الهدى
شمس الشريعة والعلاء محمد
مولى إذا نزل الأفاضل عنده
شرف على لا يقاس علاؤه
مجد له فوق الثريا رفعة
فختام عقيد المجد من ساداتنا
مولاي بشرى العيد بهجة ذاتكم
تحيا إلى أمثاله فى نعمة
للحق والتقريب للخلاق
من ساد بالخطوى من الرزاق
ظفروا بأخذ العهد والميثاق
بعلاء مولى ساد فى الآفاق
وأساسه متأصل الأعماق
قطب له الله المهيمن واثق
بدر الكمال بدا بغير عحاق
ممزوجة بمكارم الأخلاق

وقال يمدحه :

لبنى الوفا فى السكون أعلى رتبة
ورثوا السيادة عن على جدكم
هذا هو النسب الذى يعلو على
كالشمس فى أفق السماء ونورها
نرجو ونأمل فى المعاد شفاعته
فهمو الخيار بنو الخيار وجدكم
من جاءهم يرجو الأمان بجاههم
لوجودهم فى مضر أوفى نعمة
من مثلهم والعلم ميراث لهم
بعد النبى وصحبه الأخيار
باب المدينة قاتل الكفار
كيوان والبدر المنير السارى
نفع الأنام وبهجة الأبصار
منهم وغوثا من عذاب النار
فخر العلاء وأصل كل فخر
سامت عقيدته من الأوزار
عمت على البلدان والأمصار
كالجد حيدرة الرضى الكرار

٧ - الصبيان

قال يمدح شيخ السادات :

بعبير شرك تعبق الأقطار . وبين نور وجهك تشرق الأمصار
وبيمين طلعتك السعيدة طالماً يصفو الزمان وترحل الأكدار
وبجود راحتك الشريفة أخصبت للعالمين منازل وديار
وإلى حى حرم سما بك مجلس تسعى العفاة وتهرع الزوار
وبذكر مالك من علا ومناقب تحدوا الحداة وتسجع الأطيار
يادرة الدنيا وغرة وجهها ومنار أهلها إذا ما احتاروا
يا قطب دائرة الوجود وعارفا بشذا تقاه تهبط الأسرار
ياروض أزهار العلوم وجهها سجدت لتحقيقاته الأحبار
يا شمس أفلاك السكالك وسيدا دانت له الأبرار والفجار
يهنيك ما أولاك ربك من علا دهشت لبعض صغارها الأفكار
قد أفرغ المولى عليك مواهباً لا عد يحصيها ولا معيار
وعلى بنى العصر اصطفاك لرتبة تركت قلوب عدك فيها النار
سبحان من يعطى بلا حصر ومن يختص بالأسرار من يختار
وله المحامد حيث أسعدنا بمن شرفت به الأنجاد والأغوار
السيد السند الهام المجتبي صدر الصدور المنتقى المختار
الجوهر الفرد الذى لم تشتمل أبدا على أمثاله الأعصار
العروة الوثقى لمعتصم به الآية الكبرى لمن يختار
تاج الأمائل عين أعيان الورى غيث السحابة سيها للدرار
كنز الحقيقة بيتها المعمور من بجلا له تستنزل الأمطار
ملك له أهل للعالي دولة وإليه فيهم بالبنان يشار
وأغر تقصده العفاة فتتننى والكل حماد له شكار

ومجد سيرا لطيب سرائر
 وابن الكرام الشم من آل الوفا
 كناه مولاه أبا الأنوار إذ
 ما جاء ليل الخطب لإلارده
 تتروح الأرواح إن ذكر اسمه
 وإذا تقاعدت الجماء وجدته
 لا عيب فيه سوى قلاه لماله
 لمكارم الأخلاق أحياء بعد ما
 أنسى أناس المصير ذكرى حاتم
 فبحار جود سواه قطر عنده
 هو للأحبة رحمة وعلى العدى
 لمحبه منه ندى وكرامة
 ولاه مولاه خلافة آله
 وأعزها منه تقي ومعارف
 بعلاه آمناء فمن يؤمن ينسل
 ورث المفاخر سيدا عن سيد
 أصل العلاف فرع الألى سبقوا إلى
 الثائبون المابدون الحامدو
 أهل الحقائق والدقائق والرفا
 القادة الأيجاد من جداهم
 قوم همو بركات مصروروحها
 وهمو ملاذ أناسها ومعاذهم
 بحاهموارم الخطب عنك فإنما
 فهمو الجماءة لمحم ولنتم

فى الحافقين سمت له أذكار
 أبناء من سجدت له الأشجار
 من نوره تتولد الأنوار
 من ذلك الوجه المضى نهار
 وإذا تجلى تنجلي الأبصار
 نعم للغيث وحبذا النصار
 كرما فليس له لديه قرار
 أخنى عليها دهرنا الغدار
 ينسى الغدير إذا ترى الأنهار
 والقطر منه لدى سواه بحار
 أسد الإله وسيفه البثار
 ولمن يعاديه ردى وصغار
 فنما به شرف لها وفخار
 ومكارم وسكينة ووقار
 عدنا ونار لظى لها الكفار
 قد طاب منه محمّد ونجار
 قصب السباق السادة الأطهار
 ن السائحون السكل الأبرار
 ثق من بهم تتشرف الأعصار
 المصطفى وعلى السكرار
 وهمو بأوج سمائها أقرار
 وهمو حماة القطر والأنصار
 لاخطب آل المصطفى الأخيار
 وهمو السكاة إذا الأعادى جاروا

وهو الشموس ومن سواهم ظلمة
والجحد فيهم ملكهم وإذا ترى
والناس بالرتب العلية فخرهم
منح من الوهاب عز مقامها
ماذا يقول المادحون وفضلهم
الله في القرآن أذهب عنهم
وودادهم فرض وجههم به
بمدحهم يكسى القصيد بحاسنا
إلى بهم وبجندهم متوسل
لرحابهم فرعى إذا خطب دهي
وهو يعني إن بطشت بصائل
وبجهم أرجو النجاة غدا إذا
عج بالمطى على حمى حرم لهم
عرج على سفح المقطم نحوهم
هو كعبة طافت به أهل النهى
هو جنة مما يخاف وجنة
هوروض أنس باسم الأزهار قد
هو للمواهب والمناصب موطن
هو مورد يشفى الغليل ومنهل
هو حانة قدسية الصهباء قد
الله أكبر ما أجل رحابهم
وموالدا لهمو زهت بمجالس
يا حسنهن موالدا ومجالسا
يا حسنهن موارد ومواكبا
وهو الملوك وغيرهم أنفار
في غيرهم مجدا فذاك معار
ولها بأبناء الرسول نثار
ومواهب ما إن لها إنكار
نطقت به الآيات والأخبار
رجسا وطهرهم فهم أطهار
تمحى الذنوب وتغفر الأوزار
وبذكرهم تزين الأشعار
الله وهو الماجد الغفار
ولبابهم قرعى إذا احتار
وهو يسارى إن عرا إعسار
طاشت لهول الموقف الأفكار
من حله ما مسه إضرار
تر مشهدا سطعت به الأنوار
وسعت ^{بها} إليها بالصفاء الزوار
تجنى بها للوافد الأثمار
أروته من ديم الرضا أمطار
هو للأمان والأمانى دار
ما شاب صفو زلاله أكدار
حظيت برشف كسوسها الأبرار
وفدافدا لهمو بهن مزار
عذبت بها الأوراد والأذكار
تكسى بها حلل الرضا الحضار
ومواسما تجنى بها الأسرار

تجلى بواردها عرائس أنسهم
 فسلم عشاق الفلاح الحضرة
 وعلى العيون اسعوا إليها فهي من
 وقفوا لديهم خاضعين تشاهدوا
 وتوسلوا بهمو بخير ابن وخيد
 بجلى حقائقهم ومظهر سرهم
 يا دانيا لرحابه أبشر فقد
 أنفخ المطى ببابه واعكف على
 وادخل حماه ومرغن بتربه
 واشهد هناك فوائجا قدسية
 وارتح وطب واربح بأرض قدست
 ربحت تجارة مادح علياءه
 طب واهن بالرتب التى أوتيتها
 طب واهن بالشيم التى بمدحها
 طب واهن بالمدح التى فيها حلت
 طب واهن بالمجد الأثيل ورفعته
 يا حسدا زعموا استواءهمو به
 كفوا تقولكم فليس بواصل
 لا تطمعوا أن تدركوا شأوا له
 إن غر بعضا أنه من آله
 يا صفوة الرحمن من أقرانه
 هذا صديق مخلص لك وده
 هذا حبيب منتم لك فى الورى
 إني بمجديك أستجير من الجفا

وعليه أقداح السرور تدار
 فى القرب منها تنفق الأعمار
 أجدى وأجدر ما إليه يسار
 لا تستوى بالرؤية الأخبار
 من خليفة جادت به الأقدار
 من قدموه لشأنهم واختاروا
 قربت لك الأوطان والأوطار
 أعتابه فبه يعز الجار
 وجها فذلك إن عقلت فجار
 ولوائجا رقصت لها الحضار
 بذلت عليها الأنفس التجار
 وسواه عندى المدح فيه جبار
 عن بعضها أيدى الحسود قصار
 يتشرف النظام والنثار
 مدح ولد البسط والإكثار
 قرت بها لأحبة أبصار
 هل تستوى الظلمات والأنوار
 لليت من نبج الكلاب ضار
 قد شط عنكم يا عداة مزار
 ما كل ماحوت الرياض ثمار
 يا من له نعم على غزار
 قد طابق الإسرار منه جهار
 عرفت بذاك أكابر وصغار
 والمستجير بمثل ذاك يجار

عودتني الإقبال أجمعه فلا
وعوائد السادات سادات العوا
لئن اقتضى الإدبار تقصيري فجو
أو جاء كذاب إليك بفرية
إن مسنى ضيم ولى بك علقه
فاعطف وجد واخلم على من الرضا
يا ابن النبي وسيد السادات يا
خذها إليك قريدة فى فنها
يصبو الأديب لها ويضطرب عندها
طالت ولكن بالبدائع طولها
جاءتك . سابلة قناع حياؤها
لكنها ترجو القبول لعلمها
فاقبل وأقبل وارض وارع فذا المني
لازلت محفوظ الجناح محصنا
يارب أقرر عينه بان له
وامحق جميع عداه حتى لا يرى
بنينا المختار أشرف مرسل
أو هز أغصان الربا مر الصبا
والآل والأصحاب والأتباع ما
أو صبك الصبان قال مؤرخا

تخلف فأت ابن الوفا المختار
تد هكذا قد قالت الأخبار
دك مانع ينفي به الإدبار
فعليه حسبي الواحد القهار
فوحق جاهك إن ذلك عار
حللا بها تنكى العدا الأشرار
من طرزت بمديحه الأسفار
من حسنها الدر النضير يغار
فكأنها صرف المدام يدار
فلذاك لا ملل ولا إضجار
ولها بفرط قصورها إقرار
أن الكريم مسامح غفار
لا درهم عندي ولا دينار
من شر ما تجرى به الأقدار
يبقى لكى تبقى به الآثار
منهم على وجه الثرى ديار
وأجل من شدت له الأكوار
أو غردت فى أيكها الأطيار
مزن بكت فتبسمت أزهار
نجل الوفا فاحت به الأسرار

٨ - قاسم بن عطاء الله

قال من مزدوجة طويلة يمدح الأمير كتخدا رضوان :

بكرت يوما والهووى مطيعى أرض الربى فى زمن الربيع

إذا بها فى زخرف بديع تزهو بثوب سندس وسيع
فى حسن وصفها استمع ما أبدى

بكت بدمع الطل عين النرجس فأضحكت ثغرا لأفاح الألس
والورد يزهو باحمرار الملبس مفتتحة أطواقه فى المجلس

قد أرج الروض بنشر الند

روض به ماء الحياة جارى خضر النبات منه بالجوارى
فيه خيال الورد باحمرار يرى له فى المساء زند وارى

وعجب فى الماء قدح الزند

حديقة بها السرور محقق جدولها مسلسل منطلق
فى جوها نجم الزهور مشرق وبانها طورا يميل ويسرق

من وجنة الماء احمرار الورد

أما ترى الدر بدا للحدق كال تيجان رءوس الورق
وقد حكها النهر بظل الزئبق خد السماء مورد بالشفق

كلاهما بالورد زاهى اتخذ

لما حكى الغدير للسماء لاح به السماء فى ضياء
من فوقه صارت يد الهواء تنسج للصيد شباك الماء

بدقة لم تستطعها الأيدى

شباك در أو لجين تنسج لجوهر الألباب فيها فرج
بها شعاع الشمس حين يهبج بعسجد ترى اللجين يمزج

ليخطف الأَبصار عند النقْد

نجايب السحب بجند الودق أرسلها الغرب لحرب الشرق
(م ٢٢ — الآدب المصرى)

لنحوه تراست بالسبق وكلما سلت سيوف البرق

يصهل في القلك جواد الرعد

وحوصرت شمس الضحى بالآفق بعسكر سد جميع الطرق

وبالدا غط قميص الشفق وانفلقت هام الدجى بالفلق

ومنه سد كسرها ببند

وابتهج الشرق على الظلماء بالصبح صاحب اليد البيضاء

أخرجها من حلة الدجاء من غير سوء قد بدت للرأى

لحو آية الدجى المسود

وقد بدا الصبح وللجو صعد وأصبحت قضب الرياض في ميد

ممثلثات البرد من در البرد وكل يابس غدا رطب الجسد

وفتحت عين الزهور الرمد

باكر صبح روضة الزهور فأبرك الأشياء في البكور

ورد على اللذات والسرور وأترك هوى وساوس الصدور

فنهل اللذات عذب المورد

ما أحسن الصبح في الصباح والسكر في روض الربى يا صاح

على خدود الورد والتفاح والريح تدنى مبسم الأقاح

لثم هاتيك الخدود الورد

والورق مذغت على العيدان بلين قد ماس غضن البان

والآس فوق وجنة النعمان من ذا رأى الجنة في النيران

عجبت للتأليف بين الضد

وانظر إلى تلهب الشقيق غيظا على نيلوفر غريق

— ٣٣٩ —

يومي لبنت الكرم بالتعنيق ومل إلى الرمان بالتحقيق
تراه في صدر الربى كأنه

أكرم ببنت الكرم والدوالي من الهموم غرسها دوالي
بها يطوف مخجل الغزال كالشمس تجلي في يد الهلال
بكأسها في أفق حان السعد

لله مأبى وما أسناها في كأسها كالشمس في مزارها
يسعى بها البدر وقد أدناها من شفتيه للعس ما أحلاها
إذ مزجت من ريقه بالشهد

شعاعها سطا على الندمان ساوى شجاع العقل بالجبان
ومالت الجراء في الميدان بين صفوف صحبة القنان
كأنها من الدما في برد

مليسة لطيفة المزاج تحتال في برد من الديباج
على جواد أشهب الرجاء بهجة احمرارها الوهاج
تلكى خدود قاتلى بالصد

لا تنكروا بعد الحيا جنوني تهتكى من ذلك المصون
وحدثوا إن تصفوا شجوتي به عن البحر وعن عيوني
بدمعها لم تطف نار وجدى

أبجته قلبي وجفنى سكنا لما أرانى منه وجهها حسنا
وطرفه الساحر لما أن رنا بسحره كليم قلبي فتنا
ولم يجد عن طوعه من بد

جاء الربيع والزمان اعتدلا وألبس الفصن من الزهر حلا
والطير ضمنت غناها مثلا إنشادها مولى لقد حاز العلا
للكتخدا رضوان رب الحمد

أمير مجد أوجد الزمان يفوق معنا كمال المعانى

لَوْ شَامَ بَرْقَ سَيْفِهِ الْيَمَانِي عُنْتَرُ فِي أَلْفٍ مِنَ الشَّجَعَانِ
قَالَ اللَّقَافُ فِي الْحَشْرِ يَا ابْنَ وَدَى

تَرَاهُ لِلْأَحْبَابِ فَاقَ الْوَالِدَا وَلِلْعَدَا مَجْ—ادَلَا مَجَالِدَا
أَرْجُوهُ يَحْيَا فِي السَّرُورِ خَالِدَا فِي الْجُودِ أَغْنَى طَارِفَا وَتَالِدَا
وَكُلٌّ مَنَسُوبٌ لَهُ فِي الْوَدِ

وَقَالَ يَمْدَحُ شَيْخُ السَّادَاتِ :

لَأَلِّ الْوَفَا كُلَّ الْفَضَائِلِ تَنْسَبُ هُمْ لَيْسَ إِلَّا مِنْهُمْو الْفَضْلُ يَكْسِبُ
مُلُوكُ الْبَرَايَا مِنْهُمْو الْجُودُ تَرْتَجِي وَمِنْ جُودِهِمْ تَرْجُو الْمُلُوكُ وَتَرْغَبُ
أَلَا إِنْ حَزَبَ اللَّهُ حَزْبَ مُحَمَّدٍ وَمِنْ ذَا الْحَزْبِ اللَّهُ فِي الْخَلْقِ يَغْلِبُ
أَبُوهُمْ عَلَى لَيْثِ كُلِّ مَلَمَةٍ وَمِنْ عَارِضِ الْأَشْبَالِ لَا شَكَّ يَعْطِبُ
وَلَوْ كَانَ يَلْنِي لِلنَّبِيِّينَ وَارِثٌ فَلَيْسَ لَهُمْ إِلَّا هُوَ مِنْ يَعْصِبُ
أَقُولُ لِمَنْ ضَاهَى وَسِيعَ رَحَابِهِمْ رَحَابٌ عَلَى لَا يَضَاهِيهِ مَرْحَبُ
يَدُورُ التَّقَى فِي الْكَوْنِ آلُ بَنِي الْوَقَا وَأَنْتِ بِإِسْعَادِ الْأَنْوَارِ هُمْ أَبُ
كُوا كَبْ شَمْسِ الدِّينِ أَنْتِ بِأَفْقِهِمْ وَلَيْسَ يَضَاهِي بِهِجَةَ الشَّمْسِ كُوكَبُ
إِذَا فَضَلُوا بِالسَّبْقِ عَنْكَ فَمَا أَتَى أَخِيرَ اسْوَى الْمَوْلَى إِذَا سَارَهُ وَكَبُ
وَعَادَةُ فَرَسَانِ الرِّجَالِ تَقْدَمُ فَمَا تَرْتَجِي إِلَّا الْكِرَامُ تَعْقِبُ
كَمَا آخِرُ الْأَنْبَاءِ جَاءَ مَجْمَلٌ وَأَشْرَافُنَا مِنْ نَسْلِهِ تَتَشَعَّبُ
تَدُومُ وَتَبْقَى فِي السَّرُورِ مَعْمَرَا إِلَيْكَ عِمَارَاتُ السَّعَادَةِ تَنْسَبُ
فَأَنْتِ عَلَى التَّقْوَى تَوْسَسُ مَسْجِدَا بِهِ حَرَمٌ مِنْ زَارِهِ لَيْسَ يَرْهَبُ
لَنَا الْأَمْنُ فِيهِ مِنْ مَتَاعِبِ دَهْرِنَا فَمَنْ حَلَّ فِي جَنَاتِهِ لَيْسَ يَتَعَبُ
لَهُ لَبَنَاتُ كَالْكَوَاعِبِ أَسْفَرَتْ لَهَا بِأَحْمَرَارِ النُّقْشِ خَدُ مَذْهَبُ
جَمِيعِ الْعِلَا وَقَفَ عَلَيْهِ مَخْلَدٌ وَفِيهِ لَنَا جَارِي الثَّوَابِ بِمَرْتَبُ
لَيْسَ بِهِ مَنْ كَانَ لِلْخَيْرِ فَاعِلَا فَيَا لَيْتَنِي مِنْهُمْ أَعْبُدُ وَأُحْسِبُ
عُنَاصِرَهُ طَابَتْ بِأَكْرَمِ سَادَةِ فَفِيهِ إِلَى كُلِّ الطَّبَاعِ تَحْبِيبُ

أرى علماً جارا لهم وأظنه
تطاول أعلاه ليبلغ شأوهم
تلوح الثنايا منه باسمه لهم
وقد حل من خوف الوقود بقربهم
أيا حراماً نهوى بأفئدة له
على عرفات القرب هل لي وقفة
إليك أبا الأنوار أهدى قصيدة
معان يعاديهما الحسود وينثنى
تراوع من عادى وتبدي فصاحة
رقاق حواشيهما نسيجة وحدها
إذا رضى المولى بمدح محمد
عرأس لا ترضى بغيرك ما هرا
بمدحك رقيها ومدح بنى الوفا
فإن حفيها منك القبول فخبذا

وقال بمدحه :

حرم فيه للملائك أمن
خاتم الرسل جده وبهذا
آل طه ذخيرتى المدح فيكم
أنتم سادة الورى ولعمري
مددنا أنا إلا المودة يتلى
مذ مدحتهم فى لوح كل وجود
وأبو الأنوار الذى بحماه
أفق العز مشرق بسناه

وطواف بركنه واستلام
فى وفاء للأولياء ختام
وأرى حبكم هو الإسلام
لاتضاهى ساداتها الخدام
فهو فينا لفضلكم إعلام
بالذى عنه تعجز الأقالام
تتساوى الليث والآرام
فالليالى تضى والأيام

وقال يمدحه :

نجل الإمام الذي مولاه كرمه
آل الوفاء على الدنيا لهم شرف
أهل الولاية أغصان بروضتها
وللفرد القطب شمس الدين سيدهم
وعن على أبنى السبطين والده
من الذين إله العرش طهرهم
ياسيدا حاز أنواع الكمال فمن
هئت مولاي فالعام السعيد أتى
والسعد ناداك والبشرى تؤرخه
وماله أحد في فضله جارى
وهم أعز الورى جاها وأنصارا
وهم يلوحون للأغصان أزهارا
وسعده فاق بالإشراق أقدارا
حاز الفخار وأحيا منه آثارا
ومن أحبهمو لن يدخل النارا
أراد حصر نداه زاد إحصارا
مبشرا أن وقت الصفو قد زارا
بالنصر تزداد إسمادا وأنوارا

وقال يمدحه :

في أبرك الأنوار دمت سعيدا
وحباك بالعمر الطويل وبالهنا
قد حزت بالخلفاء آل محمد
كن واثقا بالله معتصما به
فالناس بالتحميم شرف قدرها
لولا انحصار الملك فيكم لم تكن
آل الوفا إلى بكم وبجهدكم
كم صغت فيكم من فلائد فكرة
حبي لكم ولجهدكم ياسادتي
ويدوم وقتك بالمسرة عيدا
وأدام حظك وافرا ومديدا
قربا وائس الفضل منك بعيدا
في عصرك المأمون دمت رشيدا
والله باسمك شرف التحميديدا
في بابكم كل الملوك عبيدا
أرجو لأوقات الهنا تجديدا
تأبى لغير جنابكم تقليدا
حسبي ولا أبغى عليه مزيدا

وقال يمدحه :

لمصر عادت بك الأيام مقبلة
ياسيد للورى أفضت مكارمه
لكنها بسوى الأفراح لم تمد
كالقطر والبحر إحسانا بلا عدد

على حماك علا الأبرار مرصدة
عن الأنام الذى أسياف سطوته
مكرم الوجه ذى العزم الذى عجبت
كن واثقا بنوال الله مكتفيا
محبة لقلوب الناس مطلقها
أنشأت قاعة أنوار مشيدة
تحرير فكرك فى إتخاف بهجتها
أقسمت بالشمس من للاء عزتها
ومن رآها وقطب العصر حل بها
من منهل العلم والإفضال واردة
على عماد التقى والدين قائمة
جنتها تحتها الأنهار جارية
سماء مجد بشمس الدين مشرقة
مشكاة نور على نور زاجتها
راقت بها لبنات كاللجين بدت
تحيى الكواعب حسناوهى لابسـة
أنت السعيد بإذن الله فى أزل
سدوارق وانعم وحز بشرى مؤرخة
لما علا الجد بالتسليم قد ختمت
لقاعة المجد إسعاد بمنشأها
لها السرور به والحفظ يصحبه

توفيق ربك لا بالوفى والرصد
لها قلوب العدا من جملة الغمد
منه الملائك فى بدر وفى أحد
ياخير معتصم بالله مرتشد
أنت الصنى ومن عاداك فى الصقد
قديمة الفضل تروى المجد عن أدد
يريك جوهرة جاءتك بالزبد
مامثلها حرم للأمن فى البلد
يخالها أشرفت كالشمس بالأسد
ومثل رونقها فى الدهر لم يرد
دعائم الحفظ تغنيها عن العمد
وماؤها ككوثر أحلى من الشهد
على إمام بفعل الخير مجتهد
تزهو بمصباح سر منه متقد
تصفو دنائير خديها لمنتقد
ملونات حلى من نقشها جدد
دامت حياتك يامولاي فى أبد
تهن وابق ولح فى عزة وزد
كان السرور بها باسم الإله بدى
دامت به كعبة للرفد والرشد
يحل منها محل الروح فى الجسد

ومن مو شحاته :

مالن أسباني * ثانى * فى ملاح العصر
ساحر الأجفان * جاني * بالجفا والهجر

— ٣٤٤ —

أنا منه عانى * فاني * وهو بي لا يدرى
دور

بالخديد الوردى * ييدى * نزهة الأرواح
وبخال ندى * يهدى * جنة الأرواح
ولما الشهدى * عندى * جالب الأفراح
ثغره المرجاني * حاني * من شذاه سكري

دور

منهل الأسرار * جارى * عند أهل المجد
سادق الأبرار * وارى * زندهم بالسعد
وأبو الأنوار * قاني * ذو العلا والنصر

وقال .

حبيبي بالذى ورد شقائق خدك التبرى
وئني قدك المفرد بخمرة ثغرك الدرى
ومنك الجفن قد سود على هاروت بالسحر
أدر كأس الطلا واغتم زمان الفوز بالرضوان

وقال .

ملك أوحده العصر وفى صادق الوعد
بدا فى طلعة البدر وهيبة طلعة الأسد
صديق العز والنصر حليف الجود والمجد
لهذا ترجم الأعجم بمدح الكتبخدا رضوان

٩ - الخشاب

قال متغزلا :

أدر السلاف على صدى الألحان
واستجل بكر الراح في ظل الربى
شمس لها من فوق خيد مديرتها
نور ولكن من سنا لألائها
نار لها في وجنتيه . وكفه
من كف معتدل القوام كأنه
نشوان من سكر الشباب يهزه
ومنهف ماء الحياة بوجهه
وافى فعاتبني على وصلى النوى
فأجبتة والوجد يجرى عبرتي
يا أيها الرשא الذي ألحظه
أبسحر بابل قد كحلت سوادها
يا مخجل الفصن القويم ومن إذا
كيف اللقاء وأسد قومك غابها
وكافة آلاك نارهم ما كسروا
من كل ماضى العزم حد سيوفه
ليث العربين له تلفت جؤذر
متلائيء تحت الشعور جبينه .
عربي لفظ أعجمي المنتمى
غصب النجوم فصاغهن أسنة
ولديه بيض المشرفية حولها
ودع المذول بجعله يلحاني
بين الرياض تزف والعيدان
شفق الصباح إذا بدا الفجران
في الخلد نار فؤادي الوهبان
لهب به أعشوا إلى النيران
قر يلوح على غصين البان
من خمر فيه وراحة السكران
يروى بهى شقائق النعمان
والشوق يضرم ناره بجنانى
ويكاد يجبس عند ذاك لسانى
إن أومات فتكت بغير توائى
حتى غدت فتاكة الأجفان ؟
ما لاح يوما يختمنى القمران
بين الظبا وعوامل اللران
يوم الوغى من أسهم وسنان
وسهام لحظ عيونه سيان
يفتر عن در وعن مرجان
كحسامه في غيب الميدان
هندي لحظ صائل بيان
وبقيته نظمها عقود جان
سحر اللدان جداول الأغصان

تنشى سوابقهم سحائب عثير
 خرس الرماح فان يطف بلطائف
 صيد جموك بكل سهم موتر
 وعويندلى حسدا عليك ولائى
 فاقبل فدتك النفس عذرى لانه
 ولقد أقول لعاذلى ألا اكففا
 تهمنى بوارقه النجيع القانى
 فله تكلم ألسن الخرصان
 سهم القسى وجفنه الوسنان
 يتناجيان بالاثم والعدوان
 كضياء وجهك واضح التبيان
 جئت الهوى من بابہ فدعانى
 ولقد يمدح شيخ السادات محمد أبا الأنوار :

ولعت بسود أجفان الملاح
 وشاقتك القدود ألت تدرى
 حذار ظبا الكناس فثم ريم
 ومن علق الهوى يلتقى هوانا
 ومعسول الرضاب شهى فيه
 أسيل الخلد درى الثنايا
 يصول من اللحاظ بمخدرات
 إذا ما افتر مبسمه أرانا
 رشا أحداقه عبثت بلهى
 ألام على هواه ولست أضغى
 ودون مزاره حمر المنايا
 يبرق فرندها يحمى حماء
 فلو نسر السماء أراد يدنو
 توقد وجنتيه له بقلبي
 وفيه تغزلى قد رق معنى
 أبو الأنوار وابن الطهر طه
 فريد العصر أوحده علاه
 وهن أحد من بعض الصفاح
 ككون الختم فى لدن الرماح ؟
 يصيد ليوث آجام البطاح
 ومن يغتر بالغرر الصباح
 يجول به السلاف على الأفاح
 قوتهم القد مهضوم الوشاح
 حشائى لوقمها داحى الجراح
 عقود النجم فى شفق الصباح
 كأن بغنجه أقداح راح
 إلى هذيان أقوال اللواحى
 وبيض الهند ماضية السلاح
 وشهب رماح آساد الكفاح
 إليه لعاد مقصوص الجناح
 ضرام النار فى خفق الرياح
 وفى مولى الورى راق امتداحى
 سليل الأكرمين أخو السماح
 رفيع القدر بدر سنا الفلاح

معصود ذولة المختار يدعو
مطاع لو أشار إلى ثبير
ذكي الذهن متقد لديه
هو البدر الذي أمسى سنابه
له قلم بعلم الغيب يجري
يحاور في أنامله يمينا
يعين تملأ الدنيا يسارا
تكاد المزن تمطرنا اللآلى
خلال كالرياض زها بهاها
وأنفاظ كنغر الغيد تزي
فلو مثلت لنا كانت عقودا
أصفوة أحمد إلى أرجى
فليس على محب بنى على
ولست بمبتغ عرضا سيفنى
فهاك عقود نظم كدت فيها
وقال :

أطوى هضاب فدافد ووهاد
جلد العزائم عند كل جلاد
متجشم في الروع هول طراد
مران أغصان النقا المياد
صدف للشوق بالدلال البادي
ونقطته يد الدجى بمداد
مكحولة أجفانه بسما
ولرب ليل قد أبيت بجنحه
بأغر أجرد ضامر لكنه
متعود وطء الأسنة في الوغى
ظن السيوف جداولاً وعوامل
وتراه يعرض في الأعنة مثلاً
وكأنما صبغ الصباح أديمه
ولكم به جبت الفاوز والسها

متقلدا عوض السيوف عزأني متسرّلا بدل الدروع فؤادي
حتى بلغت أخت السباحة والندی وابن السراة السادة الأجياد
الباذلين على الثناء عليهمو ماقد حووا من طارف وتلاد
فمن ابن جعفر في السباحة عندهم وبنو بويه ومن بنو عباد ؟

وقال في مغن يدعى مصطفى الصيرفي ، ومنشد له يدعى سليمان :

اشرب على نعمة الألمان والوتر راحا كشمس الضحى من راحة القمر
واسمع غناء أبي داود تلق به أنغام داود فيها لذة العمر
واصغ لمزهر ذاك الصيرفي ترى إيقاع منتقد بالنغم ذى بصر
عود يمازج روحى خفق مثلته مزج النديم السلاف الصرف بالمطر
لو خال معبد يوما كف ضاربه أمسى مقرا بفضل فيسه مشتهر
صوت رقيق ولحن حين يعربه يأتى بما عنه تعبي طاقة البشر
فلو تغنى لميت عاد من قدم جرت به الروح جرى الماء في الشجر
مارام يحكيه في إتيقانه حسن^(١) إلا وجاء بقبح غير منحصر
ماقيس يوما به في فنه رجل إلا كما قيست الخصباء بالدرر
وإن تعبته العداة الحاسدون له فالعمى تنهل ضوء الأنجم الزهر
لازال يرقى سماء العز ما صدحت ورق الحمام بأعلى الدوح والشجر

١٠ - عبد الله المنزلى

قال يمدح شيخ السادات :

مهلا أبا الأنوار مهلا لاتسمعن في الصب عذلا
أسهرت جفن متيم عنه حديث الحب يتلى
صب له من جفنه نهر فما نهر المعلى ؟
وله فؤاد ذائب ولواعج لم تحب أصلا

(١) هو حسن فتوة ، أحد المغنين في ذلك العصر

وله أنين زائد جنح الليالى ما استقلا
دنف له فى كل وقه ت زفرة. أعيته حملا
ويرى كئيبا قد جفا من حزنه ولدا وأهلا
كبد له مقروحة من فكره بالنار تصلى
يمسى ويصبح من جيو ش الهم مشتبهها بشكلى
يا ابن الأماجد يا إما م المؤمنين فتى وكهلا
حاشا لمجدك يرتضى للمبد بعد العز ذلا
حاشا لمحتدك الشرى ف أرى ذليلا مضمحلا
حاشا لمجاسك اللنب ف يكون فيه الحر ندلا
حاشاك تمنحنى ضيا ء ثم ترجع فيه كلا
فاسمح فديتك يا كرى م الناس أخلاقا وفضلا
يا قطب آل بنى الوفا جيد الزمان بهم تحلى
قوم لهم فى المكروما ت عرائس الأفضال تجلى
قوم همو لى ملتجا فى كل كرب قد أظلا
وهو غيائى من صحا ب السوء من ندرى ومن لا
لاشك أنى فى حمى الس اادات قد نوديت أهلا
فاصفح بفضلك عن ذنو ب قدرت من قبل أن لا
صفحا جميلا يستفا ض حديثه بين الأخلا
لأقول للقلب المشو ق لقد بلغت الآن سؤلا
وأكون ممن قدسقى كأس التقرب منه نهلا

وقال يمدحه :

الغياث الغياث يا ابن النبى من عدو وحاسد وغبى.
قعدوى يحرف القول عمدا وهو خصمى وليس بالمرضى
وحسودى الكذوب لاشك مغرى من خبيث من فتية الأموى.

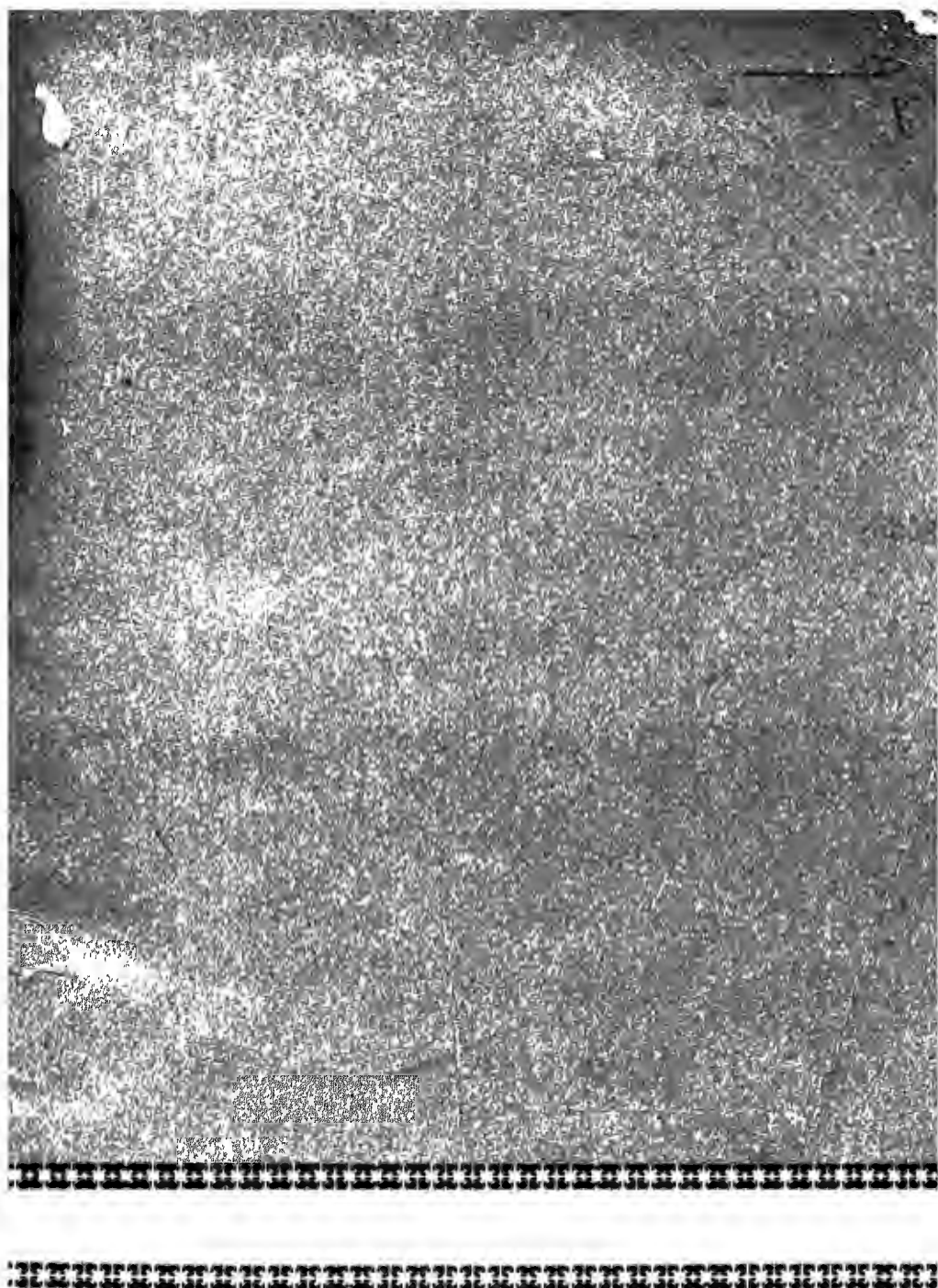
والغبي البليد يبدى حديثا
قد رموني بالإثم والمزور واله
وصفوه بكل وصف ذميم
ويجهم ويجهم أما يرقبون إلا
أبعد الله هؤلاء زوالا
ليس فيهم راع لود كريم
هو نجل السادات آل وفاء
آل بيت مبرأون من الرج
ملجأ اللائذين غوث البرايا
يا إمام التحقيق في كل فن
أنت حقا باب المدينة للعد
لا تدعني فريسة لذئاب
فأجرتني من هؤلاء فاني
واجل غنى سحب الجفاء لكي
إنني الكوكب المضيء بنور
كنت قدما مطوى دهر ولكن
حاش لله أن أضام ولي عز
وإليك البديع قد زف بكرا
ذات در من المعاني مضيء
واعف غنى عفوا يكون جميلا
فاعتراني بالذنب يوجب عفوا
وصلاة على النبي دوانا
وعلى آله الكرام اللوالى
ما عبيد السادات قال ارتجالا

عن فلان بمكره الفرضى
تان عمدا وما ارعوا عن بنى
حسبى الله ناصرى وولى
ه في عبده النصيح السوى
ومساء في الضحى والعشى
بل تدانوا بودهم للذنى
كرم الله وجههم بعلى
س بنص في المحكم العربى
مأمن الخائفين من كل شى
يامقيد العلوم يا ابن الوصى
م بحكم الوراثة الشرعى
ارتوا من دم الفتى المنزلى
لى عهد وأنت خير وفى
يبدو نورى للباد والحضرى
من سنالك العظيم الأنورى
أظهرتنى يدك من بعد طى
عظيم فى جاهك الحسنى
بنت فكر فى حسنها والخلى
فاقبلنها بعفوك الشاملى
ناسخا ما جنيت من كل غى
من كريم عن المساوى برى
وسلام من العزيز العلى
ومصاحب ذوى للمقام الجلى
الغياث الغياث يا ابن النبي

فهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٣
الباب الأول : الفصل الأول : الحالة السيامية	٨
الفصل الثاني : الحالة الإجتماعية	١٩
الفصل الثالث : الحالة الفكرية	٣٥
الباب الثاني : الفصل الأول : الشعر ومذاهبه	٥٧
الفصل الثاني : المدرسة البكرية	٧٠
الفصل الثالث : المدرسة العلوية	١٣٥
الفصل الرابع : المدرسة الأميرية	١٧٢
الفصل الخامس : المدرسة الشعبية	١٩١
الباب الثالث : دراسات تكميلية	٢٠٩
١ - الوصف	٢٠٩
٢ - الغزل	٢١٧
٣ - الإخوانيات	٢٢٣
٤ - التوصل	٢٣١
الباب الرابع : بعض مشاهير الشعراء	٢٣٥
١ - عبدالله الشبراوى	٢٣٥
٢ - عبدالله الإدكاوى	٢٣٧
٣ - ابن الصلاحى	٢٤٠
٤ - قاسم بن عطاء الله المصرى	٢٤٢
٥ - السبربائى	٢٤٣
٦ - الظهورى	٢٤٥
٧ - الحشاب	٢٤٧

الموضوع	الصفحة
الباب الخامس : النثر	٢٤٩
الفصل الأول : النثر الفنى	٢٤٩
١ - المقامات	٢٥٣
٢ - الرسائل	٢٥٥
أ - الرسائل الرسمية	٢٥٥
ب - الرسائل الإخوانية	٢٦٩
الفصل الثانى : النثر المرسل	٢٦٦
١ - نقد المجتمع	٢٦٦
٢ - لغة التأليف	٢٦٨
الفصل الثالث : النثر الشعبي	٢٦٠
الباب السادس : الفصل الأول : بعض مشاهير الكتاب	٢٧٦
١ - الشهاب الخفاحى	٢٧٦
٢ - مرعى بن يوسف الحنبلى	٢٨٠
٣ - عبد البر الفيومى	٢٨١
الفصل الثانى : بعض مشاهير العلماء	٢٨٤
١ - داود الأنطاكى	٢٨٤
٢ - مرتضى الزبيدى	٢٨٦
٣ - الصبان	٢٩٣
الفصل الثالث : المؤرخون وأصحاب السير	٢٩٥
١ - ابن إياس الحنفى	٢٩٥
٢ - أحمد بن زنبيل الرمال	٢٩٧
٣ - على ابن نور الدين الحلبي	٢٩٦
٤ - عبد الباقي الإسحاقى	٣٠٠
٥ - محمد بن محمد بن أبى السرور البكرى	٣٠١
مختارات من الشعر	٣٠٣



يطلب في مصر والشرق العربي من
دار الفرجاني - ص.ب (٢٣٨٢) ص.ب - القاهرة

